نبض الخائن

رواية

تأليف

مجدي يونس

طبعة ٢٠١٩

يونس، مجدي

نبض الخائن: رواية /مجدي يونس؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٣٦٨ ص ,٢٠ سم

تدمك: ١ ٧٤٤ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

نبض الخائن

رواية

تأليف

مجدي يونس

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٣٨٥٦

الترقيم الدولى

١-٧٤٤-٣٩٩-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : نبض الخائن

المؤلف : مجدي يونس

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلى أسرتي وعائلتي

وإلى كل المخلصين من أبناء وطني

(١)

هـرول باسـل مسـرعًا يحـث الخطـى نحـو الباشـا الـذي طلبـه لأمـر مهـم ، وعندمـا وقـف أمامـه انكشـف فمـه عـن تلـك الابتسـامة الجَميلـة التـي تعـود سـيف باشـا أن يراهـا مَطبوعـة علـى فمـه دائمًـا، والتـي كانـت في أحيـان كثيـرة تـروض غضـب الباشـا، إذا كان حانقًـا أو غاضبًـا مـن شَـيء ويراهـا ينسـدر منـه ذلـك الغضـب وتخفـف عليـه وطأتـه، ويَعـود إلـى حالتـه الطبيعيـة مـن الهـدوء والسـكينة .

لـم تَكـن تلـك الابتسـامة ، ولـم يكـن إخـلاص باسـل وهـدؤوه هـي فقـط الأسـباب التـي غَرسـت حبـه في فـؤاد الباشـا، حتـى سـكن شـغاف قلبـه وصـار مِنـه بمنزلـة الأخ أو الابـن ، يُقـدره ويحترمـه ، وإنمـا كان هنـاك عوامـل أخـرى سـاعدت علـى تآخـي القَلبـين ، وعلـى الرغـم مـن أن البـون بَينهمـا شـاسـع، والتكافـؤ مُنعـدم، ولكـن إذا أراد اللّٰه شـيئًا لـم يكـن ليغيـره شـيء آخـر، فـكان الحـب والاحتـرام والتقديـر هـو مَنـاط التعامـل بينهمـا .

وهـذا لـم يـأت هكـذا هبـاء أو مِـن فـراغ، وإنمـا كان هُنـاك منبـع للأخـلاق الحَميـدة التـي تربـى عليهـا كليهمـا، والإخـلاص والوفـاء والأمانـة والصـدق التـي تربـى عليهـا باسـل وسـط أسـرته الفقيـرة التـي اندثـرت، ولـم يبـق مِنهـا سـواه ، فـالأب مـات في مرضـه الـذي أنهـك قـواه، وفـت عَضـده ، وفتـت أعضـاءه، مـات ولـم يسـتطع باسـل

فعل شيء لقلة حيلته ، ولفقره المُفقع ، فعاش وحيداً بعد وفاة أمه انعزل بعيداً عن الناس في دارهم القَديمة ذات الأعمدة المُتهالكة، وسقف القش والفروع الخَشبية المحلاة بطبقات من الطين المَفروش برقع واسعة من البلاستيك الأبيض الشفاف.

قبع في تلك الدار الهرمة، وحيداً لا أحد يزوره، أو يصله سوى صديق والده «السعيد» الذي توسط له ليعمل لدى الباشا .

ترك باسل بلدته التي تَربى ونشأ وترعرع فيها ليعيش في بلدة غريبة مع ناس لا يعرفهم، ولا تربطه بهم أية صلة أو رابطة من دم أو نسب ، ولكنه استطاع في وقت قصير أن تَطمو علاقاته، وتتفهق صداقات طيبة ، وصلات وثيقة مع كثير من أهل عزبة الباشا .

وصار بعد وقت قليل هو المسؤول الأهم عن مُمتلكات الباشا في تلك العزبة سواء في غيابه أو في حُضوره، وصار هو الموكل بشئون العزبة والجنائن والمزارع وثِمارها البرتقال والليمون والكمثرى والتفاح وغيرها .

فلم يشعر بِغربة، وصار أهل العزبة أهله، وصارت العزبة موطنه المؤنس وصار الباشا الذي أعطى له كامل الحرية في التَصرف ثقة فيه بمنزلة الأب اعتبره كذلك بينه وبين نفسه ، لم يَبح بذلك أمام أي شخص مراعاة منه للفروق بينهما ، ولكنه ذهل عندما قال له الباشا ذات مرة :

ـ أنا أعتبرك مثل ابني الذي لم أنجبه .

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي نعت فيها الباشا باسلا بهذا النعت الحبيب إلى قلبه ، بل تكرر مرات ومرات ، وصار نغمات ترن في أذنيه كثيرًا، فسعى بشتى الطُرق لإسعاد الباشا ، وإدخال السرور عليه، والإخلاص له والتفاني في عمله ، فزادت الإيرادات المتتابعة في خزائن الباشا من ثمار المزارع والجنائن أضعافًا مضاعفة، حتى صارت البسمة لا تُفارق شفاهما مما جعل الباشا يُخفض من غضبه أمامه في كثير من المواقف كهذا الموقف وإن ظهر شيء من ذلك في لهجته حيث قال :

ـ ما هذا الذي فعلته ؟

انحسر وجه باسل عن دهشة وقال :

ـ وماذا فَعلت يا باشا ؟

ازورت عينا الباشا وفارتا، وكانت أول مرة يراه فيها باسل غاصًا بالغضب ، يقول له :

ـ من الذي أذن لك أن توافق على ربط طريق عزبتي، بعزبة الكلب «عزام الشماس» وتجز جزءًا من الشجر الموصل بين عزبتينا ؟!

ألجمته الدهشة، وسكنه الصمت ثم خرج منهما قائلاً :

ـ وما الخطأ في ذلك ؟

ـ الخَطأ أنك فعلت ذلك بدون إذني .

ـ معاليـك يـا باشـا، منحتنـي ثقتـك، وأنـا فعلـت هـذا مـن مُنطلـق هـذه الثقـة .

ـ إنك قصلت كل هذه الثقة بفعلتك هذه وأقضت أركانها

ـ الفعلة !! أي فعلة ؟! هـذا الموضـوع تحدثت معك فيه قبل ذلك ، ومعاليـك وعدتنـي أنـك سَـترد علـي بالقبـول أو الرفض ، ولكنـك نسـيت ، فذكرتـك، وطالـت المدة، ولـم أعـرف رأيـك .

ـ فمباشرة تصرفت من رأسك ؟!

ـ لا ، ليس كذلك .

ـ إذن ، ما الأمر ؟

ـ عِندمـا أخبرنـي ناظـر عزبـة «الشـماس» أن العمـدة يُريدنـي ، ذهبـت إليـه، فأعلمنـي أن عـدداً مـن الـوزراء سـيزورون عزبتـه ، وطلـب منـي أن نجـز عـدداً مـن الأشـجار الفاصلـة بيننـا ، وكنـت قـد تحدثـت مـع سـعادتك بشـأن هـذه الأشـجار الكثيفـة التـي تبـدو كأنهـا غابـة، تعـزل عزبـة معاليـك عـن باقـي العـزب، بـل إنهـا تشـوه مَنظـر العزبـة، وحضرتـك أبديـت سـروراً لذلـك ، فعرفـت أنـك مُوافـق .

ـ إلا هـذا الرجل يا باسـل، أبديت سـروري بالنسـبة للعزب الأخرى ، أمـا عزبـة هـذا الرجـل الخائـن، فـلا ، أنـت لا تعـرف .....

وانتبه سيف باشا لكلامه، فدور عينيه وابتلع ريقه، ثم قال :

- بالنسبة لهذا الرجل عزام الشماس يا باسل، لا أريد أي اتصال بيننا وبينه أبدًا، أول وآخر مرة تذهب إلى هناك ، وما حدث حدث، لكن بعد ذلك لا أريد أي تعاون أو اتصال بيننا وبينه وبين أي أحد في عزبته، مفهوم

يهز باسل رأسه ويقول :

- مفهوم يا باشا، لكن .....

ويصمت ، فينفضه الباشا بِبصره ، ويقول :

- لكن ماذا ؟

- كنت أريد أن أسأل معاليك سؤالاً، ربما ليس لي الحق في ذلك، ولكن من منطلق حبي لك، وإخلاصي يتحتم علي أن أسألك كي أحاذر وأحتاط بعد ذلك فحبيبك حبيبي ، وعدوك عدوي

- اسأل يا باسل ولا تخجل .

- ما سبب مقتك الشديد لهذا الرجل ؟

يسربله الصمت ويَجرفه فيشرد بعيدًا، ويتنحى برأسه مجيبا داعي السكوت وقد ذرا الألم في عينيه، وبدا على مَلامحه المهيبة حزن عميق، فَيخجل باسل من سؤاله، وتمنى أن لو لم يسأله هذا

السؤال ، فتهيأ للانصراف فَدار بجنبه وقبل أن يُولى مُدبرًا ناداه الباشا وقال :

ـ انتظر يا باسل .

فالتفت ووجهه في الأرض ثم رَفعه شيئًا فشيئا ثم قال :

ـ تحت أمرك يا باشا، وأعتذر عن سؤالي .

ـ لا عليك يا باسل ، مقتي لهذا الرجل وبغضي الدميم له خلفه قصة طويلة سوف تعرفها يوما ما، لكن من الآن وصاعدًا لا أريد اختلاطا بينك، وبين هذا الرجل أو أي أحد من رجاله بأي حال من الأحوال

ـ إن شاء الله يا باشا ، طالما أنك تكره هذا الرجل فإذن هو من أسوأ الرجال

ـ بل هو أسوأ الرجال في مصر كلها، بل في الشرق كله ، ومع سوءه فهو من أخطر الرجال وأبشعهم، في دَمه الخيانة والغدر والطمع ، لحمه معصور بالرذائل والفواحش ، لن ترى رجلاً في بشاعته ودمامته وشناعته ، فيجب اجتنابه واجتناب الرياح التي تمر علينا من جهته.

حرك باسل رأسه في تفهم وتعقل لكلام الباشا، ثم يستأذن للانصراف تاركًا سيف باشا في حالة من الحَسرة متوسدها ،

ومفترشا الحزن، قد عكر مزاجه ولفه غضبه، وأخذ بلبه ، وأنشأ يحدث نفسه وهو ينظر من شرفة مكتبه إلى الحديقة العامرة بِالثمار والفواكه التي تَرقد أمام سراياه ، قائلاً لنفسه في وجع مشوب بالخوف :

ـ هذا الكلب مازال يُدنس هذه المنطقة بحفلاته القذرة وسهراته النجسة ، تركت إليه القاهرة، فجاء يهرول خلفي كأنه يتقصد حزني ، والإساءة إلي باستمرار، فأتى إلى هنا ليعكر صفو الحياة هنا، ويلوث هواء هذه المنطقة بسمومه القاتلة ، وزمهرير ريحه المُهلكة، بعدما لوث مصر كلها، بل بعدما سمم الشرق كله، إنه وصمة عار، وطابع الشنار في جبين العرب كلهم، إنه .... ، إنه خائن ، بل إنه ....

لا ، لا أريد أن أتكلم عن هذا الرجل مرة أخرى ، كي لا أصطلي بلظى ناره لكني ... لكني أحدث نفسي بيني وبينها، فكيف يسمعني أو كيف سيعرف أني أتحدث عنه ، لقد عَزلني عن الناس، وجعلني أعيش وحيدًا في وحشة في هذا المكان القفر بِمفردي ، بعدما كنت الرجل الاجتماعي والسياسي الذي يشار إليه بالبنان ، وتُرفع له القبعات .

ثم يجلس على أدنى كرسي له، وهو مازال في شروده وتيهه، ثم يقول بصوت مسموع يَتدرج في الارتفاع :

ـ ولكني ... ولكني مازلت الرجل ....

ثم يركن إلى حالته الأولى من حديث النفس بِسُخرية ، واستهزاء:

ـ مازلت ؟! مازلت كيف ؟! وأنا هنا مَصروب محبوس ، مَحقون النفس، محلوء هنا في هذه العزبة القذرة، التي دنست بجيرتها لهذا القذر، ليتني أقدر على الثأر منه لأخلص العالم كله من شره، ونَتَنه وقَذارته ، ليتني ...

●●●

(٢)

لـم يكـن باسـل يعـرف أن مـا ارتكبـه إثـم عظيـم، وخطـأ شـنيع، مـع أنـه يعتقـد أن مـا فعلـه خيـر عظيـم لعزبـة الباشـا، فقـد كانـت تلـك الأشـجار مُشـوهة ومقبحـة منظـر العزبـة ، وكأنهـا مقبـرة لهـا، أشـجار كافـور منتشـرة ومُتفرقـة حـول العزبـة كلهـا مـن كل جانـب، ملتصقـة ومتراكبـة مـع بعضهـا متشـابكة الأغصـان والفـروع تـوراي ملامـح العزبـة الجَميلـة ، وتفصلهـا عـن باقـي المناطـق المُجـاورة مـن جميـع الاتجاهـات ، فعاشـت العزبـة في عزلـة عمـا يجاورهـا كمـا عـاش صاحبهـا في عزلـة أكبـر عمـن حولـه، وأشـدها عليـه هـي العزلـة النفسـية التـي توغـل فيهـا وغـاص في أعماقهـا وغاصـت في أعماقـه ، وصـار كأنـه جسـد بـلا روح .

لا يَعلـم الكثيـر عـن أسـباب هـذه العزلـة الجسـدية ، والنفسـية التـي يعيشـها سـيف باشـا، استشـف باسـل مـن كلام الباشـا أن ثَورتـه العارمـة وغضبـه الفاحـم لـم يكـن بسـبب قطـع الأشـجار، لأنـه قـد وافـق علـى قطعهـا ذات مـرة عندمـا أعلمـه باسـل بذلـك، وسُـر بالفكـرة وتحمـس لهـا، وأخبـره وهـو يربـت علـى كتفـي باسـل أن هـذه الفكـرة كانـت تُـراوده منـذ فتـرة، وإنمـا كان غَضبـه بسـبب التصـاق اسـم عـزام الشـماس في الموضـوع ودخولـه فيـه، وأن القطـع إنمـا بَـدأ في اتجـاه عزبتـه في الطريـق المُـؤدي إلـى تلـك العزبـة التـي يغشـاها عـزام الشـماس في فتـرات مجونـه ومجـون ضُيوفـه، ومـا أكثرهـم !

رغم العداوات وحزازات النفوس والبغض الذي يكنه كل منهما للآخر إلا أن ناظر عزبة الشماس قد استغل فُرصة طيبة باسل ولينه وتصرفه في العزبة حيثما شاء، واستطاع أن يُزيل جزءًا كبيرا من أشجار الكافور المُرعبة المتفشية في الطريق الواصل بينهما كالوباء مثل عزام الشماس الذي لم ينس باسلا اسمه ولم يَنساه مُنذ أن خرج من عند سيف باشا، رغم أنه لم يره إلا أن كلام الباشا عنه جَعله يرقد في عقله يفكر فيه ليل نهار ، ولم يَتردد في أن يسأل «ربيع العطار» صديقه الوفي، رُغم فارق السن بينهما ، فباسل في سن أولاده أو أقل، ولكن الصداقة الحقة لا تعترف بأي نوع من أنواع الفوارق فلم يَتردد في سؤاله أثناء تناولهما طعام الفطور أمام دار «ربيع» على أطراف عِزبة الباشا من نَاحية عزبة الشماس، وأمامهما صنية مترعة بالبيض والجبن والعسل الأسود والخبز الشمسي، وقد تغير وجه ربيع عندما سَمع اسم الشماس ، وألقم فمه بيضة بلدي صغيرة ثم قال :

ـ انس اسم هذا الرجل نهائيا يا باسل يا ابني .

أبدى باسل دَهشته ، وانفطرت عيناه عن تفهق يزيد حِيرته وقلقه ثم قال :

ـ لِماذا يا عم ربيع ؟

ـ قُلت لك انس اسم هذا الرجل، ولا تَلح علي في السؤال

مص باسل شفته السفلى في ارتياب وخوف ثم قال :

- كَلامك هذا وكلام الباشا جعلني أفترش مهاد الخوف والقلق، وأتقلب على مَراقد الفكر، فلابد أن أعرف السبب كي تَستريح نفسي ويعود إلي هدوئي وراحة بالي مرة أخرى ، أريد أن أعرف حَقيقة هذا الرجل، وماذا بينه وبين سيف باشا .

- أي حقيقة ؟ ليس هُناك أي شيء سوى خصومات قَديمة بين الباشا وعزام الشماس .

- مَا شكل وما نوعية هذه الخصومات ؟

- خُصومات وفقط

- أي خُصومات ؟

- كل ما أعرفه أن الباشا يَمقت هذا الرجل ، ويُبغض سيرته ، وإذا كنت تريد أن تعرف المزيد سل الباشا .

يَكتنف باسلاً صمت، ويحوطه وجوم ، ويَمحله قلق عميق ، يُلاحظ ربيع تغير وجه باسل، وتَبدُل صورته فيربت على فخذه ويقول في لين ورفق :

- يا ابني لا تسأل عن أشياء إن تبد لك تسؤوك، أنا خائف عليك ، ونصيحة من أب لابنه تجنب وابتعد عن أي شيء يخص هذا الرجل حتى اسمه لا تَذكره لأحد، ولا بينك وبين أحد ،

وأنا قلت لك إن قطع هذه الأشجار سيثير مشاكل كثيرة، ويبعث شجونا من مراقدها، نحن في غنى عنها .

يَتمايل برأسه ويقف فاردًا ذراعه على شجرة جوافة أمام دار ربيع ، ثم يبتعد ببصره ويغيب في أعماق الأفق البعيد ويقول :

ـ المسألة لم تعد مسألة قطع شجر ، المسألة صارت أكبر من ذلك .

يتكئ ربيع على عصاه يستند عليها واقفًا، ويخطو خطوات تقوده عصاه ويقول :

ـ لا دخل لك في هذا الأمر يا باسل ، هذه خُصومات بين سيف باشا وعزام وهما أناس كبار وذوي سلطات واسعة ويستطيعان أن يتصرفا في أمورهما وأن يفضا هذه الخصومات أو يُثيراها من جد يد

ـ لكن يا عم ربيع ، الباشا أنا أحبه وأقدره يكفي ....

قاطعه بلطف وقال :

- الباشا كلنا نحبه يا ابني، لكن هؤلاء رؤوس كبيرة وأذناب طويلة، ونحن صِغار ضعاف، والداخل معهم وبينهم مفقود، والبعد عنهم حياة وأمن

- وما قيمة الحياة الذليلة ؟ الموت أشرف منها

- أي ذل تقصد ؟

- الـذل الـذي يدعنـا نَتـرك شـخصًا مثـل هـذا يعيـث في الأرض فسـادًا ولا نتصـدى أو نقـف لـه .

وفجـأة تتعالـى أصـوات صاخبـة شـديدة تنبعـث مـن اتجـاه عزبـة عـزام الشـماس ، فيلتفتـان لمصـدر الصـوت فيقـول ربيـع :

- حفلة جديدة من حفلات عزام ، لقد اعتدنا هذا الأمر من سنين

- وما أمر هذه الحفلات يا عم ربيع ؟

- لا شـأن لـك بهـذه الحفـلات ، لأنهـا خـط أحمـر ، مَحفـوف بالمـوت أو السـجن

- لماذا ؟

- أسئتلك كثيرة يا باسل، يا ابني افهم

- كي أفهم أريد أن أعرف ما يخص هذه الحفلات

- هـذه حفـلات يعقدهـا عـزام كل فتـرة تضـم المـلأ وعيلـة القـوم ورؤوس كبيـرة في الدولـة

- أي دولة بالضبط ؟

- مَاذا تقصد ؟

- تقصـد هـذه الدولـة المملكـة المصريـة أم تقصد المملكة البِريطانية العظمـى؟

- ليس لنا شأن في هذا ، من المملكة المصرية، المملكة البريطانية، مملكة الباذنجان ، ليس لنا دخل ولا شأن في هذا، الأمر لا يَعنينا

- يا عم ربيع ....

يولي ربيع ظهره له ، فيدور باسل حوله حتى يواجهه مرة أخرى ثم يفتح فمه ليتكلم فَيعاجله ربيع قائلاً :

- يا باسل أنت تأخرت على الباشا ، ويجب أن تذهب إليه

يَهز باسل رأسه أسفًا وحسرة ثم يقول :

- لا ، لن أذهب ، سَأتمشى قليلاً في المزرعة

يضع ربيع يده اليسرى فوق كتف باسل بينما يده اليمنى مستندة وقابضة على رأس عصاه المُستديرة ويقول :

- يا باسل يا ابني، أنا لدي أولاد وأحفاد صغار أريد أن أربيهم ، وأنا ضعيف كما ترى، وأنت أيضا مثلي ضعيف، اذهب لبيتك ولا تفكر في شيء، وانس هذا الأمر تَمامًا كأن لم يكن، كأنك لم تسمع هذا الاسم بتاتا .

يُحرك رأسه في حركات متتابعة سريعة من أعلى لأسفل ثم يقول :

- ربنا ييسر، اللّٰه المستعان .

- وأريد أن أخبرك بشيء مهم جدًا، وخطير للغاية، عزام الشماس له عيون في كل مكان حتى في هذه العزبة، وقد يكونون بجوارك تكلمهم ، وتأكل معهم، ولا يتسرب إلى قلبك أدنى شك نَحوهم فلتحذر يا باسل، أنا أحذرك وأخيفك وأرهبك ، لأنك مثل أبنائي ، وأنا أحبك ، ولا أحب لك الشر.

يَنصرف باسل والفكر سميره قد طوقه الهم وهشمه الحزن وسيره القلق والحيرة نَحو عزبة الشماس يخطر بقدميه حتى أصبح على بعد أمتار منها، وقد تزينت وازدانت بالمصابيح التي تشق الظلام، وتفتق قتامته وبالزينات التي تغلف سرايا عزام كأنها جوهرة لامعة في الغبش، وبدأت تترامى إلى أذنيه وتتهادى أصوات صاخبة وضوضاء مُتتالية من ناحية السرايا .

كانت سرايا الشماس طافحة بِشخصيات ذات نُفوذ كبير في المملكة المصرية سواء من المصريين أو من محتلهم ومحركهم من الإنجليز ذوي الشارات العالية ، والأوامر النافذة، وغيرهم من حلفائهم ، حتى ضجت بهم السرايا ، كما ضجت وزخرت بالصخب واللهو والعبث والمجون، أخذت فيها الأوتار تَتجاوب، والأقداح تَتناوب من أفخر أنواع الشَمبانيا الفرنسية، والخمور المُعتقة ، فكانت فرقعات أغطية زجاجات الشمبانيا هي الأخرى تضاهي أنغام المُوسيقى الإنجليزية الصاخبة، وأصبحوا بين ناي وعود، ونساء كالبدور شبه عاريات أنصاف أثدائهن تترجرج ، وهن

يَحملـن الكـؤوس يـدرن بهـا علـى اللاهثـين والجائعـين، مـع غيرهـم مـن الصبيـان الصغـار الذيـن لـم تتجـاوز أعمارهـم العاشـرة وهـم يرتـدون عباءات فضفاضـة إلـى الركبـة بينمـا الصـدور مكشـوفة، قـد اختيـروا بعنايـة ، فكانـوا في غايـة الجمـال ، غلمـان تشـتفهم العيـون وتَقبلهـم القلـوب ، وترتـاح لهـم النفـوس، غمـزات أطرافهـم تخبـر عـن مكنـون ظرفهـم ورقتهـم وعذوبتهـم، تخـال الشـمس برقعـت غراتهـم، قـد أعجمـت نـون أصـداغ بعضهـم بخـال، لهـم عيـون حشـو أجفانهـا السـحر، وكأن الظبـي أعارهـم جيـده ، والغصـن قـده، والـراح ريحـه، والـورد خـده، تـكاد الألحـاظ تسـفك عـن خدودهـم دمـاء الخجـل ، قـد توشـحوا بمطـارف الحسـن ، فتبعتهـم عيـون اللوطـين والشـاذين أينمـا راحـوا أو جـاءوا وهـم يتمايلـون أمامهـم تَضطـرب أردافهـم اللينـة بالكـؤوس المتأقـة بالخمـور .

كان هـذا الأمـر غريبًـا وعجيبًـا ممـا أثـار حفيظـة بعـض الصحفيـين وفضولهـم فتبـاروا لتصويرهـم في حـركات وأوضـاع مُختلفـة، ولكـن رجـال عـزام الشـماس أمسـكوا بهـم، وأنهكوهـم ضربًـا خـارج السـرايا، وأخـذوا منهـم كاميراتهـم، ورموهـم علـى أطـراف العزبـة ، وهـم في حالـة مـن الإعيـاء الشـديد مـن آثـار الضـرب المبـرح قـد علتهـم الكدمـات، والسـجحات في أماكـن متفرقـة مـن وجوههـم ، أسـفل العيـون وفي الجبـاه والخـدود.

وعندما حاول أحد الصحفيين أن يَتبع مصادر الصراخ والآهات والأنات التي تنسدر من بعض الأركان والجَنبات في الطابق الثاني من السرايا فوجئ بعدد كبير من رجال الشماس الغلاظ ، أمام كل غرفة رجلان مفتولو العَضلات بارزو العروق كاشفو ومضات الغضب ، فأمسكوا به، وعرضوه على الشماس الجالس في مَكتبه في الطابق الثاني مع أربعة أشخاص : اثنان منهم إنجلييز ، والثالث يهودي ، والرابع مصري.

شفنه في غضب وظل يحدج فيه ثم أصدر أوامره في صمت أن يحجز في بدروم السرايا .

●●●

(٣)

ما سمعه باسل من ربيع، وما لمحه في إشارت الباشا من كلامه جعله لم يقوَ على النوم، فبات بليلة نابغية ، قد اكتحل السهاد ، كأنما خلقت عيناه للسهر، سامرته الهموم، واحتضنه الفكر في جنينة الموالح، وهو مستلق على ظَهره تحت شجرة ليمون، يتأمل السماء فيرى القمر كالمخنوق، يصرخ يولول ، ولا أحد يَسمع له صوتًا ولا نشيجًا، ولكن باسل اجتذبه في محاورته لعله يسمع صوته، فيخفف عنه ما هو فيه، أو يخففان عن كليهما تلك الغموم والهموم :

ـ ترى ما وراء عزام الشماس ؟ وماذا يحدث في هذه السرايا المتألقة بالأنوار والمَصابيح ؟ وماذا فعل مع سيف باشا جعله لا تلتقي شفتاه حتى بذكره أو بنطق اسمه ؟ هناك أسرار خَطيرة في أمر هذا الرجل .

لم يسمع صوتًا للقمر النائم في رقدته، فتململ باسل على فراش الفكر وانقلب على جنبه الأيمن ينكت بعود الأرض ، يفكر في شكل العلاقة بينه وبين الباشا في ظل ما حدث ؟ هل ستبقى على حالها أم أن الباشا سيتغير من نَاحيته وسيلوث تلك العلاقة بعض المعكرات التي تكدر صفوها ؟

في هذا الوقت الذي كان باسل فيه سائحًا في سهر يفتق الجفن، ويقذي العين كان الباشا هو الآخر يتقلب على مراقد

القلق والخوف، قد جفا أجفانه الكرى يَترقب في خوف، وارتياب مع أن الخوف لم يسلك له طريقًا قبل ذلك، قبل أن تتحدر وتخرب علاقته بالشماس، فهذا الرجل شأنه مع أعدائه أبواب من الخوف، وجدران من الذل ، فكل من يَعرفه يتشح بالخوف، ويتسربل بالترقب طِيلة وقته إلا «باسل» فرغم ما سمعه من ربيع وما عرفه من الباشا لم يشعر بأدنى خوف أو قلق من هذا الرجل رغم تحذيرات ربيع المُتتابعة والمتتالية له ، بل كان كأن جمرًا يتقد بين جوانحه تجاهه، فأنشأ يفكر في أمره دون خوف أو ترقب أو حذر، ظل يقلب بصره في السماء حتى شعر بالبرد القارص يدعدع أعضاءه ، ويفت في عضده، ويقضقض عظامه ، ويهضهض شفتيه، ويرعش أنامله ، فهب منتفضًا يعدل في ملابسه ويهيئ من نفسه للاستتار منه في بيته، وقبل أن يعود أدراجه إلى بيته المتواضع في وسط المزرعة كان يذهب يطمئن على المزرعة يَتحسسها ويتصفحها بنظراته قبل أن يعود إلى بيته ، وترتخي مفاصله ، ويغط في نومه

فامتطى جواده وفي يده سراجه «الفنار» مصباح الكيروسين ، وكان عبارة عن قاعدة دائرية تستخدم لتخزين الكاز بداخلها ، وفي أعلاها تاج مصنوع من المَعدن يحتوي على مساحة لوضع زجاجة رقيقة قابلة للفك تساعد على منع انطفاء الشعلة ، وتَتوسّطها فتيلة ينغمس طرفها في الكاز

انطلق الفرس به في هذا الطريق المدلهم ، بخطوات سريعة حتى وصل إليها فترجل وربط لجامه في جذع شجرة، وأنار الطريق أمامه بمصباحه العتيق يتفقد حال المزرعة في ذلك البرد المزوي للوجوه، والمعمش للعيون، والمسيل للأنوف، والمقشف للأبدان في هذا الصمت، والسكون الرهيب، فلا يَكاد يسمع أي صوت حوله إلا أنات، وخنات بكاء خافتة وأنين مكتوم كطنين الذباب يَنسل من خلف شجرة ضخمة قد تدلت أغصانها لتلامس وتداعب ماء الترعة الصغيرة المارة من خلال أشجار المزرعة .

فاتجه نَحو الصوت المتدرج في الارتفاع كلما اقترب منه ، وهو حذر مُترقب أخرج مُسدسه ، وسار على أطراف أصابعه في بُطئ إلى أن وصل لمصدر ذلك الصوت خلف تلك الشجرة ، فوجد فتاة في مُقتبل عمرها، وعنفوان شبابها تذرف من الدموع سيولاً ، وتمد منها حبالاً، وتسكب من الأنين بُحورًا، قد أنهكها التعب والإعياء، كانت شابة في غاية الجمال والإبهار وجهها صباح شامس، يُنير ظلام الليل كهالة القمر أو دارة الشمس، وشعرها ليل دامس، خداها أحمران كالتفاح رغم الخُدوش والنُدوب التي تنضح بالدم في وجهها، والخوف الذي يملأ جَوفها ، قد ملكها ذعر لا يريم ، طاح روعها فرقًا ، وطار قلبها فرقا، وكادت نفسها تنسحب من بين ضلوعها، لما رأتني زاد ذعرها، ورعبها ، وبدا ذلك من قسمات وجهها وتَعبِيراته

فانكمشت للخلف كما انكمش ظَهرها تتراجع به، وهي تشيح بيديها أمام وجهها يمينًا ويسارًا كأنها تمجه وتلفظه ، لا تريد أن يَقترب منها، فأشفق عليها، وتهيأ ليهدئ من روعها، ويَزيل خوفها فأغمد مسدسه في جيبه واقترب منها، ومع تلامس أصابعه بالأرض واقترابه مِنها يطمو غَضبها، ويشتد خوفها، فآبت للصراخ وصاحت ولكن الإعياء والتعب كانا قد أنهكا أحبالها الصوتية فلا يَكاد يسمع إلا بحات وحشرجات، فتفهق إشفاقه عليها ونما حتى بدا جَليا على وجهه الأسمر ، فكلما يقترب خطوة تتراجع بظهرها للخلف زاحفة به نحو الترعة، كأنها لا تدري بوجودها، وعندما رأى موقفها ذلك زاد خَوفه، وقلقه عليها فثبت في مكانه، وقال بصوت رقيق رحيم :

ـ لا تَخافي ، لن أؤذيك، أنا لست منهم .

فطفا ذعرها مغطيًا وجهها، وخالت أنه يعرف من أمرها شيئًا، فغطت وجهها بيديها، وتحلبت سحائب دموعها الغزار ، ورفت في النشيج والعويل فقال في حدب وإشفاق :

ـ لا تبكي، فأنا لن أؤذيك، والله العظيم لن أضرك، أنا باسل عبد الرحمن، وهذه عزبة سيف باشا، وأنا المسئول عن إدارتها وتَيسير أمورها، فلا تخافي من أي شيء، أنت في مأمن الآن، لن يَستطيع أحد أن يصل إليك هنا ولن يجرؤ أحد على الاقتراب من هذه العزبة، فإذا كنت هَاربة من أحد فلا تخافي، أنت هنا

في حمى الباشا، وهو رجل طيب القلب جدًا، ولا يعرف الشر، ولا يسلك طريقه، فلا تخافي، أنت الآن في حمى الباشا، وفي حماي أيضا ولا تَستهيني بي .

بدأت يداها ترتفع رويدا رويدا عن وجهها الذي يبدو مثل فلقة القمر ونور الزهور، وحدجت البصر إليه ، وقد تلاشى نذر يسير من خوفها، فاستأنف قائلاً :

ـ لا تخافي من أي شيء مَادمت في هذه العزبة، ولن يستطيع بشر مهما كان أن يأخذك ما دمت رافضة لذلك، ولن أسألك عن شأنك أبدًا حتى تبوحي بذلك من نَفسك .

وقع كلامه مَوقعه من قلبها، فكان كالبلسم والدواء لخوفها المريع، وقد انخفضت درجته لما رأت في وجهه من علامات الطُهر والنَقاء، وأحست من كلامه الصدق والإخلاص، ومع هذا الإحساس، وهذه الرؤية العَميقة منها لم تنبس شفتاها بكلمة، ولم تَلتقيا بذكر أي حرف، وكان نُطقها له هو تلك الابتسامة التي تفهقت وجهها، وتسنمت شفتيها، فغص قلبه بالشجاعة ، وزخر بالفرحة فبادرها بوجه طلق بشوش :

ـ والآن تَستطيعين أن تنامي في بيتي المتواضع، وأنا سأنام هنا، أو أذهب أتفقد العزبة حتى الصباح .

انزوى وَجهها قلقا ، وزايل أساريرها رِيبة منه ، لاحظ ذلك من تَعبيرات وجهها وصمتها فقال :

ـ ثِقي بي ، سأوصلك إلى داري، أما أنا فَلا تشغلي بالك بي سأنام في أي مكان، الأماكن هُنا كثيرة، ولا ترتابي في ، ولا تخافي مني أو من أي أحد فداري آمنة، المُهم ألا تخرجي منها، ولا تري نفسك أحدًا .

ومد يده لها ليرفعها عن الأرض، وينتشلها من الوحل والطين، فنظرت ليده في ارتياب وخوف يتراءى لها من بعيد ، فابتسم لها فبدا بياض أسنانه الناصع ، وقال :

ـ هيا ، قومي معي، وثقي في ، أما إذا كان الخوف يسحفك، والشك يسربلك من ناحيتي فتستطيعين أن تبقي هُنا، ولكني أخاف عليك أن يراك أحد ممن تخافين منهم .

ابتلعت ريقها، وقد دبت الطمأنينة في قلبها شيئًا ما، فلم يكن أمامها بد من أن تستجيب له، فمدت يدها لتعتدل واقفة، نظر إليها فوجد قدا كالغصن ميال، وعودًا بماء الورد مسقى، شفتان غَليظتان، وجيد طويل كجيد المها، وخدان مُتوردان، يتشحان بالاحمرار المَمزوج بالخدوش، افترت شفتاه عن ابتسامة إعجاب، لكن سُرعان ما تبدت وتلاشت لما رأى فُستانها الممزق الملطخ بالإسوداد والإحمرار فلا يعرف لونه، وآثار خَربشات على ذِراعيها، فتبدلت ابتسامته قلقا، وارتيابًا في شأنها، ولكنه لم يسألها عن شيء، بل سار أمامها يوصلها لداره .

دخلتها ثم التفتت له تَرمقه بنظرات إعجاب من رجولته وشهامته، وأشارت إليه بيدها، ثم أغلقت الباب، ولما اطمأن من دخولها الدار دار ببصره هنا وهناك يراقب الطريق، ويُتابع هل رآهما أحد أم لا ثم أرقل في سيره، يتمشى بين أشجار الجنينة، وهو شَارد الفكر سرحان يفكر في أمر هذه الفتاة ومَظهرها، وقد سايره وداخله شعور بأن هناك من حاول الاعتداء عليها، لما رأى من مَلابسها الممزقة، وآثار الخدوش والخربشات والندوب والسجحات والكدمات التي كانت ترتع بالدم على ذراعيها، وفي وجهها.

اكتحل بالأرق وتململ على أشواك الفكر، طارقا دروب الهواجس والوساوس التي قَذفته بعيدًا حيث طرأ على باله أن هذه الفتاة قد تكون قد ارتكبت جريمة أو شيئًا من هذا القبيل، أو أنها فارة من شيء خطير يُطاردها، ولكنه أبى تلك الوساوس، وعنف تلك الهواجس بأن لفظها من فكره، ومجها من عقله في محاولة منه من داخله لتبرئة هذه الفتاة لما يبدو على وجهها من أمارات الصدق، وعلامات الطهر المتوارية خلف أشباح الخوف التي غشيتها وسكنت فيها .

●●●

(٤)

لـم يهـدأ الليـل ، ولـم يسـكن صمتـه في عزبـة الشـماس عامـة، وفي قصـره خاصـة قـد كشـر عـن نـاب الزمهريـر، وحـف بشـعار الغمـوم، وطـرف بمـراود الغضـب والضَجيـج والصخـب ليـس بسـبب حفلـة الشـيطان في سـرايا الشـماس المشـبوهة، وإنمـا بسـبب مـا حـدث في الجنـاح رقـم «٧» مـن السـرايا، فقـد هبـت العزبـة بأجمعهـا مِـن غطيطهـا العميـق علـى أصـوات عربـات الإسـعاف والبوليـس ، ودوي الطلقـات النَاريـة، وكأنهـا الصواعـق تُضـيء وتفتـق ذلـك الليـل الفاحـم .

انتفضـوا جميعًـا مـن أسـرتهم ليـروا مـاذا حـدث في قصـر الشـماس ، قامـوا رجـالاً ونسـاء وصبيانًـا وصبايـا تتـراءى لعيونهـم مـن بعـد أمتـار قـوات الأمـن، وهـي تَطـوق قصـر الشـماس وتَنتشـر في كل مـكان، وقـد منعـوا النـاس مـن الاقتـراب مَصدريـن بنادقهـم في صدورهـم بانـين سـياج مـن أفرادهـم الكثيريـن كسـور آخـر للقصـر .

فوقفـوا يُتابعـون في صمـت ولا يَكاد يسـمع إلا هَمـس مـن بعضهـم يَتمايلـون علـى آذان بعـض، والترقـب والخَشـية علـى رؤوس الجَميـع، لا يَـدرون مـا الأمـر ؟ حتـى خـرج رِجـال الإسـعاف يَحيـط بهـم رجـال مـن الشـرطة ، وهـم يَحملـون علـى نقالتهـم جثـة مُغطـاة بمـلاءة حمـراء قـد خَضبـت بدمـاء تلـك الجثـة المجهولـة لأهـل العزبـة حتـى الآن .

حدجوا بأبصارهم، وأسفوا النظر إلى هذا المشهد الجَنائزي في صمت عميق لا يَتحركون، ولا يهتزون كأن على رؤوسهم الطير، قد اكتسوا بِالخوف ومجلوا بالذعر الذي زاد طنينه عِندما خرج عزام الشماس المرعب خلف الجثة قد اغرورقت عيناه بالغضب، وصهره السخط، وفارت دماؤه وثارت كوامن الشر مِن داخله، وهتك حجاب الصمت لما انصرفت سيارة الإسعاف وهي تحمل الجثة يتبعها أربع سيارات من سيارت الشرطة ، خلع عنه صَمته وسكوته وصلق في رجاله ورجال الشرطة الذين بقوا، صَائحًا :

- اذهبوا جميعًا لتمشطوا هذه المنطقة كلها، ولا تأتوا إلى هنا إلا والقاتلة معكم، لا أريد أن ينبلج الصباح إلا وهي معكم ، سأعطيكم أوصافها لمن لا يعرف شكلها وملامحها، هي مازالت في هذه المنطقة لم تبتعد عنها كثيرًا

ثم يشير لهم بِيده نحو أهل العزبة ويقول لرجاله ولرجال الشرطة :

- أما بالنسبة لهؤلاء الرعاع خدام هذه القرية وعبيدها فلا أريد أن أراهم يَسيرون في العزبة نِهائيًا، أريد حظر تجوال، ومن تَرونه منهم يقتل في الحال، ولا تترددوا في قتله، وسفك دمه، ومن الليلة سيسامون سوء العذاب ، وستسكب عليهم أسواطه حتى تظهر القاتلة.

عِندما سمع أهل العزبة هذا الكلام بلغت قُلوبهم حناجرهم من الفزع، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وحرجت صدورهم، وضنكت نفوسهم، فهلعوا وماجوا وهرولوا مسرعين من أمامه يفرون بأنفسهم من يده الغاشمة .

من هَؤلاء الفارين «حسن متولي» الذي لم يَتمالك نفسه صمتًا، ولم يرض أن يَحجم لسانه ويصربه داخل فمه بَعدما سمع هذا الكلام، ولا ينذر الباقين ولا يُخبرهم بما حدث وما سمع من أمر العذاب الذي سينزله الشماس عليهم فهرع مسرعًا يخبر وينذر من يعرف، وقد كان من يعرفه كثيرًا في المنطقة كلها ، فهو تاجر في مُقتبل شبابه ، له أموال في صورة بهائم وأغنام يخرجها في بعض العزب والقرى المُجاورة، وله قطعة أرض يستأجرها لحسابه في أرض سيف باشا، بعدما عجز أن يستأجر في أرضه لأن الشماس صرب الجميع ومَنعهم من أن يمتلك شخص واحد ولو قيراطًا واحدًا.

هرع حسن يحث الخطى يقطع الطريق قطعًا نحو عزبة سيف باشا، حتى سقط في إحدى الترع، وهو يقفز ، لم يرى ما أمامه لشدة الظلام، ولانشغاله بما سمع، لا ينظر حوله، بَصره أمامه مُحاولاً الوصول لعزبة سيف باشا ليخبر باسلاً صديقه بالأمر .

وكان باسل جاثما تحت شجرة توت في مُقدمة مزرعة المواشي، عندما سمع خرفشات مُنبعثة من وراء أشجار الصفصاف الملامسة بأوراقها وأغصانها الماء، أخرج مُسدسه وهب منتفضًا، وخطر على أنامله متجها ناحية الصوت، فيجد كالخيال جالسًا تحت الشجرة ، فَيصوب مسدسه نحوه رافعا يديه لأعلى، فيدقق النظر فيرى حسنًا جالسًا ينزع شوكة من قدمه، يتعجب باسل ويخفض مسدسه ويقول :

- حسن !! ماذا حدث لك ؟

- باسل ، جميل أني وجدتك، اجلس أولاً وأخرج لي هذه الشوكة من قدمي يربض باسل وهو مُندهش، وينزع له الشوكة ، ثم يَسنده حتى شجرة التوت الضخمة، ويرقدان تَحتها، يجلس حسن بتأنٍ يَطلق زفرة الأنين المصوحة بالراحة، ويقول رادًا على سؤال باسل له وهو يُجلسه :

- ماذا حدث يا حسن ؟ هل هناك شيء خطير ؟

- كنت أريد مُقابلة الباشا لأمر خطير .

- أمر خطير !! أعلمني ما هو هذا الشيء الخطير ؟ وسأخبر به الباشا في الصباح إن شاء الله ، فمن الصعب الآن أن تقابله

- أنا أثق فيك يا باسل، ولأنك صديقي سأقص عليك ما حدث ، لتتصرف بِسرعة ، وتحموا أهل هذه العزبة الغلابة .

كان باسل يَرتاب في أمر هذه الفتاة، فَعندما أنهى حسن حديثه، وأوصله باسل لأول الطريق، وتَركه، التفت يحجل نحو بيته، وهو مُتغير الوجه قد بدا عليه الوجوم يُحدث نفسه :

ـ كنت أشك في أمر هذه الفتاة مُنذ أن رأيتها، كنت أعلم أن وَراءها شيئًا خطيرًا، ولكنها حقا فتاة شُجاعة، وتستحق التقدير إن كانت هي حقا من يبحث عنها البوليس ، البوليس !!

انتبه للاسم فقال:

ـ يجب أن أنقذها مِنه قبل أن يَصلوا إليها.

فيسرع في خطاه ويهوزل في سيره يطفر في مَشيته حتى وقف على رأس ليلى .

تراه واقفًا ثابت الجأش، رابط العزيمة، فَتهب مَفزوعة من هيئتها التي كانت عليها، حيث كانت مُستندة بظهرها إلى وسادة أنيقة من الوسادات الموجودة في سرايا الباشا، شَاردة بفكرها، غائبة بعقلها تفكر، قد مهشها الخوف الذي طما، وغص بِصدرها لما رأت باسلا يحدق النظر إليها، فانفطر وجهها عن دهشة ، تنكدر من عيونها البرئية حبات الدمع التي كانت تتهدهد فيهما قبل أن يصل باسل ليرمقها بتلك النظرات، وكأنه يسألها عن أمرها وتسأله بعينيها عن سبب حضوره بهذه الصورة المرهبة، فأجابها بلسانه قائلا :

ـ لا تندهشي، هناك شيء خطير حدث، وجئت أخبرك به.

فقالت بصوت يهزه الخوف :

ـ ما هذا الشيء ؟

ـ عزبة الشماس

انتابتها قشعريرة لما سمعت بالاسم، فانتفضت كالعصفور المذبوح واعتدلت قائمة تَتراجع بظهرها للخلف تبتعد عنه، فقال مطمئنًا لها :

ـ لا تخافي ، قلت لك لا تخافي ما دمت هنا، ولكني كي أحميك وكي يحميك الباشا، وحتى أساعدك بما أستطيع يجب أن أعرف الحقيقة، كي أفكر في طريقة لإبعادك عن عيون الشماس ويديه حتى لا تقعين فيها .

طمّ قلبها بالرعب، وزخر صدرها بالهلع، وغص جسدها بالرعشات المتتالية فقالت والخوف يطمو ، ويطفر منها مع كل نفس يخرج من أنفاسها :

ـ ولماذا يعثر علي هذا الرجل ؟

ـ لأن هناك جريمة قتل حدثت في قصر الشماس، وأنت المتهمة في ذلك، فما رأيك في هذا الكلام ؟

لم تَرد بحرف واحد، وصعقت من كلامه فتخر على الأرض جاثية على ركبتيها كأنها تنتظر العفو، ترفع عينيها تَدريجيا تتآكل قسمات وجهها وإشاراته، ولا تتفوه بحرف، وكأن لسانها قرضب من هول الصاعقة

فيجلس قصادها ويقول لها مزيداً لاطمئنانها وأمنها :

ـ يَجب أن تحكي لي ماذا حدث، وثقي بي جداً، اعتبريني أخا لك ، فلن أسلمك لهذا الكلب مهما حدث حتى لو خرجت روحي من أجل ذلك ، ولكن يجب أن تقولي الصدق ، وتقصي علي كل شيء حدث بالتفصيل .

نظرت إليه ليلى في حزن وحسرة لا تدري من أين تبدأ حكايتها، هل تبدأ من تلك الليلة الكئيبة التي جَعلتها هاربة وفارة، أم من بداية أزمتها ومدخل قصتها البائسة .

●●●

(٥)

كانت ليلى فَتاة فقيرة معدمة ، مات أبوها ، وهي بنت سبع عشرة سنة أثناء عمله في أرض العمدة بِقروش معدودة «سبعة قروش» منذ الصباح حتى المساء كغيره من الفقراء المَعدمين الذين لا يمتلكون شيئًا من الدنيا إلا الثياب الخلقة التي تواري عوراتهم، وقد لعبت بها أيدي البلا ، إذا هب النسيم عليها امتزجت بالهواء، وديار هشة بلقع بعضها مبني من الطين والجص، وبعضها بالطوب اللبن وأغصان الأشجار والقش ، وبَعضها من الصفيح أو الغاب .

أيديهم صفر، ومَنازلهم قفر، وغداؤهم الخوى، وعشاؤهم الطوى ، ووطاؤهم الغبراء، وغطاؤهم الخضراء، وإدامهم التشهي، وطعامهم التمني وفراشهم المدر، ووسادهم الحجر، أثوابهم جلودهم، ومركوبهم أرجلهم خصب العيون، جدب البطون .

نجومهم مُنكدرة، وعيشهم كدر، ولباسهم خشن، وطعامهم خشب، عيشهم نكد، إذا أصبحوا ركبوا ظهر الشيهم، وإذا أمسوا توسدوا أذرع الهم، يكابدون من مرارة عيشهم ناب الأرقم، ويتجرعون كؤوس العقم، طرحى كرب لا يعرفون مَداها، وجرحى غمم لا تكل مداه، ما يأكلون إلا على نغص، ولا يشربون إلا على غصص .

يجيئون ويروحون بوجوه قد غبَّر فيها الفقر، وانتزف ماءها العوز، وأمال قناتهم السقم، وقلم أظفارهم العدم، وجوه أكسف من بالهم، وثيابهم أوحش من حالهم، يروحون ويغدون بأبدان ناحلة ، ووجوه حائلة، وأرجل وحلة، وأيد قحلة ، وأنياب قد افتر عنها الضر، والعيش المر، طرحى ضعف ومتربة ، وطلحى ذل ومسكنة، فمع فَقرهم المفقع المدقع هذا كانوا يعيشون في مذلة ومسكنة قد ورثوها عن أكابرهم وأسلافهم، الفقير المعدوم ورث فقر وذل أبيه عن جده إلى أجداد تَضرب بأذنابها في عمق السنين، يهانون يذلون يضربون بأذناب البقر وجلودها وذيول الغنم والماعز، مازالوا عبيدًا رغم التحرر الذي يزعم بوجوده، فمن للأسياد إلا العبيد يخدمهم ويقوم على شئونهم في الحقول والغيطان والبيوت والسرايات والقصور ؟!

لم يكن في القرى والعزب سوى طبقتين، لم تكن هناك الطبقة الثالثة الرابضة في المدن طبقة الموظفين والعاملين في المملكة المصرية بأجور ثابتة .

أما القرى والكفور والنجوع والعزب فلم يكن هناك سوى طبقتين طبقة البشوات أصحاب الأطيان والأراضي العديدة التي تمتد شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا، أصحاب القصور والفلل والسرايات، وتوابعهم من ذيولهم ومنفذي أوامرهم من العمد

ومأموري المراكز والأقسام، وطبقة العمال والفلاحين (الأجرية) الذين لا يملكون إلا ملابسهم الممزقة، وبيوتهم الهرمة الذين يهانون بالعمل في حقول وأراضي هؤلاء البشوات مقابل بضعة ملاليم لا تسد جوعتهم وجوعة أطفالهم، ولا تُطفئ ظمأهم أو تروي عطشهم، ومع ما يعانونه ويقاسونه من ظلم هؤلاء العتاة الطغاة سقوا الذل والعار بضربهم وشتمهم بأقذع الألفاظ وفوق ذلك بأخذ بناتهم عنوة للخدمة في القصور والسرايات خاصة الأبكار منهن ، وفي كثير من الأحيان كانت تُنتهك أعراضهن، وكما فعل بالبنات فعل أيضا بالصبيان في حالات قليلة كما كان يفعل عزام الشماس ، كان يأخذ الصبيان الصغار الولدان فائقي الجمال بإيهام أهلهم أنه سَيربيهم ويعلمهم ويعتني بهم، وهو في الحقيقة يعدهم ويهيئهم وينظفهم ويعتني بهم من أجل إشباع شهوات مريديهم، وراغبي الصبيان الصغار من الشواذ واللوطيين من أصحاب النفوذ والمال والجاه من المصريين ومن الأجانب إنجليز وفرنسيين، وأيضا من الأمريكين وأكثرهم يهود وغيرهم كثير حتى فَاحت رائحة هذا القذر النتنة العفنة التي تموج بالقذارة والوساخة حتى أصبح أشهر قواد في مصر كلها، وكان يمتاز عن القوادين الآخرين بانتقائه لأجمل وأوسم الصبيان وتقديمهم ولائم شهية لمريدهم .

ولم يكن يَقدر أحد من الفقراء على المُعارضة أو الشجب أو الرفض، ما كان أمامهم سوى القبول والرضا بالذل والهوان، ومن يرفض كان مصيره إما القتل على مرأى ومسمع من الجميع ، وإما السجن لأجل غير معلوم في مكان مجهول .

من هؤلاء الفقراء المذعنين «نبيل» والد ليلى الذي أخذ منه ابنه الصغير ذي السبع سنوات، ولم يعلم عنه شيئًا ، لا يعلم مكانه ولا من أخذه سوى رجال مسلحين هجموا على القرية يَقودهم العمدة ليأخذوا بعض الأطفال من بينهم فهمي بن نبيل إلى حيث لا يعلمون ، وكان نبيل متعلقًا بابنه هذا لدرجة الجنون، فلم يكن عنده سواه وسوى ابنته ليلى، فكان روحه وحياته كلها .

قد أثر خطفه على مرأى ومسمع منه على حالته الصحية فقد غص صدره بالحزن والشُجون الطواحة حتى وقع صريعًا إثر أزمة قلبية أثناء عمله في أرض العمدة، خر صريعًا والفأس في يده عندما كان يهم برفعه لعزق الأرض، نام وكانت نومته الأخيرة في هذه الدنيا

مات تاركًا خلفه ابنا لا يعرف مكانه، ولا يعلم أحد أين هو، وابنة في مقتبل عمرها ، وعثنون حياتها قد انخرط جسمها، وبدا جمالها صارخًا حتى أصبحت مطمعًا للجميع ، وزوجة صارت أرملة تحوم حولها الذئاب الجائعة، كانت أنثى جميلة بردفين

ممتلئين تفور عليهما شهوة الرجال ، وشفاه غليظة حمراء، فكانت تتابعها أبصار الرجال أينما ذهبت أو جاءت أو ارتحلت، فلم تتحمل الأم قسوة المعيشة، والنظرات الجائعة التي تتابعها، وقلة حيلتها، وعملها خادمة في البيوت بعدما طاردتها عيون الذئاب وفروج ملتهمي لحوم البشر في الحرام ، لم يتقدم أحد لها للزواج ، كل يريدها خليلة وعشقية في الحرام ، ولكنها أبت كل تلك المُحاولات والإغراءات، التي تنهشها ليل نهار حتى لم تعد قادرة على التَحمل والاصطبار فتخلصت من حياتها بتجرع كمية كبيرة من سم فئران، أودت بحياتها، وماتت قبل أن يقدم لها أي إسعافات وتركت خلفها بنتا صبية بلغت مبلغ النساء، وأصبحت من ذوات الحيض العشر، قد انخرط لها حقان في صدرها يهتزان، ويرتجان أينما ذهبت فصارت هي الأخرى كما صارت أمها من قبل مطمع الرجال والشباب، وقد أصبحت أضعف بموت أمها فلم يعد لها هناك من يحميها أو يدافع وينافح عنها حتى أخذها العمدة عنده تعمل خادمة في داره، فسكتت الألسن والعيون عن متابعتها .

ظنت أن العمدة أخذها شفقة بها ورحمة لها، وحدبا عليها، إنما أخذها إطفاء لشهوته، وإرضاء شبقه، فأتأرها بصره في كل مكان تحل به من الدار ورفض خروجها نهائيًا خارج داره الفسيحة، شعرت بنظراته الفاجرة نحوها وبلهثه المتتابع خلفها، فلم تشأ أن تصده أو تردعه إلا حينما هجم عليها يراودها عن

نفسها محاولاً هتك عرضها وفض بكارتها وهي نائمة فدافعته وعضته في يده، وكادت أن تصرخ لولا أنه كتم فمها بيده، وقال لها وهو يكمكم فمها:

ـ اسكتي، لا تصرخي، سأقوم عنك، ولكن لا تصرخي ، لو صرختِ وفضحتني سأقتلك .

ابتلعت ريقها، ونفسها تحت يده، ونظرت بعينيها مشيرة بموافقة كلامه فسحب يده رويدًا رويدًا، فلم تصرخ ، ثم اعتدل قائما وقال :

ـ من الغد لن تظلي هنا، سيكون لك مقام ومكان آخر، قد اخترته لك بنفسي يصلح لأمثالك يا عاهرة .

وتركها، وخرج من غرفتها، انبجست عيناها عن نظرات قلق وارتياب، توسدت الفكر ودارت بعينيها في جَنبات الحُجرة، فقامت من فورها ولم تنتظر للصباح، ولمت ملابسها، وجمعت كل ما يخصها في بؤجة من الدبلان وفتحت نافذة الحجرة في هدوء ، ودارت بعينيها هنا وهناك فلم تر أحدًا .

نظرت إلى السماء فوجدت الجو قد كشر عن أنيابه، وكلح الفضاء بوجهه وصار البرد حجابًا يقشعر له الوجه الطلق، ويضمر الوجوه، ويغبش العيون ، ويقضقض الأعضاء، وينفض الأحشاء، قد أجمد الريق في الأشداق، رمت بؤجتها، وألقت بنفسها خلفها

في هدوء على الأرض أسفل شجرة تفاح ملاصقة لغرفتها، كانت المسافة بين أسفل النافذة وبين الأرض مترين، فلم تجد صعوبة في القفز دون أن يَشعر بها أحد في هذا الجو الخاوي على عُروشه من البشر .

فقد ركضت خيول الرياح الزمهرير في حوش الدار الرغبيب، زأرت أسد الرعد، وبرقت سُيوف البرق، وانحلت عزالي السماء فطبقت، وأرخت عزاليها، وأغرقت الأرض وسحت نواحيها، لم تبال بهذا المطر الغزير، وهطعت في سيرها في ترقب تنظر خلفها تارة، وأمامها تارة ، وعن يمينها ثالثة، وعن يسارها رابعة حيث غُرفة الخفير بسيوني التي يبنعث منها دخان كثيف من منقد النار الذي زخره بالخشب لهذه الليلة العصيبة من ليالي الشتاء فأرقلت في سيرها تحث الخطى حتى اجتازت باب الحوش الواسع دون أدنى عناء أو تعب، فلم يكن هناك أحد من الخفر أمام دوار العمدة بل لم يكن هناك أي أحد من البشر يسير في الطريق الواسع المفعم بالأشجار الكَثيفة على جانبيه ، والذي يمتد أمام دوار العمدة .

نظرت عن يمينها وعن يسارها ، ثم سارت أمامها تقطع الطريق حتى توارت في ظلال الأشجار، ففي ثواني احتوتها الغيطان والأشجار وهي سائرة بعزم وإصرار على الهروب من هذا المكان القذر الوسخ الذي يبعث على الكآبة والنجاسة.

سارت كيلوات كثيرة ، وهي غير آبهة بتلك المسافات الشاسعة التي قطعتها، ما كان يَسوقها ويقودها إلى حيث لا تدري هو أن تبتعد أكبر مسافة ممكنة عن هذه القَرية التعيسة التي تنشق بالفجور ، وتنفجر بالظلم ، وتعبأ بالخيانة والغدر والقهر .

لم يعد لها أحد في تلك البلدة بعد وفاة الأب، وانتحار الأم ، واختفاء الأخ ، فالفرار من هنا أسلم حل، لعلها تجد من يُؤويها دون أن يأخذ منها شيئًا أو تجد ابن الحلال الذي تسمع عنه كثيرًا ينتشلها من التشرد والفقر ويصب عليها من حنانه وعطفه وشَفقته ما يحميها من الذئاب اللاهثة والعيون الجائعة والفُروج المُضطربة .

أنهكها السير تارة، والجري تارة أخرى، حتى كلت رجلاها، وتقرحت قدماها، وتشققت كعوب رجليها من ذلك المسير الطويل، والهروب المرير، صارت شورى بين أوجاع أربعة : صداع من الفكر لا يخف، وسعال لا يكف، وزكام يكد، وألم في البطن من شِدة الجوع لا يغب، أصبحت حليف تعب أقعدها عن الحركة، فخرت على الأرض أمام باب مسجد الشيخ الشهاوي ، بعدما فَشلت قدماها عن حملها، فهوت كأي صخرة انزلقت من علو فخرت على الأرض مُحدثة صوت خفيض لقلة حملها، ولخفة وزنها من الجوع .

مـر يـوم بليلتـه ، ولـم تـذق الـزاد حتـى تَشـققت شـفتاها مـن العطش وانفطـرت معدتهـا مـن الجـوع، فخـرت تحـت الشـجرة عندمـا جـاءت لتجلـس تحتهـا لتسـتريح مـن الهـروب المريـع، وبمجـرد أن وضعـت يدهـا علـى الشـجرة التـي تربـض أمـام بـاب الجامـع الأمامـي مـن الجهـة الشـرقية خـرت تحتهـا، وهـوت معهـا بؤجتهـا .

لـم يبـق علـى أذان الفجـر سـوى نِصـف سـاعة وهـذا هـو الوقـت الـذي يخـرج فيـه الشـيخ سـلامة بـن الشـيخ الشـهاوي بانـي الجامـع، ليفتـح المسـجد، ويشـغل إذاعـة القـرآن الكـريم حتـى أذان الفجـر ثـم يُـؤذن، ويجلـس مـع المصلـين لينتظـروا خـروج إمامهـم الشـيخ الشـهاوي ذي الثَمانـين عامًـا .

ومـع هـذه السـن المديـدة ، والعمـر الطويـل كان بصحتـه، لـم يخلـع سـنًا قـط مـن فمـه، كانـت أسـنانه كاملـة العـدد كأفتـى الشـبان ، بـل مـن يـراه يجـده أفتـى مـن ابنـه ذي الثلاثـين عامًـا، يترقـرق في وجهـه مـاء الشـباب، وبهـاء الصحـة والعافيـة، وكان كلمـا يسـأل مـن قبـل طلابـه ومحبيـه وجيرانـه وأصحابـه عـن سـر ذلـك كان يجيبهـم بجـواب شـاف يـدل علـى شـخصية تقيـة، وقلـب مؤمـن وعقـل راجـح كان يقـول :

ـ جوارحنـا وأعضاؤنـا وصحتنـا حفظناهـا في الصغـر فحفظهـا الله لنـا في الكبـر

وكان يسير بِدون قائد حتى عمر الخامسة والسبعين ، ولكن في الخمس سنوات الأخيرة بدأ يزحف نحوه تعب الشيخوخة ، فاتخذ عصا تقوده أينما سار أو حل، ولم يكن سيره أو حله أو ارتحاله يخرج عن نطاق منزله وجامعه ، فلم يكن له مكان سوى هذين المكانين الجامع وبيته العتيق الذي فيه مقرأته حيث مَدرسته الصغيرة لتعليم طلاب الحي القرآن الكريم، وإن كان نشاطه قد قل بسبب شيخوخته ، وكبر سنه، واشتغاله بتأليف كتابه الخامس «أنوار ومعالم»

وكان ابنه الشيخ سلامة يسير على درب والده ويتخذ طريقه، ويحذو حذوه حذو القذة بالقذة ، أنابه الشيخ في بعض أموره في الفترة الأخيرة منها أنه أوكل له في كثير من الأوقات أن يَحل مَحله في تحفيظ الأطفال القرآن الكريم في مقرأة الشيخ كما أنابه مَكانه في استباقه لفتح باب الجامع والأذان لصلاة الفجر ، والتي اعتاد الشيخ الشهاوي على ذلك حتى عمر الخامسة والسبعين ثم أوكل ذلك لابنه .

وصار هذا الأمر مُحببا لقلب الابن الشاب الذي يؤهل ليحل محل والده في كل شيء، فكان يتسابق لفتح باب الجامع، وإشعال المبخرة والمصابيح الزيتية والفوانيس .

فكان يحث الخُطى كل ليلة قبل الفجر بساعة أو بنصف ساعة نحو باب الجامع، وفي تلك الليلة وقد اقترب من باب الجامع ليس بينه وبينه سوى بضع خطوات رأى جسمًا نائمًا على وجهه على الأرض، وبجواره عند رأسه بؤجة من الدبلان مدورة، تغشته الدهشة، واشتفه الوجوم، وعصره الذهول ، فوقف ينظر يمينًا وشمالاً فلم يجد شيئًا، فهرول نحو هذا الجسم يقلب رأسه فإذا بفتاة في عقدها الثاني ، باهرة الجمال، قد قمر هلالها، ولبست ديباجة الحسن، قد انتقبت بالشمس، واكتحلت بالسحر في عيونها النائمة ، وكأن صفحة وجهها محلاة بالنجوم والأقمار ، وجه بماء الصفاء والبهاء مغسول وطرف بمرود السحر مكحول، وثغر حمي حماية الثغور ارتعشت يده اليمنى، وهي تزحف نحو فمها ، حتى لامست شفتيها الغليظتين وهي ترتعش فارتعش بدنه، وارتجس فؤاده ، واقعشر جلده لما لامست يده شفتيها فنزعها كأن أفعى لدغته أو نار محشته ومهشت جلده، وهز رأسه وقال بصوت مسموع :

ـ أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم

وأنشأ يُحركها يمنة ويسرة ليوقظها وهو يقول :

ـ يا شابة ، يا فتاة، يا آنسة ، يا آنسة

ثم نظر إلى أصابع يدها فلم يجد ما يشير إلى أنها مُتزوجة فاستمر على ندائها بقوله وهو يهزها ويحركها :

ـ يا آنسة ، يا آنسة .

ولكنها لم تقم ، ولم تهب من رقدتها فكانت غائصة في غياهب التعب وغطيط النوم الذي لجمها وضرب على أسماعها وعيونها ، فنظر حوله وهو يقول :

ـ ماذا أفعل الآن ؟

اقترب برأسه من صدرها، وكاد أن يملس ثدييها البارزين، وقد حدق فيهما ويداه ترتعشان، فسمع وجيبا وخفقانا لقلبها، فرفع رأسه وهو يريد ألا يرفعه ثم قال :

ـ مازالت حية ، فماذا أفعل الآن ؟

وأخذ يفكر ثم قال بدون تردد :

ـ آه ، أحملها حتى بيتنا، ولكن كيف أحمل هذا الجسد الـ.....

وحدق في وجهها وأسف النظر إلى عينيها الناعستين وقد ارتخت أهدابها الطويلة على عيونها، ثم وقف بدون تردد أو تلكؤ، ثم انثنى يرفعها من على الأرض حتى ألقاها على كتفه، ونظر حوله ثم سار بها نحو بيت الشيخ الشهاوي .

كان الشيخ الوقور مَهيب الجانب الشيخ الشهاوي ذي الوجه الأبيض الزاهر الوضاح رغم سمرة بشرته، تتقاطر بعض حبات الماء من آثار الوضوء من جبهته ولحيته والشيب المستحكم في شعر رأسه وفي لحيته ، وقد بدا في ذلك الشيب المتفشي فيهما استحكام الوقار، وميسم التجربة وشاهد الحنكة، مسربلة هذا الرجل العتيق ذي العظام القوية، والعروق البارزة من ذراعيه ومن قدميه عندما كانت تصب «سكينة» زوجة ابنه سلامة الماء عليه في صالة المنزل الواسعة، وهو جالس على حجر متوسط الحجم يغسل رجليه إلى الكعبين، وقد بدت رجليه إلى أسفل الركبة وظهرت عروقهما الشديدة محفورة كأوتاد تقويه لا تضعفه، وبينما كانت سكينة تصب عليه الماء من إبريق فِضي اللون مزخرف ببعض النقوش إذ دخل عليهما سلامة وهو يحمل فتاة فوق كتفه، وفي يده الأخرى بؤجة .

ثبت قدميه في الأرض أمامهما، ارتابت سكينة وسحفها الذهول والتعجب بينما الشيخ الشهاوي لم يصب بشيء من ذلك، بل رفع رأسه يتقاطر من وجهه الماء، ورمق ابنه في عطف ثم رجع يخلل بين أصابع قدميه ، ثم تحامل حتى وقف دون مساعدة من أحد وهو يدندن بالذكر الذي يكون بعد الوضوء بينما يُمسك بالفوطة التي مدت يدها بها سكينة له:

«أشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـدًا عبـد الله ورسـوله، اللهـم اجعلنـي مـن التوابـين واجعلنـي مـن المُتطهريـن ، سـبحانك اللهـم وبحمـدك، أشـهد أن لا إلـه إلا أنـت، أسـتغفرك وأتـوب إليـك»

ثم وَضع يده على كتف ابنه الخالي وقال :

- مَا بها ؟

- وجدتهـا غائبـة عـن الوعـي ملقـاة علـى الأرض تحـت الشـجرة أمـام الجامـع

هز رأسه وهو يَنظر إلى ظهرها وقال :

- أدخلها حجرة الضيوف

ثم التفت إلى سكينة وقال :

- وأنـت يـا سـكينة أحضـري بصلـة وشـقيها نصفـين وادخلـي خلفـه، وأنـا سـأتبعكم عندمـا ألتحـف بلباسـي وأتعمـم بعمامتـي .

استبطأ المصلـون خـروج إمامهـم وشـيخهم وابنـه مُؤذنهـم، حتـى تأخـر وقـت الأذان ربـع سـاعة عـن موعـده المُعتـاد، وبـدأت وجوههـم تتبـادل النظـرات في دهشـة وحيـرة مشـوبة بالقلـق والاضطـراب ، فقـام ثلاثـة منهـم متجهـين نحـو منـزل الشـيخ الشـهاوي القريـب مـن الجامـع، علـى بعـد عشـرين متـرًا مـن الجامـع ، قابلهـم الشـيخ وهـو يخـرج مـن

باب المنزل مُحركا عصاه لتلامس التراب في هدوء ولين وخلفه ابنه سلامة، فبادر أحد الثلاثة قائلاً، وقد بدا القلق على وجهه :

ـ قلقنا عليك يا شيخنا، فَجئنا نطمئن عليك، أول مرة تتأخر عن الصلاة

طفرت من عينيه نظرات نحوهم يَستكشفهم ويستشفهم ثم قال :

ـ خيرًا إن شاء اللّه يا فؤاد، لا تقلقوا جميعًا، هيا بنا لنلحق الصلاة قبل أن يفوت وقتها وندخل في الشروق

ثم ينادي على ابنه :

ـ سلامة، سلا..

لم يكمل الكلمة ، حتى وجد ابنه أمامه يقول :

ـ تحت أمرك يا أبي

ـ اسبقنا إلى الجامع كَي تُؤذن، وكي يطمئن المصلون

ـ حاضر يا أبي

وينطلق يرمل في سيره، وانطلق خلفه الشيخ الشهاوي، وخلفه فؤاد ومن معه، وبعد انتهاء الصلاة التفت الشيخ للمصلين، وأقبل عليهم بوجهه يلهج لسانه بذكر اللّه :

ـ أستغفر اللّه ، أستغفر اللّه ، أستغفر اللّه ، اللهم أنت السلام، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

ثم أقبل عليهم بوجهه مُتصفحا وجوه الصف الأول ، ثم قال :

ـ كلكم مندهشون وحائرون بسبب تأخرنا هذه الليلة أنا وسلامة ولدي ، هناك سبب قوي لذلك، وأرجو أن تساعدوني في بيان حقيقة هذا الأمر، وكشف غموضه، عندما جاء ابني سلامة ليفتح باب الجامع مثل كل مرة وجد فتاة شابة عمرها ممكن عشرين سنة أو أقل، وجدها مغمى عليها ملقاة تحت الشجرة التي في مقدمة الجامع، كانت فاقدة الوعي، لكن الحمد للّه منّ اللّه عليها وفاقت، ولكنها مازلت متعبة، ولا نعرف عنها شيئًا، وهي لم تتكلم حتى الآن، لو فيه أحد منكم يعلم شيئًا عنها يخبرنا، ربما يكون فيكم من يساعدنا في معرفة أهلها وأصلها، واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يرد أن يراها لعله يتعرف عليها أو يدلنا على شيء من أخبارها يأت في الضحى إن شاء اللّه، نريد أن نُسلمها إلى أهلها سليمة صحيحة دون أن تمس بسوء، فأنتم تعلمون حال الناس في زماننا هذا ، خربت الذمم ، وساءت الأخلاق، وانحرف كثير من الشباب والشبات ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

وتفرق المصلون من حول الشيخ الشهاوي بعدما أيدوا كلامه وأعلنوا موافقتهم برؤوس بعضهم، وبصوت البعض الآخر، وظل الشيخ الشهاوي جالسًا في الجامع مع ابنه وثلة من الرجال يظلون معه حتى الشروق ثم يصلون ركعتين كي يظفروا بأجر حجة وعمرة .

لم يتعرف أحد من أهل الحي الواسع على ليلى، ولم يهتدوا إلى شيء يقربهم من أهلها .

لما فاقت وعادت إليها صحتها وعافيتها أخبرتهم بحقيقة أمرها، وبأنها الآن يتيمة بعد وفاة والدها وأمها واختفاء أخيها، لم تُخف شيئًا من حقيقة أمرها عن الشيخ الشهاوي، قصت عليه كل شيء حتى ما حدث في دار العمدة وهربوها، حكت له ولابنه كل شيء حتى وصوله ليد الشيخ الشهاوي تكلؤها وترعاها وتعتني بها .

صدقها الشيخ ولمح الصدق والصراحة بفراسته وفطنته في كلامها، فسكب عليها أنهار حبه، وبحار رعايته، واتخذها ابنة له، وكفلها بعدما هلك من حولها ممن كان يرعاها ، فنشأت تحت عينيه في منزل مثل الجامع قيام وصلاة وتلاوة قرآن وذكر ليل ونهار، فتهيأت ليلى نفسيًا، وارتاحت وحل بها طمأنينة وسكنتها سكينة روحية غريبة لا تراها وإنما تحسها، خالجها شعور بالأمن، وهي بالقرب من الشيخ الشهاوي تتعلم منه كيفية الصلاة وكيفية

إقامة مشاعر دينها كما أخذت تتعلم منه القراءة والكتابة قبل أن تتعلم تلاوة القرآن .

أحبت الشيخ أكثر من نفسها فلم تبخل عليه بالقيام على شئونه ومصالحه ومعاونته في كل شيء حتى انفردت عن زوجة ابنه سلامة بأمر توضيئه وتحضير مَلابسه وغسلها وتهيئة الجو المُناسب له للعبادة في منزله ، فساد جو من الهدوء داخل منزل الشيخ عامة وخلوته ومقرأته بصفة خاصة .

ولم يعد الشيخ يأكل إلا من يدها بعدما ذاق حلاوة طَبخها ومذاقه الشهي المتباين بفوارق شاعسة عن طبخ سكينة ، فتوغر قلب سكينة عليها وصارت ترقبها في كل شيء بعدما دبت عقارب الحسد والحقد في قلبها، ولم تعد ترتاح لها مثل الأول ، رأت فِيها منافسًا لها في المنزل على حب الشيخ وقلبه الذي تعلق بها، فصار لا يرى غيرها في المنزل .

لم يكن هذا هو السبب الرئيسي والوحيد الذي جعل عقارب الحسد تدب في صدر سَكينة وأفاعيه تكمن لها كل مرصد مترقبة لها، بل هناك ما هو أعظم من ذلك فقد رأت عيني زوجها سلامة بدأت تترقب ليلى وتترصد لها وتتابعها في الذهاب والإياب، وقد لمحت ذلك أكثر من مرة رغم مُحاولته كتمان ذلك العشق الذي يزري به، ويسفل قدره ، وهو في هذه المكانة من قلب الشيخ الذي

يهيئـه ويعـده لعمـل عظيـم أن يحـل محلـه ، ويصيـر معلـم النـاس وعالمهم وإمامهـم وخطيبهـم .

فلـم يبـد مشـاعره أو يعبـر عنهـا سـوى بنظـرات خاطفـة كان يسترقها قد لاحظتها زوجته عندما تَرصدت لليلى تراقبها وتتابعها لتمسك عليها هفوات أو غلطات تفشيها للشيخ وتدسها في أذنه لعلمها أنه كان لا يَقبل بالغلط أو الخطأ ولا يرضى بالزلات حتى لو من ولده الوحيد ، فربما تُطرد أو يطرد ابنه لو ثبت عليهما شيء ، ففوجئت بنظرات زوجها المُتخطفة والمتفرقة لها في مشيها وخطرها أمامه، فترددت في أمرها ماذا تفعل هل تخبر الشيخ الشهاوي بنظرات زوجها لها أم لا ؟

لـو أخبرتـه ربمـا يُؤذى زوجهـا أو يطـرده أمـا هـي فلـن يصيبهـا شـيء فلـم تلاحـظ منهـا نَظـرات ولـو عابـرة لزوجهـا .

فرغم مُحاولاته للفت انتباهها لم تنتبه له، ولم تأبه به كأنه غير موجود أمامها كان الشيخ هو جل اهتمامها ومِحور رعايتها، ولعلمها أن سلامة مُتزوج من زوجة جَميلة مخلصة ووفية له، فلم يخطر في بالها ولو مثقال ذرة أن قلب سلامة سَيتحرك لها، ومشاعره ستلتوي حولها وتلفها، وهو التقي ابن التقي الورع ابن الورع حافظ القرآن معلم الناس الخير كوالده السائر على دربه مؤذن الجامع ومُحفظ الأطفال القرآن، ونسيت أن سلامة بشر مثل أي بشر لديه قلب رقيق

يعشق ويشتاق ، فهل على الشيخ حافظ القرآن معلم الناس الخير مثل سلامة الخجول ذي القلب اللين الطري ألا يَحب ويُحب؟ وقد تحرك قلبه نحوها، حتى سكنت سواء الصدر وحلت سواد قلبه، وقد رآها تكبر أمام عينيه وتَزداد يوما عن يوم جمالاً وحسنًا وبهاء، وصفاء نديا، فارت أنوثتها وبرزت مُنخفضات ومرتفعات في جسدها وتغيرت تضاريسه للأحسن كأجمل جسد ممشوق منخرط خلف عباءة سوداء فضفاضة زادتها حسنا إلى حسنها فزاد عِشقه لها وقد شغفته حبًا تمهد في قلبه أسه واستحكم غرسه، ودها بأجزاء قلبه، وأحبها من سواء نفسه، ود لو يضرب بحضرتها أطناب عمره وينفق على خدمتها أيام دهره، لا يزال يحن إليها ، ويحنو عليها بِعينيه اللتين كانتا ترافقانها في كل خطواتها وخطراتها، تمنى أن يتراءى قلبه لها فتقرأ فيه سطور تدلهه بها وهيامه بعيونها .

كان يتصبح باسمها ، ويتفاءل بذكرها، ويحلم بوجهها ليل نهار، ويحتلب ضرع الشعر بذكرها، كان يهوى الشعر كثير القراءة فيه ، وله مُحاولات شعرية قليلة بضع أبيات متفرقة في الزهد والتصوف معلنة للناس، وقد عرف بإحساسها العميق .

وإن لم تكن تلك الأبيات تَرقى إلى درجة الشعر الفصيح المتين المبني على وزن من بحور الشعر العربي وقافية، ولكن الجَميع من حوله فرح بتلك المحاولات الشعرية القليلة التي تعتبر خواطر ، وليست شعرًا، حتى والده أحب تلك الزهديات من الشعر الذي

قرأه ابنه على أسماعهم في الجامع ، وكان كثيرًا ما يطلب منه أن يعيد على مسامعه تلك الأبيات التي تذكر بالآخرة وتزهد في الدنيا فيترنم لها ويهتز معها فرحًا وطربًا، ولم يدلف لباله أن ابنه كتب أبياتا في العشق من أجمل ما يكون بعدما عشق ليلى وأحبها وصارت في حشاشة قلبه، ربما لو علم لطرده أو لفظه من حياته، ولهذا لم يعلنها سلامة لوالده لعلمه بحالة أبيه وموقفه من هذه الأمور المتعلقة بالعشق والهوى، فسترها في أوراقه، وكتمها بين جوانحه وظل يرددها بينه وبين نفسه في خلواته وعزلاته :

- ليلى وما أدراك ما ليلى

نبض يحتويني ويهزني ●●● ويفت أعضائي وأركاني
ويزلزل الأرض من تحتي ●●● ويفجر ينابيعي وبركاني

- ليلى وما أدراك ما ليلى

شعرها ليلي وحبها سفري ●●● وفي عينيها أمكنتي وأزماني
في وجنتيها الدر ملتقط ●●● وقدها المياس زهر بستاني

- ليلى وما أدراك ما ليلى

●●●

وظل يتغنى باسمها حتى دَمعت عيناه من فرط الشوق لاحتضانها والعيش معها كنفس واحدة لا تَتميز معها الأرواح، ولا تتباين النفوس والمهج ، بلا تجزؤ ولا انقسام ولا تميز ولا انفصام ، أحس بأنها من روحه ومن جسده وجزء منه، أهمل أشياء كثيرة بِسببها ، وبكثرة التَفكير فيها ، صارت ذراته عيناه وقلبه وعقله مُتيمة بشيء اسمه ليلى .

لم يكن وحده في ذلك، كانت هناك عيون أخرى تراقبها حيثما تخرج من منزل الشيخ لتقضي حاجات وتشتري طلبات من خضار وفواكه ومُستلزمات المنزل المعيشية، كانت عيناه لا تنحرف عنها حتى يواريها المنزل ، كان يترك ما في يده، ويتسمر في محله، ويظل يَرقبها منحسرا فاه عن ابتسامة لئيمة ماكرة، مُنكشفة عيناه عن نظرات الغدر والتشهي .

وقد كان أسوأ وقت لديها هو وقت خُروجها من المنزل لقضاء وشراء الطلبات، لأنها ستواجه أول شيء نَظرات يعقوب مدبولي تنبعث وتنساب كالحية من زجاج دكانه تتبعها، وكأنه يعرف ميعاد خروجها كل يوم ، فقد ملت من تلك النظرات ، وصارت لها نار السَموم تلفحها أو برد الزمهرير ينفحها كلما خرجت حتى تصوح وجهها وتَصهر عقلها وامتحش فكرها من نظرات ذلك الرجل الخبيث ذي العينين الغائرتين في هالتين سوداوين حول عَينيه .

لم يكن ذلك الملمح القبيح الوحيد في هيئة «يعقوب مدبولي» كان رغم بياضه تراه أصفر مُصوحا تعلوه الغبرة، وترهقه القترة، بعينين حادتين تشتملان على أكوام من النظرات الخبيثة الماكرة، وكرش بارز مع قصر قامة وشارب كث متدلي على فمه من الجانبين يعلوه أنف قصير منحني لأعلى عند فتحتيه ، يتسنم ذلك الأنف من الجانبين عينان شديدتا الجحوظ تكادان أن تطفرا من نَظارته الطبية الصغيرة الملاصقة لنتوء جحوظ عينيه مع هذا الشكل ، وهذه المَلامح الظاهرة التي خلقه الله عليها كان يحمل بين طياته قلبًا خبيثًا متأقا بالسموم، طاما بالقاذروات غاصًا بالأرجاس فاحشا بالضلال والانحرافات فطفحت تلك الخبائث على وجهه ، وإن لم يبد ذلك من الوهلة الأولى لوجاهته وأناقته وثراه الفاحش البارز على ملابسه وفيلته الفخمة ، ودكان الذهب والمُجوهرات الذي يمتلكه، الزاخر بأنواع كثيرة من الذهب والألماس ، ولم يكن هذا المحل هو المحل الوحيد الذي يمتلكه فيما يخص الذهب والألماس، بل كان لديه اثنان غير هذا المحل أحدهما محل كبير في وسط البلد يديره أخوه الأصغر «ميمون» والآخر في مصر الجديدة تحت إدارة ابن أخته «زكي» .

ولكنه آثر أن يدير هذا المحل في تلك المنطقة التي تبدو من أول وهلة أنها مَنطقة شعبية، ولكن هدف يعقوب من وجوده في هذه المنطقة ليس مجرد البيع والشراء ، وإنما من أجل اصطياد فرائسه

التي يُراقبها بتصبر وبهدوء كما تفعل الأفعى والتمساح عند اصطياد فريسته يزحف نحوها في هدوء بالغ وسكينة مُريبة حتى يقتنصها، هكذا كان عمل يعقوب الجواهرجي الأساسي في هذه المنطقة المُتلاطمة بالمارة ، الثرة بسكانها ، المقصعة بالرائحين والجائيين .

وقد بدأ يراقب فَريسته ليلى منذ فترة منذ أن رأها، وهي مارة من أمام دكانه، وفي يدها أكياس من الخضروات والفواكه ، فتطفل عليها وأزحم نفسه في محاورتها وهو جَالس على كرسيه أمام دكانه يَشرب شايا عارضا عليها المساعدة في حمل هذه الأكياس الكثيرة بأن يقدم له أحد عماله أو صبيانه يحمل عنها بعض هذه الأشياء، ولكنها رفضت مُكلحة وجهها، مقطبة جبينها عابسة في وجهه المبتسم، بعدما علمت عنه ما تتقرح له الأكباد من سيرته السيئة وأفعاله المَشينة التي لا تخفى على أحد من أهل المنطقة

لم يَجرؤ أحد على التصدي له لما يَتمتع به من نفوذ قوي، ورجال أشداء حوله يَحرسونه ليل نهار وعلاقات متشعبة مع رجال ذوي مناصب رفيعة في مصر، وبريطانيا ، وأمريكا التي أنهت الحرب العَالمية الثانية بعد هلاك سبعين مليونا من البشر، فَصارت بعد إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما ونجازاكي من أعظم الدول في العالم ، ولم يكن لها مُنافس سوى الاتحاد السوفيتي ، وقد بدأت شمس بريطانيا وفرنسا أن تأفل وتخفت .

فخشاه الجميع كما خشت الدول أمريكا، وصار يَصول ويجول في الحي دون رادع أو مانع أو دافع له من حكومة أو مواطنين، فصار وكأنه يحكم هذه المنطقة، وسارت أخباره وأفعاله مُتداولة على جميع الألسن، وفي كل مجلس .

لم يخل منزل الشيخ الهشاوي من الحديث عنه فَعرفت عنه ليلى الكثير والكثير حتى اشمأزت من سيرته ، عندما تَسمع اسمه كأنها تريد أن تتقيأ فكيف إذا رأته ؟!

فكانت كثيرًا تتحاشى المرور من أمام دكانه أو حتى تبتعد عنه من الناحية الأخرى من ناحية قهوة «أبو الريش» المواجهة لدكان يعقوب الجواهرجي ولكن لم يكن هناك بد من المرور في ذلك الشارع الرئيسي الذي يضم على جانبيه محلات ودكانين كثيرة متفرقة في كل شبر منه، ومن بينها دكان يعقوب أكبر دكان في الحي كله .

ولكن في المرة الثانية ألجأها المطر والوحل أن تَمر مُلاصقة لدكانه فتفاجأت به في وجهها معتدلاً من جلسته وهو مبتسم لها، أحست بشيطان يقابلها يريد خطفها أو إهلاكها، فانحرفت عنه تتحاشاه، ولكنه انجرف بجسده خطوات أمامها، فقالت له وقد كشرت عن غضبها:

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ أريد خِدمتك، هذه الأشياء ثقيلة عليك، أنهكت ذراعيك المثيرين هذين

ـ ماذا تقول؟

قالتها وهي مُتشحة بالغضب الثائر ، فزادت ابتسامته تملأ وجهه وقال :

- أريد مُساعدتك يا بدر المنطقة ، وشمس حينا كله ، منذ أن حللت علينا انشرحت صدورنا كلها

- أنا لا أريد مساعدة من أحد، وهذه الحاجات لا تثقل يدي

- صدقني قد أرخت يديك حتى تخدرتا ، أنا أشعر بك ، سأرسل معك واحد من عمالي أو صبياني يحملوا عنك بعض هذه الأشياء

- قلت لك لا أريد مساعدة من أحد .

وتركته وانصرفت راحلة وهي تلعنه وتذمه في بالها ، قد تحركت شفتاها بذلك .

رأى ذلك المشهد «منصور» الشاب الجاثم على قهوة «أبو الريش» مع صديقه «خميس» غضب لغضبها، وثار من داخله وتهيأ للوقوف للمنافحة عن هذه الفتاة والدفاع عنها، وإنقاذها من براثن هذا الكلب القذر ومخالبه، ولكن صديقه خميس أمسك يده وجذبه للأسفل يُجلسه قائلاً له :

ـ اهدأ يا منصور ، يعقوب ليس سهلاً، وربما تزهق روحك لو اصطدمت به نحن لسنا مثله ، ولا ذرة منه، رجاله سيلتهمونك ويلتهموني معك

ـ ولكن ، ألا ترى ماذا يفعل معها ؟

ـ هذه طبيعته وقد تعودنا عليها، ولم يجرؤ أحد ممن هو أقوى وأفحل وأعتى منك على التصدي له، فاهدأ واجلس واصبر.

جلس منصور وهو يزر على شفتيه، يراقب ذلك الموقف حتى انحرفت ليلى عن يعقوب وتجاوزته وقبل أن تميل بجسدها يسارا لتخرج من الشارع الرئيسي إلى الشارع الجانبي المتفرع منه حيث منزل الشيخ الشهاوي تلفتت وألقت نظرة حيث مَنصور وصديقه، وكان منصور مُتتبعًا لها ، لم ينزل بصره عنها فدخلت نظرتها قلبه، فابتسم لها لكنها لم تبتسم، وتلاشت من أمامه قد احتواها الشارع، ولكنها تركت في قلبه شعورًا غريبا أول مرة يشعر به منذ أول مرة رأها في المنطقة عندما كانت تسير بخفة ونشاط ـ قبل هذه الحادثة بأيام قلائل. وفي يدها «سلطان بن سلامة» طفل صغير لا يتجاوز السابعة من عمره، كان دليلها إلى السوق ومحلات الحي ودكاكينه رافقها هذه المرة ليريها معالم المنطقة وشوارعها ومَخارجها ومداخلها وأماكن شراء حاجاتهم ومستلزماتهم ، من بين هذه الأماكن دكان البقالة الصغير المنزوي في زاوية من الشارع، الذي يمتلكه «بيومي والد منصور»

وكان منصور جالسًا في مقدمة دكان والده هو وصديقه خميس ، بينما والده في داخل المحل يُلبي طلبات الزبائن، بينما ابنه جالس مع صديقه يدخنا سيجارتي حشيش في وضح النهار حتى هلّ عليهما ضوء أقوى من ضوء النهار، تخال الشمس برقعت غرته، أو أنها الشمس تدخل عليهم بنورها تاركة لهيبها ، انتبه لها منصور وهي واقفة مع سلطان ، وترك سيجارته فهوت من يده على الأرض دون أن يشعر، وتعلق بصره بها ، قد خطفت أبصاره فلم يعد يرى غيرها رغم الكثيرات الواقفات في مدخل المحل والمارات في الشارع من أمامه ليل نهار

ما هذه الأنثى فارهة الجمال طاغية الأنوثة ؟!

فلم ينتبه بنفسه إلا وهو يَقف موجهًا لها الكلام :

ـ من أنت ؟ وهل أنت من أهل المنطقة ؟

لم ترد بكلمة ، ونظرت إليه ثم نظرت إلى سلطان الذي بادره الكلام في غضب :

ـ ليس لك دخل في ذلك، وليس لك شأن بها ؟

انتبه منصور لسلطان، وقال بصوت رقيق رغم شقاوته وانحرافه عن جادة الصواب :

ـ أنا أسأل فقط يا سلطان ؟

ـ لا تسأل عن شيء لا يعينك

ـ هل هي من أقربائكم ؟

ـ قلت لك لا تسأل عن شيء لا يعينك ، هي الآن من أهل الشيخ الشهاوي ، فلا تتعرض لها مرة أخرى .

ـ أهل الشيخ الشهاوي أهلنا كلنا ، ولهم منا الاحترام والتقدير

كان للشيخ الشهاوي مَكانة ومنزلة عالية في قلوب الحي كله ، وأبعد منه بكثير، كان الجميع يُحبونه ويتمنون رضاه، ولم يجرؤ أحد على مسه بسوء لا هو ولا أي أحد من أهل بيته، وهذا ليس في حياة الشيخ فقط ، بل من أيام والده الشيخ سلامة، والحارة والشارع بل المنطقة كلها من شرقها لغربها شمالها وجنوبها لا يَجهل فيها أحد مقدار وقيمة هذه العائلة حتى أفجر الناس وأشقاهم .

فمنصور رغم ما يَغوص فيه من الشقاوة والانحراف واشتفاف الحشيش وامتكاك الخمور، والطفر وراء المتع والشهوات واللذات، حتى أتعب وأنهك والده وأمه، وأسرته كلها ، فَيئسوا من صلاح حاله، وعودته إلى الصواب ورغم مُحاولات الشيخ الشهاوي معه ليعيده ويرده إلى الحق والطريق المستقيم إلا أن شيطانه ونفسه كانا أقوى منهم جميعهم ، فاستجاب لهما ومشى في ظلهما حتى صار من أفسد شباب الحي وأسوأهم هو ومن مَعه من عصبة الفساد والضلال .

ورغم ذلك لم تَنبس شفتاه بحرف أو بكلمة سوء على أحد من أسرة الشيخ الشهاوي من أصغرهم لأكبرهم منذ أن نشأ وترعرع في هذه المنطقة ، نشأوا على الاحترام والتبجيل والتَقدير للشيخ الشهاوي وأهل بيته .

حتى يعقوب أفجرهم جميعًا وأسوأهم بلا مُنازع وأفسدهم وأقواهم شرا وأضلهم أمرا، وأضرهم أذى لم يرتكب أي حماقة أو سوء في أي أحد من أهل الشيخ الشهاوي طيلة عمره في هذه المنطقة .

الجميع يعلم أن الشيخ الشهاوي حالة خَاصة ، وله خُصوصية عظيمة وتعظيم كبير في نفوسهم، فكان يخشى إن امتدت يده بالسوء نحوه وقد فكر في ذلك كثيرًا وفي حالات عزم عليه ، ولكنه كان يعلم أن هذا سيثير عليه أهل المنطقة، وربما يكون في ذلك نِهايته، فأذية شيخهم ومولاهم لن يغفلوا ويغضوا الطرف عنها كما يغضونها مع غيره من أهل المنطقة الذين امتد إليهم أذى يعقوب وضرره فلم يتجاسر على تَنفيذ ما فكر فيه وعزم عليه في بعض الأحيان، ربما كان ينتظر فرصة مُناسبة لينقض عليه ، وينزع منه الجامع والمنزل وما يملكه فانجرف بتفكيره بعيدًا عما كان عازمًا عليه ، فالوقت ليس وقته ، فكتم شره في صدره من ناحيته، حتى لما علم أن ليلى تلك الفتاة فائقة الجمال والحسن أجمل من في المنطقة كلها لما علم أنها في رعاية الشيخ الشهاوي وتحت كنفه وفي أمانه لم يتعرض لها بسوء أو أذى إلا ما يكون

منه كل مرة يراها مِن كلمات مدح وثناء وتبجيل في جمالها أو عارضًا عليها مساعداته في حمل ما تحمله ، وتوصيلها إلى المنزل أو مساعدته في أي شيء آخر تريده، فقد عرض عليها أكثر من مرة خدماته إذا كانت تريد أي شيء، حتى ولو كان عظيمًا وبعيد المنال فسوف يُلبيه لها .

- فنحن جميعًا في خدمة الشيخ الشهاوي وأهل بيته .

هكذا قال لها أكثر من مرة ليبرر كلامه وحَديثه معها، وليضفي على هذا الكلام جانب الشرف والفَضيلة وأن تقديم هذه المساعدات ليس إلا تكريمًا للشيخ الشهاوي ومن عنده، وكانت في كل مرة تشفنه في مقت وبغض شنيعين، وكان في كل مرة ينهي كلامه معها قبل أن تنحرف عنه، وتنطلق في سيرها بقوله:

- إذا احتجت أي شيء فأنا تحت أمرك ، فلا تَخجلي من طلب أي شيء مني

وضعها يعقوب في حساباته، وضمن مُخططه ، وظل يتربص بها متصبرًا عليها حتى يحين وقتها، فهي في حصانة الشيخ الشهاوي وفي حماه وأي تهور أو طيش - كما كان يفعله من قبل مع الكثير - عواقبه وخيمة في هذه الحالة ، فلا يأمن غضب من حول الشيخ الشهاوي ، ومن يعيش بينهم والذين يَعتبرونه مولاهم ورمزا لهم ، فهم وإن كانوا - أقصد الكثير منهم - غير متدينين

تدينًا تاما فقليل منهم من يصلي ومن يتلزم بالعبادات، وكثير منهم لم يدخل الجامع، ولو لقضاء حاجته ، وينغمسون في الملذات والشهوات واحتفاف الخمور، واقتمام المنكرات والموبقات .

ولكن مع هذا كان الشيخ يمثل لهم حتى لأفجرهم وأفسقهم رمزا دينيًا لا يجوز الاقتراب منه أو مسه بسوء ولو بلفظ قليل ، وهذا الذي جعل يعقوب لذكائه وفطنته أن يتريث ويتأنى ويتصبر في أمر ليلى ولا يعجل فيه ، رغم طلبات عزام الشماس المُتتابعة له بمده بالألماس البشري الذي يتاجر فيه كما يتاجر في الذهب والألماس المعدن .

وعندما حكى له عن تلك الفتاة التي رأها في ميعة صباها ودلالها، وغزالة أنوثتها، وقوة بكارتها، فقد كان لخبرته الشديدة في التعامل مع النساء والبنات يعرف المرأة بكرًا أم ثيبا من مشيتها، وعندما نظر لكعوب رجليها عرف أنها مازالت حمراء، بكرًا وردية لم يسمها إنس ولا جان، وهذا ما زاد ثمنها وقيمتها في عقله، فمثلها الآن شيء ثري ، عملة نادرة، هذا الجمال الأنثوي وهذه الرقة وهذا الدلال والعذوبة والحسن الطبيعي إذا اجتمع مع تلك البكارة صارت أغلى من الألماس، وزاد راغبوها وزبائنها ، يُريدونها بأغلى الأثمان، فعندما حكى له عنها طلب أن يحضرها له بأقصى سرعة، ولكن يعقوب طلب منه الصبر، فأمر هذه الفتاة بالذات ليس سهلاً ، ولكن عزام الشماس كان عجولاً، لا

يقبل أن يرفض أو يتأخر له طلب فألح على يعقوب بأن يتصرف، خاصة في هذا الوقت الذي يحتاج فيه لوجوه جَديدة في أسرع وقت ، وعندما تأخر يعقوب عليه في الرد ذهب بنفسه ومعه بعض رجاله إليه حيث دكانه الأثري لعله يرى الفتاة .

ترجل هو وثلاثة من رجاله أمام دكان يعقوب من سيارة فخمة مرسيدس زرقاء مُصفحة مزودة بزجاج سميك يحمي ركابها من الرصاص ، طولها يبلغ حوالي ستة أمتار وعرضها حوالي مترين أو يزيد قليلاً، وارتفاعها حوالي مترين إلا ربع المتر، أما محركها فكان «٦» سلندر بسعة «٧٦٥٥ سي سي» يتصل بنظام نقل ذي «٥» سرعات، ويصل وزن تلك السيارة إلى « ٤٨٠٠» كيلو جرامًا .

كانت سيارة غريبة في شكلها فريدة في نوعها لا يُوجد منها إلا القليل في العالم كانت تبعث على الهيبة والإجلال، فمن يقع بصره عليها تطفر إلى قلبه مشاعر خوف مشوبة بِهيبة وإجلال وتظل الأعين مثبتة عليها محدجة فيها وفي كل ذرة من ذرات تكوينها، وكأنها كائن فضائي، وهذا ما حدث مع أهل المنطقة الذين انحسرت وجوههم عن نظرات القلق والارتياب والهيبة رغم أنهم رأوها قبل ذلك حوالي مرتين أو ثلاثة ، مرات قليلة ، فلم يكن يأتي عزام للقاء يعقوب إلا لأمر خطير .

وجاءه هذه المرة لأمر ليلى وغيرها، فلما حكى يعقوب عن صفاتها له وروى جمالها وأجمل في وصفها ونعتها ألح عليها

عزام بإحضارها بأقصى سرعة فهناك من يُريدها على أحر من الجمر، فلم يصطبر حتى تأتي إليه فجاءه ليفكرا في أمر لينهيا هذا الأمر، ولكن يعقوب بعد استقباله الاستقبال الحار مثل كل مرة، وتقديم ما يحبه من الشمبانيا الفرنسية الفخمة حكى له ظروف هذه الفتاة بالذات، فوضعها يَختلف عن غيرها، ووضح له هذا الوضع بوجود هذه الفتاة في منزل شيخ الحي والمنطقة كلها حيث الجميع يحبونه ويُبجلونه ويَحترمونه ويقدمونه حتى على أنفسهم لما يرون فيه من خشوع وخضوع وطاعة لله عز وجل فهو شَيخهم وابن شيخهم وأي تهور أو طيش مع هذا الشيخ فلن تُحمد عواقبه، نظر إليه عزام ونفث دخان سيجاره الكوبي الفخم وقال ورجله اليمنى على اليسرى :

- لماذا كل هذا ؟

- الشيخ الشهاوي حالة فريدة يا عزام باشا، ربما يَثور علينا أهل الحي ويدمروننا وأنا الذي في وجههم سأكون أول ضحية وأروح في الرجلين، فيغلق لك بَاب مهم، فأنا مهم جداً لك، وأنت لا ترضى أن يضحى بي بسهولة هكذا

- إذن ماذا ترى ؟

- الصبر

- لم أعد قادراً على الصبر، أنا ورائي أعمال وأشغال مهمة يا يعقوب، وهذه الفتاة سنجني من ورائها كثيراً زبونها موجود بل قل زبائنها، هذه الفتاة البكر بهذا الوصف الذي وصفته ستكون مطلب عيلة القوم من الداخل والخارج .

- اطمئن يا عزام باشا سأحضرها لك، ولكن بصبر وهدوء ، أنا أخطط لها منذ أن وقعت عيني عليها ، أؤكد لك أن الخطة قربت على الاكتمال ، وفي أقرب وقت ستكون ليلى بين يَديك وتحت رجليك تفعل بها ما تشاء

ابتسم عزام وقال :

- سأصدقك يا يعقوب لأني لم أعهد منِك كذبا قط ، ولم تخلف وعدك أبداً لي

- إذن اطمئن ودعني أسلها من بينهم من دون أن يشعر أحد مع أنها خسارة في هذا الطريق ، فنحن أولى بها .

- ماذا تقول يا يعقوب ؟

- تصدق لقد فكرت بالزواج بها .

- الظاهر أنك جُننت، في عملنا لا توجد مشاعر ولا عواطف ، وأنت عندك زوجتك امرأة جَميلة ثرية من عائلة عتيدة .

- لكني مللت منها، وأريد أن أجدد، أريد فتاة صغيرة بِكر تدلعني وتنسيني همومي .

- أمامك فتيات كثيرات، ولكن ابتعد عن ليلى، فلم تعد الآن ملكًا لأحد غيري ، ليلى صار لها مالك يا يعقوب

- أنا أعلم ، كانت فكرة دارت في رأسي مع أني أعرف أن هذا صعب

اعتدل عزام واقفا يزرر زر بدلته وهو يقول :

- سأنصرف الآن، ورائي أعمال كثيرة ، وعندما تنتهي أعلمني كي أستعد لاستقبال العروس، وإذا احتجت إلى أي مُساعدة أعلمني .

يقف يعقوب وهو مُفتر عن ابتسامة شيطان وقال :

- لا تقلق ، سأفعلها بنفسي ، ومعي رجالي هنا ، فلن أحتاج إليك .

- يا حبذا أيضا لو تأتيني بغيرها في مثل جمالها وصفاتها ، نشاطك قل يا يعقوب

- كيف تقول ذلك ؟ ألم آتي لك بفتاة عربية فارهة الجمال منذ شهر؟!

- أنت قلت منذ شهر، وعندما سألتك هل هذه أجمل أم ليلى قلت هذه لا تبلغ واحد على مائة من حسن ليلى فَجعلتني أشتاق لها، وأفكر فيها أكثر من وقتها فمن حينها، وصفاتها لم تفارق بالي ، حتى إني اشتقت لرؤياها وطلعتها ، هل ....

- هل ماذا ؟

- هل من الممكن أن أراها الآن ؟

- هي تخرج في اليوم مرة واحدة، وربما كل يومين ، وهي اشترت ما تشتريه كل يوم وتوارت في المنزل فلن تخرج إلا غدا أو ربما بعد غد والأفضل ألا تراها كي لا نلفت الانتباه إلينا ، فالحارة مَليئة بالمارة ، وهذا المقهى الذي قصادك يَجلس عليها زبائن يرمقون الرائح والغادي، خاصة منصور وأصحابه الذين يقبعون هنا طيلة يومهم، عندما تخرج ستراهم يحملقون في سيارتك في غضب ومقت، أنا أعلم بحالهم منك، هؤلاء كلهم حقد وكره وبغض للأغنياء، دع الأمر لي، وأنا سَأنفذه على أكمل وجه

ارتدى عزام نَظارته الشمسية وقال :

- معك حق يا يعقوب، من الأفضل أن أبقى في الخفاء كما أنا، ابق أنت في الصورة .

- اتركني لهم

هز عزام رأسه وولى مدبرًا خارجًا من دكان يعقوب مُتجهًا نحو سيارته التي سدت الشارع وخلفه رجاله يفتح أحدهما له باب السيارة ، وقبل أن يلجها نظر إلى المقهي فوجد مَنصور ومن معه

يحدقون فيه بمقت وغضب فهز رأسه سخرية واستهزاء، فتهيأ منصور للقيام فأمسك خميس يده وجذبه ليجلس، فجلس على مضض وهو يشفن السيارة ببغض وغضب حتى انطلقت واختفت من أمام أعينهم مغبرة عليهم وهم جالسون ، فحول بصره إلى يعقوب الواقف يشفنهم في خبث ومكر مُختلط باستهزاء وسخرية كما فعل عزام ، ثم دلف داخل دكانه كما دلف عزام داخل سيارته لما رمقهم بتلك النظرات ، فازداد غضب مَنصور وغيظه وحنقه على يعقوب وضيفه، وكأنه كان يشعر أن الكلام والحديث عن حبيبته ليلى .

فلم تكن ليلى محط أنظار هؤلاء فقط سلامة ومنصور ويعقوب رغم اختلاف أهدافهم، ولكنها كانت محل أنظار كل من يراها أو يرمقها ولو من بعيد، ولكن من مَلكت قلوبهم وأعنتهم وسرائرهم هؤلاء الثلاثة: سلامة الذي يراها ليل نهار ولا يعرف الطريق إليها، ومنصور الذي يراها وهي تروح وتغدو لشراء طلبات المنزل وأيضا لا يعرف كيف يكلمها أو يعبر لها عن مكنونه ويعقوب وكان أجرأهم ففي كل مرة يراها يُغازلها ويكلمها ، ويعرض عليها خدماته ومساعداته ، ونحو هؤلاء الثلاثة كانت طرقها كلها مسدودة غاصة بصخور صماء صيخودة مطلاة بالزفت، فَماذا تفعل مع نظرات سلامة التي بدأت تلاحظها ، ولكنها تغض الطرف عنها كل مرة ، وكأنها لا تراها ،وكأنه لم ينظر بالمرة ،

ولكن تَفهقت تلك النظرات نحوها وبدأت تمحشها وتسحفها في كل خطوة من خطواتها داخل منزل الشيخ الذي آواها ورعاها ولم تسمع منه كلمة سوء قط، فلم يَكن لسانه ينطق إلا بالحسن والجميل، لم يسبها أو ينكر عليها شيئًا قط أو حتى يتأفف من شيء فعلته .

فكيف تُقابل هذا المعروف الذي سكنها وغص فيها وزخر عقلها ولسانها به تذكر نفسها بهذا الجميل والمعروف ليل نهار، فكيف ترد له هذا الجميل وذاك المعروف بأن تُخرب حياة ابنه وتفرق بينه وبين زوجته وتأخذه منها أو حتى تصبح زوجة ثانية له، فهذا سيكون أمرًا مرفوضًا ليس من جهتها ، وإنما من جهة زوجته سكينة التي باتت تُعاملها بجفاء وخشونة بعد أن كانت أختا لها منذ أن حلت مَنزلهم الرحيب، فربما لو تزوجته أن ينهدم هذا المنزل وتهد حياة سلامة، فقد ترفض زوجته ذلك الأمر فَتطلب الطلاق وتأخذ ابنها من أبيه وجده، ويصبح المنزل الآمن المُطمئن مقصعا بالخوف والقلق والاضطراب والحسرات وأيضًا إذا بقيت فيه وظلت أمام سلامة لن يتركها بنظراته تلك التي ربما تَتطور لشيء آخر، كما أن زوجته سكينة باتت تلاحظ ذلك، وهذا سر جَفائها لها فوجودها ربما يسبب لها أيضا المتاعب بعد أن شعرت بالأمن والاطمئنان النفسي والجسدي في هذا المكان الذي يَتعالى فيه ذكر الله وتَرتفع فيه تلاوة القرآن ليل نهار ، فَماذا تفعل ؟

ظلت تُحدث نفسها بذلك ليل نهار ، وتفكر في أمرها كيف تترك هذا المنزل بعد سنتين من الأمن والراحة والرخاء فيه وقد ابتعدت عن كلاب السكك وذئاب الحشوش وطوارق الليل، وإذا ظلت وتَغاضت عن نظرات سلامة الجائعة الوالهة، ونظرات زوجته الجافة الحانقة فلن تشعر براحة نفسية وسَيتعمقها إحساس بالخوف من حُدوث أي شيء فيه يودي بها إلى الطرد من هذه الجنة ، فماذا تَفعل ؟

هل تخبر الشيخ بما يحدث حوله في المنزل وفي الشارع من تحرش يعقوب بها أم تُخفي ذلك؟

وإذا أخبرته فماذا تقول له؟

أتقول له أن ابنه يُراقبها ليل نهار ويتأرها بصره ولا تفارق نظراته مسعاها وممشاها ؟

ظلت تفكر وتفكر حتى سار الفكر أنيسها الوحيد لا تدري ماذا تفعل حتى طفرت في عقلها نَظرات منصور لها، فأنشأت تفكر في تلك النظرات التي تلاحقها في الريحات والجيات، رأت في تلك النظرات حبًا عميقًا رغم أن أعينهما لم تصطلم أو تتلاقي في مواجهة، ولكنها أحست براحة من نظراته له .

ولكن منصور أيضا طريقه مغلق وموصد ومسربل بالأشواك ، فالجميع يعرف حال منصور وأخلاقه وإدمانه للحشيش والخمور،

ومثله أيضا يعقوب ذي السيرة السيئة والسمعة الشنيعة ، فهي تعرف أنه لا يريدها لخير أبدًا، وإنما لسوء وشر مثل الذي سمعت عنه فلن يعفها، ولن يسترها بل سيفضحها ويشنعها .

فمنصور وإن كان سيئ الخلق مدمن الخمر والحشيش ولا يصلي ولا يدخل الجامع الذي تتهادى منه أصوات المؤذن داعية إلى الصلاة آناء الليل وأطراف النهار، فكان الجامع مواجها للشقة التي يقطن فيها منصور مع أسرته في عمارة «الحلبي» ومع ذلك لا يدخل هذا الجامع ، فليس كوالده ذي السيرة الحسنة، ومع تلك التصرفات السيئة والمشينة وإن كان فقيرًا معدمًا إلا أنه أخف من يعقوب الذي يسعى خلفها لشهواته وملذاته، بينما منصور رأت في عينيه الحب الحلال، وإن كان لا يقدر على ذلك، ومع ذلك قالت لنفسها :

- كيف أخرج من منزل العبادة والصلاة وتلاوة القرآن بَيت تغمره الملائكة الأطهار ليل نهار، وأخرج لبيوت الشياطين وأعوانهم من الأنجاس؟!

فباتت بليلة نابغية كليل السقيم، تتقلب على مراقد القلق، وتتململ على فراش الفكر والوساوس، قد سامرتها الهموم، ونزفتها الغموم، واكتحلت بمراود الأرق تفكر في حالها، وفي وضعها الذي بات على شَفير الهاوية، فتقلبت على بطنها، وقد انكشف قميصها عن ساقيها اللامعين، وتنحت بصفحة وجهها اليمنى نائمة عليها ثم انتفضت جالسة على السرير، قد هالها ما رأت

وكأن عينـان تنظـران إليهـا مـن خرتـة البـاب ويـد ضاغطـة علـى مقبضـه تحركـه قليـلاً قليـلاً حتـى أحسـت بصريـر خافـت للبـاب، وكأن هنـاك مـن يُريـد فتحـه ببـطء ورفـق دون أن يشـعر بـه أحـد ظانًـا منـه أنهـا نائمـة، وتغـط في نومهـا، ولكنـه فوجـيء باسـتيقاظها وبصوتهـا يقـول:

ـ من ؟ من ؟

فتوقـف المقبـض عـن الحركـة والـدوران، وتـرك البـاب مواربـا ، فتلفتـت حولهـا علـى السـرير وأمسـكت بالـروب وفي ثوانـي اعتدلـت واقفـة والـروب يغطـي جسـمها ماسـكة طرفيـه بيدهـا ضاغطـة بهمـا علـى صدرهـا وخطـت نحـو البـاب في ترقـب وترصـد، وفتحـت البـاب، ونظـرت يمينًـا ويسـارًا فلـم تجـد شـيئًا ، فهرعـت بغلـق البـاب عليهـا، وهـي خائفـة قـد ألصقـت ظهرهـا بالبـاب تطمـو ضربـات قلبهـا وسـرعات تنفسـها تقـول لنفسـها:

ـ هـذا سـلامة ليـس غيـره، مـن غيـره يسـتطيع فعـل ذلـك هنـا ، الشـيخ الشـهاوي حاشـا لله، سـلطان الصغيـر أم أمـه، لا، ليـس أحـدًا مـن هـؤلاء، إنمـا هـو سـلامة لا يجـرؤ غريـب علـى دخـول بيـت الشـيخ الشـهاوي بِـدون إذنـه، الآن أصبـح الموضـوع خطيـرًا، قـد تجـاوز نظراتـه إلـى امتـداد يـده علـى مقبـض البـاب ومحاولـة فتحـه ودخولـه علـي، مـاذا سـيكون بعـد ذلـك ؟

أصبح الأمر خطيرًا، فماذا أفعل ؟

هل أخبر الشيخ بما حدث الآن أم ماذا ؟

أهطعت في سيول من التفكير، وهي تدلف نحو سريرها لم تخلع الروب وبصرها مُعلق بالباب تنظر إليه خيفة من أن يعاود الكرة مرة أخرى .

ولكن سلامة لم يكن ليعاود الكرة بهذه السرعة، وفي ليلة واحدة بعدما أحست به ، وارتجت أضالعه من صَوتها، وكان يظن أنها تغط في نومها، ففوجيء بيقظتها وسهرها ، فطفر يحقحق في سيره حتى اختفى في لمح البصر من الطرقة ، فلم تره ليلى، وكانت قد تباطأت في فتح الباب من شدة هلعها فتركت له المجال ليتوراى من غير أن تكتشفه، وتعرف من هو، وإن كانت تظن لدرجة اليقين أنه سلامة الذي انساب يَقفز من الفرق حتى توارى في مقرأة والده .

أغلق عليه الباب وهو يَلهث من الجري والرعب، يتنفس من أعماق قلبه يزفر ويشهق يستند إلى الجدار حتى هوى ببطء على أريكة والده ملصقا ظهره بالجدار، قد طار قلبه بجناح الوجل حتى بَلغ حنجرته، فأسند رأسه للخلف إلى مَسند والده في مجلسه حتى هدأت نفسه وخف روعه ، وعادت إليه حالته مرة أخرى ، فأخذ يتذكر ما رآه من خرتة الباب من ساقي ليلى ونصف

صدرها العلوي المترجرج وشعرها السياب المنسدل على ظهرها فشعر بسخونة جسده ، فرفع جلبابه وكشف عن نصفه الأسفل، وأخذ يداعب ذكره متخيلا ليلى في حضنه، انتشى سلامة، وصار في حالة من النشوة واللذة ، وهو مغمض عينيه في حالة تخيل وتصور ، حتى انتفض وفار بما فيه من مني لزج ظل يقذفه كالبركان يقذف حممه على فرش الحجرة الأنيق ، وقد لزجت يده وتلطخت بمنيه الأبيض اللزج الكثيف الذي تناثر على ملابسه ويده وفي أرضية الحجرة مدنسا أطهر مكان في المنزل بذنبه في خلوة والده. كثيرا ما خلا الشيخ الشهاوي ومن قبله والده الشيخ سلامة بنفسه في هذا المكان في ظلمات الليل يُصلي ويتلو آيات القرآن الكريم خاشعًا باكيًا مذرفًا الدموع السواحب، ظلت خلوة والده ومقرأته طاهرة دهرًا طويلاً لم يرتكب فيها أي ذنب إلا ما كان من سلامة في تلك الليلة ، اقترف أول ذنب في جنح الليل في هذا المكان الطاهر الشاهد على عبادة وخشوع الشيخين الشهاوي وسلامة الجد، حتى جاء الشيخ سلامة الابن والحفيد بأول ذنب فيها متصورًا امرأة في عقله، ويستمني وينزل عليها منيه مخضبًا ذلك المكان الطاهر برجسه .

ويقوم ترتعش أطرافه وأنامله وشعر رأسه كأنه يشعر بالخزي والعار يحدوه الخجل يتلفت حوله كالتائه، يعلم أنه ارتكب ذنبًا ، أمامه الحلال الطيب الطاهر، وينغمس ليستمني في خلوة والده الطاهرة ، حدج بصره على مواضع المني، وهو مُقعشر من نفسه مُقذرها ومحتقرها

كيف يَفعل في خلوة والده ومقرأته هكذا ؟

فأتى بِذنوب من ماء وطفق يزيل ذلك المني بِقطعة مبلولة من القماش، ثم قام ليغتسل ويزيل عنه ما ألم به ويطهر نفسه ، ثم انزوى في ركن من خلوة والده يُصلي في خشوع وخضوع وخوف من المولى عز وجل ، ساكبا ألتار الدموع السوائح على خَديه مبللاً الفرش بها كما ابتل من منيه وشتان بين الاثنين دموع تسفك خوفا من اللّه، ومني يُقذف عصيانًا للّه .

تاب إلى اللّه عز وجل في تلك الليلة عازمًا على أن يقرضب كل صلته بها ولن ينظر إليها بعد الآن أبدًا، وسيعتبرها كأنها غير موجودة ، ولن يمكث في المنزل غالب وقته كما كان يفعل منذ انشغاله واهتمامه بها، وخفقان قلبه من ناحيته، عزم على ذلك واستجمع شجاعته وقوته لتنفيذ ما عزم عليه، ولكن في الصباح عندما وقع نظره عليها لما وجدها ترنو إليه في عتاب ، نسي ما كان قد عزم عليه، واشتغل بِنظرات عينيها التي تهمسان إليه في رفق ألا تكرر ما فعلته بالأمس ، ففهم من نظراتها أنها عرفت أنه هو الذي كان يختلس النظرات إليها، ويَتجسس عليها متلصصا من خرتة الباب، فشعر بعتابها له في رفق ورقة ، فأخفض بصره حياء وخجلاً، وخرج دون أن يتناول فطوره، وذهب لعمله في معهد الشيخ الأزهري الرابض في أول الشارع على بعد خُمسمائة متر من المنزل بالقرب من مقهي «قدري» أشهر مقاهي الحي .

مشى يدلف كالشيخ المُثقل بالأمراض يفكر فيما كان قد عزم عليه، وقد تبخر متلاشيًا في الهواء كأن لم يكن لما رأي عينيها، وإن كانت تعاتبه ولكنه نسي كل شيء أمامها ، فماذا يفعل الآن ؟

إنه يصير أضعف خلق الله أركانًا عندما يراها أو يشعر بقربها منه، تيقن أن وجودها بجواره في منزل واحد من المصائب والبلايا، وليس هناك حل لهذه المصيبة، والخروج منها سالمًا سوى بأمر من أمرين: إما أن يتزوجها على زوجته، وتظل معها في المنزل، وإما أن ترحل من المنزل ولا تعود إليه أبدًا أو يرحل هو.

ولكنه لن يرحل، فكيف يرحل ويترك والده في هذا العمر وقد شاخ وهرم وأصبح في أمس الحاجة إليه ليرعاه ويعينه ويتولى أمور المشيخة والمقرأة والجامع من بعده

إذن لا مناص من رحليها أو زواجها مِنه، ولكن رحليها سينهك عقله، ويجدع تفكيره، ويهضهض مشاعره وأحاسيسه، فلن يشعر بمعنى الحياة وبقيمتها إذا رحلت وغابت عن عينيه .

فلا مناص إذن من أن يتزوجها

- ولكن هل ستقبل وهل سيوافق والدي على أن أتزوج زوجة أخرى على ابنة أخيه التي رباها ورعاها في حجره بعد وفاة والدها وهي طفلة صغيرة لحمة حمراء لا تَتجاوز السنتين ؟ وإذا وافق هل ستوافق سكينة ؟

الأمور مُعقدة ومتشابكة وستتبجس عن رزايا ومشكلات كثيرة أنا في غنى عنها .

ظل يحدث نفسه حتى دخل المعهد، وهو غير شاعر بمن حوله غائب عنهم بفكره وعقله، يفكر في حل لما هو فيه، ماذا يفعل ؟

لم يكن وحده الذي يفكر في أمر ليلى، هناك غيره من لم يخرجها من باله ولم يتناسها لحظة واحدة، حتى صارت أحاديث لهم في سرهم وعلانيتهم

من هؤلاء: منصور ذلك الشاب الذي ناهز الخامسة والعشرين من عمره ومع ذلك ترى عليه أثر الهرم المبكر قد عرض البياض بعارضه، وبدت في رأسه طلائع المَشيب ، وطوالع القتير، وبرزت عروق ظاهر كفيه ، ونحل جسمه وضمر من شدة اقتمامه للحشيش واشتفافه للخمور ، وشحب وجهه وبدت عروقه محاطة بهالات من القتامة والاسوداد بعدما كان من أوسم شباب المنطقة كلهم، وإن بدا شيئًا من هذه الوسامة خلف هذا الشحوب والنحول ، فلم تختف تمامًا فمازال هناك قليل من وسامته وقوة بنيانه واشتداد عوده وإن كان قد ذهب أكثر ذلك بطاعته الشباب وغرته، ورفله في سكرى الشباب والشراب، جرفته زقات الشبان ونزغات الشيطان ، قد لبي منذ سبع سنوات داعي هواه فانغمس في لجة صباه، فلم يعد يعرف

الصحو ولا يفارق اللهو ، وصار تركة بين غرر الشباب وغرر الأحباب، فلا يفيق، ولم يدركه التوفيق حتى الآن .

بدأ يحس بشيء غَريب وتغير يزحف نحوه ببطء لما خفق قلبه ونبض بمشاعر فتية بريئة نحو ليلى لم تطهر تلك المشاعر إلا لها وحدها أول مرة ينظر لفتاة ولا يشعر برغتبه في مواقعتها بأي وسيلة ، كما فعل بغيرها مع من يشتهيها فلم تفلت واحدة اشتهاها من بين يديه، وبالرغم من أنه اشتهى ليلى إلا أنه لم يرد مواقعتها في الحرام، فقد اشتهاها في الحلال ، الوحيدة التي تمنى أن يتزوجها، ويعيش معها ما بقي من عمره هي ليلى ، فكما أنه اشتهاها تمنى أن يتوب على يديها، وأن يتطهر من الآثام والذنوب المنغمس فيها ليل نهار .

رأى في وجهها بارقة أمل ، وبصيص نور لحياة جديدة أفضل ، لو وافقت على الزواج به سيتغير ويكون إنسانًا آخر كما كان يحلم ويحلم من حوله متوسمين فيه منذ الصغر أن يصير شيئًا نافعًا لنفسه ولهم ولمجتمعه، ولكنه خذلهم لما كبر وكبرت معه شياطينه وصار أفسدهم وأسوأهم حتى أنكروه حتى هو أنكر نفسه، ولم يعد يَعرفها، ولم يعرف كيف وصل لما هو عليه الآن؟

كانت مَخايله وليدا وشمائله صغيرا نواطق بالحسنى عنه ، وضوامن للنجح فيه، ولكن حالته انقلبت وأمره انعكس فجر أزر

الصبى ، وأذال ذيول الهوى أعماه شبابه عن الرشد ، وأصمه عن العذل ، أنفق صباه وجزء من شبابه على الفحشاء والأحشاء ، وأصبح بين الزق والعود ، وأمسى بين موجبات الحدود .

قد صعب رأسه على لجام العظة، وإن كان من داخله ومن أعماق نفسه يريد أن يتغير ويرجع لطهارته وطيبته ويؤوب إلى ربه ويثوب إلى رشده، والسبب في ذلك حبه لليلى وتعلقه بها، وبوجهها الصافي النقي، لو قالت له تب سيتوب على الفور ، وسيكون رهن إشارتها ، ويصبح ما تريده، ولكنه زايله شكوك وأسرته وساوس من قبولها .

فكيف تقبل أن تتزوج شخصًا في مثل صفاته السواء وأفعاله الشنعاء وأخلاقه الدميمة ؟!

وهي الجَميلة الحسناء التي ترنو إليها عيون الجميع وأفئدتهم ، قد شربت من أخلاق الشيخ الشهاوي، وارتوت من سمته وصفاته الطيبة، لأنهم يعلمون أنه لا يقبل عنده إلا الطيب مثله، فكيف بإنسانة في مثل صفاتها الخلقية والخلقية ترضى بشخص مثله منحرف ضال ، يرتكب المنكرات والفحشاء ليل نهار صباح مساء ؟!!

ظل يُحدث نفسه وهو جاثم منزوي في ركن خارج مقهى «أبو الريش» وقد انفض عنه أصحابه ذوي الضلالات والسوء ووساوس الشيطان، وبقي وحيدًا منفردًا يُفكر في أمره وأمر ليلى .

ثم قام مع إغلاق المقهى وذهاب الباقين الفرادى كل لحاله حتى ظل متوحشًا من المكان المظلم المدلهم يتلفت حوله كالخائف، ثم توقف يفكر أين يذهب، هل يذهب إلى خميس صَديقه الذي تركه في بداية الليلة ، ليكمل باقي الليل عنده يرتشفان آخر تعميرة معه ؟

أم يذهب لمهلى «النرجس» حيث صديقته الخمرية «نزهة» وإن شئت قلت عشيقته الباقية معه دون باقي عَشيقاته وخليلاته، ربما لأنها أحبته من شِغاف قلبها، هو لم يُحبها ولا يراها سوى جَسد يُفرغ فيه شهوته

هكذا كانت نَظرته للنساء عبارة عن ثلاث فَتحات إحداهن مُحرمة حتى هذه المحرمة اقتحمها فتراكب عليه حرام على حرام، هكذا كانت نزهة ونرجس وسها وغيرهن في نظره قَعر لتفريغ الشهوة والشعور بالراحة، لم تَتغير هذه النظرة ولم تتبدل إلا لأنثى واحدة «ليلى» التي ملكت خالص قلبه، ولبه وكل عضو من أعضائه، حتى ذَكره لم يتحرك كلما يراها لأنه لا يراها في المقام الأول ثلاث فتحات ، وإنما يراها غير كل النساء والبنات يراها نور شفاف أو جنية في صورة إنسية، وليست كنزهة التي فكر في الذهاب إليها، ولكنه عدل عن ذلك، واتخذ قراره النهائي ليقطع هذا التفكير المرير، سَيذهب يكمل مزاجه، ويسلطن عقله بآخر

تَعميـرة معـه علـى مقهـى قـدري السـاهر حتـى الصبـاح ، فـلا يَغلـق هـذا المقهـى طيلـة يومـه وليلتـه، أربعـة وعشـرون سـاعة مفتوحًـا في ثـلاث ورديـات متتاليـة متتابعـة، لذلـك صـار أشـهر مقهـى في المنطقـة كلهـا يرتـاده مـن يسـهر حتـى الصبـاح فـكان أكثـر رواده مـن الشـباب الثائـر علـى كل شـيء حتـى علـى نفسـه، يَنفثـون همومهـم علـى هـذا المقهـى مـع دخـان الحشـيش والأفيـون الـذي يَعـج بـه المقهـي خاصـة في النصـف الأخيـر مـن الليـل ، فكانـت مـلاذ مـن لا مـلاذ لـه، ومرقـد مـن لا مرقـد لـه، ومـأوى مـن لا مـأوى لـه ومـن لا يعـرف أيـن يقضـي الليـل

فذاعـت شُـهرته وبلغـت الآفـاق، ومـع سـوء سـمعته وقبـح غالـب رواده إلا أن هنـاك مـن الأثريـاء كبعـض البشـوات والسياسـيين والفنانـين والأدبـاء مـن يغشـاه في بعـض الأوقـات المُتفرقـة ، فصـار لـه حصانـة وحمايـة فلـم تجـرؤ الشـرطة وخاصـة مكتـب مكافحـة المخـدرات علـى الاقتـراب منـه .

ومـع هـذه الحِمايـة والحصانـة كان هنـاك حمايـة أخـرى بَلطجيـة قـدري ورجالـه الحارسـون للمقهـى، سـبعة أشـداء أقويـاء بـارزو العضـلات مُتفرقـين في جنبـات القهـوة علـى منافذهـا الأربعـة فصـارت القهـوة أمانًـا لأهلهـا، ومـن أهلهـا الذيـن يغشـونها علـى فتـرات مُتقطعـة منصـور وأصحابـه، ولكنـه هـذه المـرة سـيكون بمفـرده بعـد انفضاضهـم مـن حولـه، فـأوقـف تَفكيـره علـى الذهـاب إلـى هنـاك ولكنـه فكـر أن

يلقـي نظـرة علـى المنـزل الـذي تَقطـن فيـه ليلـى أو علـى غرفتهـا ، ربمـا يبـل ريقـه بنظـرة، فـدار بِجسـده يمنـة يمـر علـى منـزل الشـيخ الشـهاوي قبـل أن يـدرج نَحـو مقهـى قـدري .

اقتـرب مـن المنـزل نفضـه ببصـره، ودار بعينيـه هنـا وهنـاك ، رمـق درجـات سـلمه الثـلاث فلـم يـر شـيئًا سـوى الشـجرة العتقيـة الرابضـة أمـام سـلم البيـت مـن علـى يمـين الداخـل تنعـق فوقهـا الحـدأى والغربـان، فاغبـر وجهـه ضيقًـا، هـل ينصـرف أم ينسـل نحـو حجرتهـا مُنسـابًا يتلصـص عليهـا مـن شـباك الغرفـة ذي الأعمـدة الأربعـة الحديديـة المغروسـة في بـروازه الخشـبي المغبـر؟

مشـى علـى أطـراف أصابعـه منسـابًا كالحيـة بـدون فحيـح أو همـس قبـض علـى عموديـن مـن الأعمـدة الأربعـة، وطفـق يشـب يشـرأب برأسـه يتلصـص مـن فتحـة ضيقـة في ضلفـة الشـباك اليسـرى، ولكنـه عـاد خاسـئًا حسـيرًا فقـد حلأتـه السـتارة وصربتـه عـن رؤيـة شـيء مـع محـاولاتـه المسـتمرة، ولكنـه لـم ييـأس وظـل يعافـر ويشـب بقدميـه ، ويشـرأب برأسـه الطويلـة لا يشـعر بـأي شـيء يـدور حولـه، حتـى إنـه لـم يشـعر بخطـوات سـلامة الـذي يخـرج كعادتـه كل ليلـة قبـل أذان الفجـر بنصـف سـاعة أو سـاعة ليفتـح الجامـع ويهيئـه للصـلاة ويمـلأ القلـل ، ويشـغل الراديـو علـى إذاعـة القـرآن الكـريم كمـا هـي عادتـه كل ليلـة.

وكان كلما يخرج يتلفت يمينًا ويسارًا يرصد منزلهم ويطمئن عليه وعلى الشارع كله، وعندما التف يمينًا وجد جسدًا في آخر المنزل من ناحية غرفة ليلى يتلصص على الشباك، وهو في قمة سكره وغيابه عن المحيطين به، فوجم وجهه وذهل عقله فضغط على شفتيه وهز رأسه وانساب يخطر على أنامل قدميه ليستكشف هذا الجسد المتلصص على عورات البيوت، وهو تائه عما حوله، غائب عن الجميع فلم يَشعر بشيء إلا بيد تقبض على قميصه من عند قفاه ، وهو يقول له:

- ماذا تفعل يا ....

فوجئ الاثنان ببِعضهما، فوجئ سلامة بمنصور، وفوجئ منصور بسلامة، فذهلا صامتين ثواني ثم قال سلامة في حدة :

- ماذا تفعل هنا يا منصور؟

تلجلج منصور وشعر أن هذه الليلة لن تَمر بسلام فابتلع ريقه، وتصفد جبينه عرقا وتلعثم :

- أنننننـ ...... أنا .....

كان يفكر، وهو يتأتئ فاستجمع قوته، ونزع نفسه بقوة من يد سلامة وأبق مسرعًا ، فارا من أمامه، وما هي إلا لحظات حتى اختفى عن أنظار سلامة الذي وقف واجمًا جاثمًا في مكانه، وهو في فورة غضبه ينظر تارة لشباك غرفة ليلى، وتارة للشارع حيث

اختفى منصور من أمامه يهرول في سيره ويطفر كأن الشرطة تطارده حتى توارى في ركن من بيت مهجور وجعل يلهث من شدة الجري طمت ضربات قلبه، وأمعنت سرعات تنفسه في تلاحق مُستمر نفس خارج ونفس داخل حتى هدأ بعض الشيء ، وبدأ يستجمع نفسه وحاله، وهو غير مُصدق بما حدث ، وكأنه في كابوس مهيب، يدور بعينيه في هذا الظلام الحانك الفاحم الذي يغلف ذلك البيت المهجور، فلم يجد شعاع نور واحدًا ، فهوى بِجسده جالسًا على الأرض يحدث نفسه :

ـ كيف فعلت ذلك ؟ كيف أجرؤ على التلصص على منزل الشيخ الشهاوي ؟! ابنه أكيد سيخبره وسيكون مصيري سيئًا، لو علم أهل الحي بما حدث لن يتركوني لحظة واحدة أعيش بينهم، سَيطردونني وحينها سأبتعد نهائيًا عن ليلى، وتضيع مني للأبد، وهذا فيه مهلكتي، فما العمل إذن ؟ ماذا أفعل كي أصحح هذا الوضع ؟

وطفق يفكر حتى اخترمته فكرة باهرة، ما كان يفكر فيه كثيرًا صلاح حاله على يد ليلى، ولن يكون ذلك إلا بالزواج ، فهب منتفضًا منحسرة شفتاه عن ابتسامة النصر، وهو يقول بصوت حماسي مسموع:

ـ نعم ، أتزوجها، ليس هناك حل لما حدث سوى الزواج بها، وأيضا حل لسلوكي وتصرفاتي، هذا هو الحل الأمثل لجميع

مَتاعبي ومصائبي ومشاكلي أتمنى ألا يُفشي الشيخ سلامة ما رأى حتى يتم مرادي و......

انتبه لأذان الفجر فَانقطع كلامه ، ووهب سمعه للأذان يسمعه في فرحة عامرة وهو منفرط في التفكير، فوجدها فرصة رائعة، فهب يثير الخطى نحو دورة مياه الجامع التي في مؤخرته من ناحيته الجنوبية الغربية، دخلها وسط دهشة الموجودين من أهل الشارع ، فمن سنين عجاف مرت لم يروه في دورة المياه يَقضي حاجته فضلاً عن دخول المسجد ، فتهامس بعض المتوضئين :

- ربما جاء يقضي حاجته
- حتى هذه لم يكن يَفعلها كان يقضيها في البيت المهجور أو في أطراف الطرق المظلمة

وقال ثالث :

- ربما هداه الله

انشقت شفتا رابع عن ابتسامة غير المصدق وقال:

- منصور المجرم صار مهتديًا وجاء يصلي؟!!

سمع همساتهم وتمتماتهم ولم يعيرها انتباها، قديمًا لم يكن ليترك الدفاع عن نفسه أبدًا، لو كان قبل ذلك بساعة واحدة لكان طحنهم ضربًا، وأوسعهم بطحًا، ولكنه الآن يُريد أن يري الجميع

مـن نفسـه خيـرًا، فابتلـع كلماتهـم ودخـل دورة الميـاه ثـم خـرج وقـد وجد عـددًا آخـر غيرهـم يرمقونـه بنظـرات الاندهـاش والذهـول، لـم يأبه بتلك النظـرات وتقـدم يفتـح الصنبـور، وطفـق يتوضـأ كمـا يعلـم، وإن كان عنـده جهـل في بعـض الأمـور لذلـك لـم يحسـن وضـوءه، ولـم يجـرؤ أحـد علـى تصحيـح مـا أخطـأ فيـه لعلمهـم بسـفالته، فتركـوه يتوضـأ كمـا يـرى.

ثـم أهطـع ليقـف في الصـف الأول ليكون خلف الشـيخ الشـهاوي، وقـف والجميـع مندهـش واجـم خاصـة سـلامة الـذي وجـده يقـف بجـواره دون أن ينظـر إليـه فقـد كان مُخفضًا بصـره في الأرض، بينمـا سـلامة لـم ينـزل عينيـه مـن عليـه في غضـب ومقـت حتـى كبّـر الإمـام الشـيخ الشـهاوي فانتبـه سـلامة، ونظـر أمامـه وكبـر مـع المكبريـن .

ولمـا انتهـت الصـلاة التفـت الشـيخ الشـهاوي ليـرى في وجهـه منصـورا يحـدق فيـه فحمـج فيـه الشـيخ، وشـفنه في تعجـب سـرعان مـازال وانمحـى وهـز رأسـه قليـلاً ناحيـة اليسـار في ابتسـامة خَافتـة، وكأنـه نصـر كبيـر أن يدخـل منصـور الجامـع ويصلـي الفجـر مـع المصلـين، ولكـن النظـرة مـن جانـب سـلامة كانـت مختلفـة لـم يحـول بصـره عنـه منـذ أن سـلم الشـيخ الشـهاوي، ركـز بصـره عليـه ، وثبتـه علـى وجهـه بينمـا الآخـر كأنـه غيـر موجـود لا يلتفـت إليـه إلا نظـرات مختلسـة مـن طـرف عينـه اليمنـى ليـراه محدجًا فيـه بينمـا منصـور

مخفض عينيه في الأرض يفعل كما يفعل بعض المصلين يسبح على أصابعه، وإن كان أكثرهم قد أخرجوا مسبحاهم يديرون خرزها مسبحين عليها، وكان الشيخ الشهاوي يختلس بعض النظرات إليه بين الفينة والأخرى .

ولما انصرف غالب المصلين بقي الشيخ الشهاوي وابنه وبعض المصلين من بينهم منصور الذي انزوى في آخر الجامع مُتربعًا يسترق بعض النظرات إلى الشيخ الشهاوي والشيخ سلامة الذي يتحدث مع والده، ارتجف فؤاده، واستكت ضلوعه، وارتعشت أنامله ، شعر بأن الحديث عنه، فكان يتابعهم بين النظرة والنظرة ليرى هل نظر إليه الشيخ أم لا؟

امتلكه رعب لا يريم، وخوف هضهض أعضاءه، وأحس بأن أحلامه تبعثرت أمامه، وعيشه انقطع من الشارع ، والأمنية الغالية من الزواج بمن أحبها صارت هباء، ولكنه لم ير الشيخ ينظر إليه، ولم ير سلامة يشير إليه إذن عن أي شيء يتحدثان؟

أخذ يتابعهما بناظريه لا ينفك من النظر إليهما حتى قام سلامة، واتجه نحو مكتبة الجامع التي بجوار المنبر الخشبي المزخرف، أخرج كتابًا ووضعه أمام والده ، ثم تنحى جانبا يصلي ركعتين الضحى بعدما نشرت الشمس شعاعها، ولمعت في أجنحة الطير، وقبل أن يخرج من الجامع ليذهب لعمله وقف لحظات يشفن منصورًا في

غضب ومقت وحنق كأنه يتوعده وينذره ثم رقل خارجًا تاركًا منصورا مرتعبًا خائفًا ينظر للشيخ الذي لم يبادله أي نظرة منذ انصرافه لمؤخرة الجامع، وبدأ يضطرب ويثور من داخله :

ـ هل علم الشيخ بالأمر أم ماذا؟ لماذا لا ينظر إليّ ؟ هل أخبره الشيخ سلامة بما رأى أم ماذا؟

وظل فكره يَذهب ويجيء يغدو ويروح في أفكار وهواجس ثم نظر له، وقال لنفسه :

ـ الآن الشيخ أصبح بِمفرده يقرأ هل أذهب إليه وأطلب منه الزواج من ليلى أم أنتظر حتى أخبر أبي بطلبي هذا ليطلبه هو بنفسه؟ نعم أخبر والدي أولا فهو كبيرنا، ولا يجب أن أتخذ خطوة مثل هذه من دونه كما أن الشيخ الشهاوي يحبه ويقدره ، وسوف يُسر والدي بهذا الأمر إذا عرف أن فيه صلاحي وهدايتي .... أنتظر حتى يَصحو أبي وأخبره أمام أمي بطلبي هذا، وبأني صليت اليوم الفجر، وزواجي من ليلى سيكون سبب هدايتي وصلاحي وسعيي في الدنيا فَسوف أشتغل معه في الدكان كما كان يريد بعد أن ضللت وانحرفت بعدما تَركت المدرسة وتعليمي فلم أكمله ، ستكون يدي بيده في الدكان، وسوف أكون إنسانًا آخر إذا تزوجت ليلى، وأكيد الشيخ الشهاوي لن يرفض لوالدي طلبه ، ولن يجد زوجًا لليلى أفضل مني .

وعـزم منصـور علـى أن يخبـر والـده بمـا نـوى عليـه، وعـزم علـى فعلـه مهمـا كلفـه ذلـك، هـو يعـرف أن والـده يريـد أن يفعـل أي شـيء مـن أجـل صـلاح حالـه واسـتقامته، فعندمـا أخبـره منصـور بمـا يريـد علـى مائـدة الفطـور، صمـت قليـلاً ونظـر لزوجتـه وقـد رأى علـى وجههـا علامـات النصـر الواضحـة خَلـف ابتسـامة تجلجـل في وجههـا وتزغـرد التفـت إليـه وقـال :

- هـذا في الغالـب يكـون أسـعد يـوم عنـد الأب والأم أن يَتـزوج ابنهمـا خاصـة إذا كان ابنهمـا الوحيـد، لكـن حَالـك يـا منصـور لا يسـر، وسـيجعل مـن تريـده يعـزف عنـك

- حالـي سـيتغير يـا أبـي إلـى الأحسـن إن شـاء اللّه إذا تَزوجـت ليلـى كمـا قلـت لـك، أنـا أريدهـا ولا أريـد غيرهـا، أنـا اليـوم صَليـت الفجـر ، ولـن أفـارق الجامـع أبدًا مـن بعـد اليـوم، تعلـق قلبـي بـه وبهـا.

كـادت الأم أن تطيـر مـن الفرحـة، وظهـر ذلـك علـى أسـارير وجههـا وهـي تقـول لزوجهـا:

- هـذا يـوم المنـى يـا بيومـي، اسـع في زواجـه بِهـا، اخطبهـا لـه ، مَنصـور صـار شـيئا آخـر، أنـا غيـر مُصدقـة نفسـي، منصـور صلـى الفجـر، وعـزم علـى التغييـر لأجلنـا يـا بيومـي لأجـل ابننـا الوحيـد افعـل مَـا يُريـد .

ـ لكن يا عايدة، ليلى هذه في بيت الشيخ الشهاوي وهو ولي أمرها الآن وكافلها، ولن يقبل الشيخ الشهاوي أن يُزوجها لمنصور، وهو يعلم حاله وسلوكه، ابنك .... (ينظر إليه) ابنك أول مرة أراه مَفيقا يقظًا، معه عقله منذ زمن لم أره هكذا

ـ يا أبي قلت لك سأتغير ، والله سأتغير ، ولكن أرجوك ، أقبل يدك .

ويمد فمه ويده ليمسك بيد والده ليقبلها، ويقبلها ووالده ينظر إلى رأسه في اندهاش وتعجب تزايله فرحة غامرة من الداخل، قد بدا بعضها على شفتيه وفي مَلامح عينيه، ثم نظر إلى زوجته عايدة، في صمت، فقالت له:

- منصور تغير يا أبا منصور، ليلى غيرته.

- فعلا يا أمي ليلى غَيرتني، إذا لم أتزوجها ربما أقتل نفسي أو أصير أفجر من الآن ، سأكون أفسد وأفجر واحد في المنطقة كلها، ولن أتورع عن فعل أي شيء، وسوف أجلب لكما العار والشنار .

تسرب لوجه أبيه بعض أحاسيس الغضب من كلامه ، ومع ذلك لم تمح تلك الأحاسيس مَشاعر الفرحة من داخله ، ولكنه قال في حدة :

- أنت جلبت إلينا العار منذ زمن يَا منصور، أصبحت وجوهنا بسببك في الطين والوحل، لم نَعد نقدر على رفعها في عيون

الناس، أنت ابننا الوحيد وكُنا نأمل فيك خيرًا كثيرًا، ومع ذلك خذلتني أنا وأمك المريضة، وسرت في طريق الشيطان واستجبت لدواعيه .

- يا أبي، ليس لهذا الكلام داعي الآن، سأكون كما تريدان ، سأرجع أكمل تعليمي مرة أخرى لو أردت ذلك أو أنزل أعمل مَعك في الدكان سأفعل أي شيء تُريده ، سأكون رهن إشارتك من يدك هذه إلى يدك هذه، لكن أرجوك أقبل رجلك زوجني ليلى .

أسف بيومي النظر إلى وجه ابنه ودموعه التي بدأت تلوح في أفق عينيه وعلامات الشجن، والبؤس والحزن مُنتفشة في وجهه، فرق له، ولطف بحاله ، فهذا هو اليوم الذي كان يَتمناه منذ زمن بَعيد، ثم نظر لزوجته عايدة التي انفرجت أسارير وجهها أكثر وأكثر حتى اشتفتها الفرحة وغمرت فُؤادها وعقلها ، وهي تَهز برأسها معلنة الموافقة والتشجيع لتنفيذ هذه الخطوة ، فالتفت إلى ابنه مرة أخرى وقد انسابت الدموع على خَديه، وقال :

- سأبذل قُصارى جهدي يا منصور من أجل هذا الأمر ، لا تقلق

- اليوم يا أبي أرجوك

- اليوم بعد صلاة الظهر سأجلس مع الشيخ الشهاوي في الجامع

- لا ، لا أريد في الجامع ، في المَنزل عنده أفضل

- ولم ؟

- أريد أن يكون الموضوع في طي الكتمان، لا أريد أن يعلم أحد به استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان يا أبي، وأنت تعلم ذلك، أريد أن يُفاجئ الجميع بالأمر ، كي لا يتدخل أحد ويخربه ويفشله .

- أحد مثل من ؟

- هناك الكثير ممن لا يحبون الخير لأحد يا أبي، أرجوك حدثه في المنزل أفضل بشكل رسمي، لا أريد أن تحدثه في الجامع .

هز رأسه وقال:

- سأحدثه في المنزل يا منصور، اطمئن، وسأخذ معي هدية ، لا تقلق ، سأسعى في هذا الموضوع طالما أنك ستتغير ، وتكون رجلاً صالحًا

- أعدك يا أبي ، سأتغير للأحسن وسترى بنفسك (وينظر لأمه) وسترين ذلك بنفسك يا أمي .

مازال فمها متفهقا عن ابتسامتها الصافية، تَبتسم له ، وتربت على يديه وتقول :

- إن شاء الله يا ابني سَتتزوجها، اجعل أملك في الله، وادعوه أن يوفقك ويرزقك الحلال .

ينحني يقبل يد أمه تسبقه دموعه تنهل على يدها قبل فمه.

وبعد صلاة الظهر مال بيومي على أذن الشيخ طالبًا منه أن يزوره في البيت لشيء مهم، هز الشيخ رأسه بالموافقة، بينما شفتاه تتحركان بذكر اللّه عز وجل .

وكان سلامة محدقًا فيهما مندهشًا حائرًا بدأ الارتياب يتسلل إليه، فنصب عينيه ينظر إليهما، ثم أشاح بوجهه يسارًا ينظر إلى منصور المتابع لوالده وهو يهمس في أذن الشيخ، أحس سلامة بأن هناك شيئًا يحصل، وأن هذا الأمر يتعلق بليلى، فاكتنفه الغضب والوجوم يُفكر في أمر منصور ووالده ولكن سرعان ما تَبدد وجومه، وزالت دهشته ، وأنهكته نَار شديدة تكوي جوفه وعقله وقلبه لما سمع بيومي أثناء إدخاله الشاي والحلوى إلى والده وبيومي في مَقرأة الشيخ، سمعه يطلب ليلى للزواج من ابنه ، استكت مسامعه وارتجفت أضالعه ، وأثر ما سَمع في القلب موقعه ، وأطار واقع السكون وأثار كوامن الغضب، وثَقلت وطأته على أجزاء النفس، وتأدت معرته إلى سواء القلب، وكأن الناعي جَاء بانهداد الرواسي، وانفلاق الحَجر القاسي ، كاد لبه أن يَطير ، وعقله يطيش، وارتعشت يداه كأنهما تتهيآن للانقضاض على رقبة بيومي، وطرده من المنزل، ولكنه تَماسك وتَصلب وانصاع لإشارة والده بعينيه أن ينصرف، فانصرف وأغلق باب المقرأة عليهما، وجلس خَارجها في حالة من العزاء، وكأن أيامه انقضت ، وارتاعت

نَفسه وانبسطت الظلمة حوله، قد لاحت تَباشير الدموع في عينيه ناعية ليلى وأيام ليلى ، أشاح بِصفحة وجهه اليمنى ناحية الباب ليسمع ما يقال بالداخل وما يدور من حوار بينهما، ولكنه أصيب بخيبة أمل لما لم يسمع شيئًا من حوار الشيخ مع بيومي ورد فعله وهل سَيوافق أم لا ؟

وكان الشيخ جالسًا متربعًا على وسادته مديرًا حبات مسبحته، رفع نظره إلى بيومي بعد انصراف سلامة بدقيقة كاملة ، ثم ابتسم إليه وقال :

- هل ترضى ذلك لابنتك يا بيومي ؟

اندهش من كلامه وقال مستغربًا :

- أرضى ماذا يا مولانا ؟

- لو كان عندك ابنة مثل ليلى ، وجاءها شاب مثل منصور ، وأنت تعرف حال ابنك هل كنت ستوافق عليه ؟

- بصراحة يا مولانا لو ظل على حَاله ما كنت لأوافق أبدًا

- أنت رددت على نفسك ، وعرفت جواب طلبك

- لكن منصور تغير وأنت رأيته في الجامع، وهو وعدني إن تزوجها سيتغير ويكون أحسن الناس، وأفضل الشباب وسيكمل تعليمه وسيشتغل معي في الدكان، وسيواظب على الصلاة ،

وسيترك الطريق الذي كان فيه، وسيلفظ الخمر والحشيش ، ويمج صحبة السوء .

- لقد رأيته في صلاة الفجر اليوم، وفي صلاة الظهر، وهذا شيء جميل لكن هذا وحده ليس بكاف يا بيومي، فربما يكون فعل ذلك من أجل أن أوافق على زَواجه من ليلى، ولكن أنت أخ أو ابن، أنا لا آمن لليلى مع ابنك ، فأنت تعرف تاريخه، وليلى فتاة يَتيمة ليس لها أحد في الدنيا بعد الله عز وجل إلا أنا ، وهي عندي الآن أهم من ولدي، لأنها امرأة ضَعيفة، وليس معنى أن منصور حفظه الله وهداه صلى صلاتين أو خمس صلوات أو حتى واظب على الصلاة أن أوافق به على زواجه بليلى ، منصور لو كان مثلما كان قديمًا قبل سبع أو ست سنوات كنت زوجته لليلى بنفسي، بل كنت أتيت بها زوجة له في مَحله، ولكن الآن منصور مدمن يا بيومي، وأنت لا يرضيك أن أهين ليلى بَعدما كانت مكرمة عندي، ولا أريد لها أن تَشقى بعد ذلك أو أن ترجع لي مرة أخرى مُطلقة ، ليلى صارت مثل ابنتي الآن وسأختار لها زوجًا صالحًا كما لو كانت ابنتي من صلبي، ما كنت أريد أن أرفض طلبك يا بيومي، فأنا أحبك، فأنت رجل صالح، ولكن أنت قلت لو عندك ابنة لن تزوجها لمنصور بنفسك .

- أهذا آخر كلام يا مولانا ، صدقني أنا أشعر أن منصور تغير، وصار إنسانًا آخر ، والسبب ليلى ، يُحبها ويريد أن يَتزوجها كي ينصلح حاله ويستقيم

- ابنك يجب أن يَستقيم ليس من أجل ليلى أو غيرها ، وإنما من أجل الله عز وجل ، طمعًا في جنته، وهربًا من ناره، ليلى إنسية مِثله لا تضر ولا تنفع وإذا كان ابنك يُحبها بصدق يلزم الطاعة، ولا يفارقها، وليعتبر هذا امتحانًا واختبارًا له إذا ثبت عليه والتزمه وترسخت قدماه في هذا الطريق ربما أوافق إذا أرانا من نَفسه خيرًا ليس من أجل ليلى ولا من أجلنا ولا من أجل أي مخلوق، وإنما من أجل الله عز وجل وحبًا فيه .

- يعني ممكن أن يتم الأمر يا مولانا .

- كل شيء مُقدر ومكتوب، وكل شيء في يده عز وجل ، قلت لك أنا حاليًا لا أقبل، ولكن مستقبلاً إذا استقام على شرع الله ، وطاعته ولزم أمره واجتنب نواهيه ربما أوافق به في المستقبل هذا إذا لم يأت إليها زوجًا صالحًا مناسبًا فربما يأتي إليها زوجًا صالحًا طيبًا قبل أن يثبت منصور على الطاعة وعلى الابتعاد عن المعاصي والذنوب، وتَرك ما كان عليه من الفواحش والمنكرات وهذا كي أكون صادقًا وصريحًا معك ، فأنا لا أكذب ، منصور إذا ثبت على الطاعة وفعل ما تقوله من إكمال تعليمه والعمل معك ولم يأت زوج صالح لليلى فإن شاء الله تكون من نَصيبه، وهذا ليس وعدًا

أو نذرًا أنا قلت إن شاء الله يعني استثنيت يا بيومي، وكل هذا مشروط بصلاح ابنك .

- كلامك كله حق وصدق يا مولانا، ولكن ما هي المدة التي تتحقق فيها من ثباته على الطاعة والصلاح وابتعاده عن السوء والشر؟

- هذا في علم الله يا بيومي، الله يَميز الخبيث من الطيب، ربما تكون المدة شهرًا أو أقل أو أكثر ربما تكون شهرين، سنة أو أكثر، ولتعلم أن الصادق في توبته يظهر سريعًا وغير الصادق أيضا يظهر، وكما قلت لك الله يَميز الخبيث من الطيب ، فالمنافق والمرائي لن يظل منافقًا طيلة عمره دون أن يعلم به الناس سيأتي يوم ويفضحه الله عز وجل على رؤوس الخلائق.

حرك بيومي رأسه مصدقًا لكلام الشيخ ، وقال :

- معك حق يا شيخنًا ، وكلامك صدق .

- ولتعلم يا بيومي أن ليلى لو كان مكتوبًا لها أن تكون من نصيب منصور ابنك فلن نستطيع ولن يستطيع بشر منع ذلك، ولو لم تكن مكتوبة له فلن تفلح مساعينا، ولن تفلح طاعة مَنصور وصلاحه في تحقيق ذلك، كل شيء خَلقه الله بقدر، فكل شيء مُقدر ومكتوب .

- كل ما قلته حق وصدق، دعنا نَنتظر ماذا سيحدث في الأيام القادمة، وكما قلت كل شيء مُقدر ومكتوب، أستأذن بالانصراف يَا شيخنا

ويقف بيومي فيشير إليه الشيخ بِسبابته ويقول :

- لا تجعل منصور ييأس، فلا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون، فليجعل في قلبه الأمل، وليحدوه التَفاؤل، وأنا سأجلس معه، وأتحدث إليه في هذا الأمر، وأطمئن قلبه، وإن لم نَستفد ويستفد المسلمون فائدة إلا الفوز برجل صالح طائع للّه مِثل منصور فكفى به فوزًا ونصرًا عظيمًا

- أنا كل ما يَهمني هو أن يصلح حاله، ويرجع عن الطريق السائر فيه، لا أريد إلا أن يكون رجلاً مُستقيمًا

- سيكون إن شاء اللّه، ادع اللّه أن يصلح حاله

- أدعو له ليل نهار صباح مساء أنا وأمه ، فلا تنساه من دعائك يا مولانا

- ربنا يصلح حاله ويهديه ويرده إلى الصواب ويُثبته على العمل الصالح

- آمين ، أستاذن يا مولانا

- في رعاية اللّه

ويخرج بَيومي فيُلاقي سلامة في وجهه يحدق فيه يبتسم له ويقول :

ـ كيف حالك يا شيخ سلامة ؟

فيقطع حالة الصمت والوجوم ويقول :

ـ الحمد للّه

ـ ربنا يبارك فيك ويحفظك ويثبتك على الطاعة يا شيخ سلامة، ليت ابني مَنصور يكون ربعك أو نصفك : أو حتى جزءا قليلا منك،

وهمّ سلامة بالحديث، فسمع صوت والده يتهادى إليه من المقرأة مُناديا عليه فقال بيومي :

ـ طيب أستأذن ، لتذهب لوالدك .

ورفع يده وفتح فاه وهم بالكلام مرة أخرى ولكن بيومي اختفى من أمامه في غضون ثواني كان قد خرج من باب المنزل يدرج على سلالم المنزل فيجد ابنه منصورا في وجهه واقفًا أمام منزل الشيخ ينتظره مبادرًا إياه بالحديث :

ـ لقد تأخرت يا أبي بالداخل، ماذا حدث ؟

ـ سأخبرك كل شيء في المنزل الليلة، لا ينفع أن نتكلم في الشارع هكذا أمام الناس التي تنظر إلينا، سأذهب إلى الدكان الآن،

وأقابلك ليلاً في شقتنا وإياك أن تترك الصلاة كي يرضى عنك الشيخ .

- يعني ماذا قال لك ؟

- قلت لك سأخبرك في المساء، لا تكثر من الكلام ، هيا ننصرف من هنا

ولم يكن ينظر إليهما إلا يَعقوب الجالس أمام الدكان ، يشتف الشيشة وحوله بعض صبيانه ورجاله، وأحدهم يَرص له تعميرة في وضح النهار أمام المارة كان مُحدقًا فيهما مسترقا السمع رغم السبعة الأمتار التي بينهم ينفث دخان الشيشة مُتربصًا لهما ، مفكرًا في أمرهما ، أحس أن هناك شيئًا يحدث في منزل الشيخ الشهاوي له علاقة بليلى ، فظل محملجا فيهما حتى انصرفا من أمامه، وقد بدا بعض العبوس والوجوم على وجه منصور ، فهز رأسه ونفث دخانه، ونادى على أحد عماله (بنسة) الذي هرع إليه من داخل الدكان وهو يقول :

- تحت أمرك يا باشا .

أشار إليه يعقوب أن يقترب من أذنه ، فمال بنسة على أذنيه فقال له يعقوب بهمس :

- أريد الولد خميس بأي شكل بعد ساعة واحدة، ابحث عنه في كل مكان، مفهوم يا بنسة

- مفهوم يا سيد الناس، أنا تحت أمرك، أقل من ساعة ، ويكون تحت رجلك

- أنا قلت ساعة ، لا أريده إلا بعد ساعة ، ولا يأتني هنا ، يدخل من باب المخزن الخلفي كما هي العادة .

- مفهوم يا يعقوب باشا، هذه ليست أول مرة ، سيكون عندك كما طلبت في نفس المكان وبعد ساعة .

- اذهب أنت الآن .

وينصرف «بنسة» تاركا يعقوب ينفث دخان شيشته الطافحة بالحشيش حتى اغبر الجو من حوله كما اغبر عَقله من التفكير في أمر ما رأى .

لم يكن يدور في خلد منصور أن صاحبه الذي يعتبره أخلص صاحب لديه سيبيعه ليعقوب في أقرب طريق، ولكن هكذا هم أصحاب السوء في كل زمان، وفي كل مكان يَجرون خلف شهواتهم، ويلهثون وراء ملذاتهم ومتعهم ليس لديهم مبدأ أو إخلاص أو عاطفة، يبيعون أقرب الناس إليهم من أجل إشباع شبقهم، وقد قالها خميس ليعقوب، فبمجرد أن رأى ماله يهتز أمام عينيه وجم وذهل فقال، وهو يحدج فيه النظر :

- أنا لا أبيع صاحبي فقط، أنا أبيع أبي وأمي وأعز ما أملك من أجلك يا يعقوب، ومن أجل أموالك .

ـ وإذا أتيت بالخبر المُفيد أهديتك خاتمًا من الذهب الخالص

لم يكد يُصدق ما يسمع ، أول مرة يهتم يعقوب بأمر مثل هذا، قبل ذلك تعامل معه كثيرًا، ولكنه أول مرة يعده بخاتم من الذهب، أكيد الأمر مُهم وخطير ظل يحدث نفسه مفكرًا ، وهو يبحث عن منصور، فلم يجده على المقهى كعادته في هذا الوقت ، واندهش أكثر لما لم يجده على مقهى قدري أيضا فزاد وجومه وغضبه، وذهب ينتظره على المقهى الأساسي لجثومهم مقهى «أبو الريش»، جثم يشرب شايه وشيشته حتى رآه يخرج من الجامع مع المصلين بعد انتهاء صلاة العصر، فغشيته دهشات متتابعة، ووجوم متلازم واستغراب، فترك مبسم الشيشة واعتدل قائمًا يحدق فيه، وهو لا يُصدق ما يرى ، فنادى عليه :

ـ منصور ، منصور .

نظر إليه منصور، وهو يَترجل من على آخر درجة من درجات سلم الجامع فوجده قادمًا عليه، وفمه مفتوحًا وعيناه مُتفهقتان من الدهشة يقول له:

ـ ما هذا الذي أراه ؟ منصور يخرج من الجامع بعد صلاة العصر ؟! ماذا حدث في الدنيا؟ !

عبس في وجهه وقال :

- ماذا تريد يا خميس ؟

- ماذا أريد ؟! أنت تَغيرت يا منصور .

- نعم أنا تغيرت ولكن للأحسن .

- يعني لن تأتي تجلس معي على القهوة الآن ، سأعزمك على شيشة ، معي تعميرة حشيش رائعة ، ستجعلك في عالم آخر .

- لا أريد أن أتعاطى هذه السموم بعد الآن .

اشتف الذهول خميس، ونزفه التعجب، فأبدى لطفه وشفقته وحدبه عليه واهتمامه بأمره، وقد أمسك ذراعه وأخذه جانبًا مبتعدًا به عن الخارجين والداخلين إلى الجامع، بَينما يتابعهم يعقوب من خلف الباب الزجاجي المغلق لدكانه، بَينما بابه الخارجي الحديدي مَفتوح على مِصراعيه، ويراهما وخميس يجذبه على جانب وهو مُمسك بذراعه يقول له في شفقة :

- ما بك يا منصور؟ شكلك مريض أو بك شيء، ماذا بك؟ ماذا حدث لك ؟ تكلم أنا صديقك المخلص، دعك من الحشيش والخمر والنساء وكل شيء وأخبرني فَنحن مازلنا أصدقاء مُنذ الطفولة ، تكلم ، سأفيدك ، شاورني فيما حدث .

- أنا لا أريد أن أسير في هذا الطريق بعد اليوم .

- تريد أن تفض صَداقتنا يا منصور بعد كل هذه العشرة

ـ أنا لا أفض صداقتك يا خميس، أنت أعز صديق لي، ولكن أريد فض مَجالس الحشيش والخمر واللهو والفواحش .

ـ ليس هُناك مشكلة نفضها، وأنا سأفضها معك ، وسأسير معك في أي طريق تَختاره ، فنحن معًا على الحلو والمر منذ أن كنا صغارًا ، لكن ماذا حدث لكل هذا ؟ ما الذي جد عليك ؟

نظر منصور إلى خميس، وهو مُتردد بعض الشيء ، ولكنه ابتلع ريقه وقال بحماس وفرحة غَامرة من داخله تجتاحه :

ـ أنا سأتزوج يا خَميس .

ـ صدق ؟! جميل جدًا، ألف مبروك يا أخي وصديقي ، هذا من أسعد أيام حياتي، ومن هي هذه العروس التي خَطفت قلبك يا منصور ؟ أكيد ليست من المنطقة فأنت لا يعجبك العجب، وكل البنات هنا تَعرفهم منذ زمن، ولم تملأ عينك منهن واحدة، أكيد من خَارج الحي كله

ـ لا ، هي من الحي ، ومن هذا الشارع

– من هي سعيدة الحظ هذه ؟

ـ ليلى

ـ من ليلى؟

ـ ليلى التي في منزل الشيخ الشهاوي التي ....

- ليلى !! حقا حسن اختيارك هذه المرة يا منصور، أجمل فتاة في الحي بل في القاهرة كلها، ومن أحسن البنات أدبًا، فيكفي أنها في كفالة الشيخ الشهاوي ، ألف ألف مبروك يا صديقي، لذلك أنت تصلي ؟

- أنا أريد أن أتغير من زمان يا خميس ، ولم أجد يدًا تنتشلني مما أنا فيه، ولما رأيت ليلى، وأحببتها ثار بركان من داخلي يلفظ كل ما في حياتي، فقررت أن أتغير وأسير على الدرب المستقيم ، سأغير من حالي كي يقبل بي الشيخ الشهاوي .

- وهل الشيخ الشهاوي رفض زواجك بها ؟

- لم أعرف بعد سأعرف الليلة ، ولكن نظرة أبي لي وكلامه معي تدل على أنه وافق

- الشيخ الشهاوي شديد، ولن يرضى لليلى إلا رجلاً صالحًا

- لذلك أريد أن أكون صالحًا .

- وإذا رفضك الشيخ الشهاوي هل ستكمل في طريق الصلاح أم سَتتركه وتعود لطريقك السابق مرة أخرى ؟

وكأن صاعقة نزلت عليه من السماء، زلزل من الداخل، وغشيه وجوم وصمت، يتصفح وجه خميس، وهو يفكر ثم يقول:

- بِصراحة لا أدري يا خميس، لا أدري، وما الذي يجعل الشيخ الشهاوي يرفضني ؟

- أنا أفرض لك فرضًا، لكن لو أنا في مكانك الآن لثبت على هذا الطريق ولا أعود إلى طريقي السابق مَهما كلفني ذلك؛ لأن الوصول إلى ما وصلت إليه الآن من دخولك الجامع ، وصلاتك شيء ليس باليسير على أمثالنا يا منصور، وإذا حدث يجب أن نستمسك بهذا الطريق ، ونموت دونه، أنا لا أفهم، ولا أعرف كثيرًا في أمور الدين ، ولكن أنا أتكلم مما أراه وخبرته ، يجب أن يكون التغيير نابع من داخلك يا منصور، ليس من أجل امرأة أو مال أو أي شيء آخر من أمور الدنيا، وإنما يجب أن يكون التغيير من أجل اللّه ، ليتني مكانك الآن يا صاحبي ، وألف ألف مبروك، وربنا يُتمم لك الموضوع على خير .

وتركه صديق العيان عدو المغيب ، ، قد ملئ قلبه رينا ، وشحن صدره مينا وإن كان صدق في بعض أقواله لمنصور ، فربما تأتي الحكم والمواعظ من أفوه الفُساق والفجرة بل ومن الكفار والمَلاحدة ، ولكنه مع ذلك كان خبيث النية، فاسد الطوية ، يبدي لمنصور وجه المطابق الموافق ، ويخفي نظر المسارق المنافق ، ويتنفق بالنفاق والحيلة، قد احتال على صديق عمره ليعرف منه سره وخبره الذي ما لبث أن شاعه وبثه ليعقوب فأعطاه الخاتم وأمره بالانصراف في السر كما أتى في الخفاء، وأمره ألا يَبتعد عن منصور وألا يتركه حتى تكون أخباره في حِجره كل لحظة ، وأبدى خميس سعادة جمة طالما أنه سيهدى بالذهب، ويكافئ بالمال كل

مـرة، وانصـرف وهـو يحملـق في الخـاتم كأنـه غيـر مُصـدق تـاركًا يعقـوب في حالـة رثـة مـن الفكـر الـذي اكتنفـه وعممـه ، ثـم قـال لنفسـه :

ـ منصـور بن بيومـي يريـد خَطـف القطـة من بيـن أيدينـا ، بعدمـا أعـددت الخطـة وكنـت سـأنفذها في خـلال أيـام، علـي الآن إعـداد خطـة جديـدة ، وفي أقصـى سـرعة قبـل أن تَنتقـل مـن منـزل الشـهاوي إلـى منـزل منصـور المجـرم، ويطـول بنـا الوقـت، وربمـا تتصعـب الأمـور، مـا الحـل الآن ؟

ظـل يُفكـر في الحـل حتـى دخـل دكانـه مـن بابـه الخلفـي الموصـل للمخـزن غيـر شـاعر بمـا حولـه مـن الـدكان المُكتـظ بالعمـال والزبائـن، يتصفـح جنبـات الـدكان في ذهـول ووجـوم حتـى وقـف بصـره علـى وجـه «نجيـب» المحاسـب الأقـدم في دكان يعقـوب الجواهرجـي .

قـد اعتلـى سـدة العمـل بعـد وفـاة والـده الـذي أفنـى شـطرًا مـن حياتـه بالعمـل لـدى مدبولـي والـد يعقـوب، والشـطر الآخـر حتـى وفاتـه في خدمـة ابنـه يعقـوب، وقبـل أن يمـوت بسـنة أولـج ابنـه للعمـل لـدى يعقـوب، وبعـد وفاتـه بعـد أن أثبـت نجيـب إخلاصـه وأمانتـه وحبـه للعمـل أوكل إليـه يعقـوب أمـور حسـابات الـدكان وسـاعده في الوصـول إلـى هـذه الدرجـة هـي تَخرجـه مـن كليـة التجـارة مـن جامعـة فـؤاد الأول بتقديـر امتيـاز، وكان علـى شـفا أن يَصيـر معيـدًا في الكليـة،

ولكن نحته وأبعدته عن هذا الحلم توصية أحد البشوات ليحل محله ابن ناظر عزبته ، ويعمل نجيب عند يعقوب بتزكية من والده بعدما أنهى تعليمه ، فكان مخلصًا في عمله أمينا، شعلة نشاط وحركة، حتى أحبه يعقوب ، وجعله محاسب دكانه الذي يُديره بنفسه مع الإشراف على باقي حسابات محلاته الأخرى أغدق عليه من الأموال الكثير، تقديرا لجهوده وأمانته، وحسن خلقه الذي اشتهر به بين أهل الشارع، بل أهل الحي كلهم ، فأحبه الجميع لهدوئه ولينه وقلبه الطيب ، وحسن تَعامله معهم، فلم يكن فيه عَيب إلا عمله عند يعقوب وقد نَصحه كَثير من الناس أن يترك العمل لديه، ويَعمل عند غيره، ولكنه أبى أن يرد الجَميل بالخيانة ، حتى لو مع رجل مثل يعقوب ، كما أن لديه إخوة وأخوات وأمه جَميعهم في رقبته، أصبح المسئول عنهم بعد وفاة والده وخاصة أن يعقوب يُغدق عليه بالمال لما يعرف من أخلاقه، وأيضا لما يعرف من أسرته الكبيرة التي تَحتاج مصاريف كثيرة، وإكرامًا لوالده الذي أفنى حَياته في خدمة عائلته ، فرد إليه الجَميل في أسرته .

لذلك لما فكر في حل لأزمته وثب بصره على وجه نَجيب فجاءته الفكرة والخطة التي يستولي بها على ليلى، وذلك عن طريق نجيب ، ابتسم وهو يسف النَظر إليه وقال لنفسه:

ـ نعم ، نجيب هو سلم الوصول إلى ليلى، ولابد أن أغتنم هذا السبيل، ولن يرفض لي طلبًا بعد ما فعلته من أجله، ومن أجل إخوته وأمه، فخيري عليهم من رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم.

كان نجيب شابًا هادئًا في كل شيء حتى صوته، رقيقًا يزدان بالخجل ويتدثر باللين، مطيعًا، لم يرفض ليعقوب طلبًا قط إذا كان مباحًا، وفي غير معصية الله، وكان يعقوب يَعرف طباعه، وصفاته، فلم يَطلب منه طلبًا يُخالف طبعه وشريعته ، ولم يجد جهدًا في إقناعه بالزواج ليعف نفسه خاصة، وقد شارف الثلاثين من عمره، وكان أكثر شيء يَشغل بال نجيب هو إخوته وأسرته الذين في رقبته .

ابتسم يعقوب ابتسامته الخَبيثة، وطفق ينفث دخان سيجاره في مَكتبه الصغير المنزوي في ركن من دكانه بعيدًا عن الضوضاء والصخب، ولم يكن يدخله كثيرًا حتى يكون قريبًا من الحارة ، ومما يحدث فيها، ولكن عند مناقشة أمور مهمة لا يريد أن يَعلم عنها أحد شيئًا كان يمكث فيه لمناقشة تلك الأمور مثلما فعل مع نجيب، وقد أغلق الباب عليهما، ودخلا في جدال طويل وحوار مكرر، تفهقت ابتسامته وجهه الدميم ، وقال وهو يحدج في نجيب:

ـ لا تقلق على إخوتك ، لن يحدث لهم شيء ، سيظلون معك، وتحت رعايتك وسوف أبحث لك عن شقة تكون قريبة

من شقتكم كي تكون بجوار أمك وإخوتك وأخواتك، وإيجارها علي ، فلا تقلق من ذلك ، وسوف أزيد راتبك عندما تعقد على زوجتك، يعني لن يُؤثر زواجك بالضرر عليك، ولا على إخوتك، بل بالعكس سيكون فَتحة خير عليك وعليهم ، سيزيد رزقك وستتفح لك أبواب السعادة على مِصراعيها، أنا يهمني مصلحتك يا نجيب أنت مثل أخي الصغير، وأنت لم تعد صغيرًا فقد قربت من الثلاثين ، وعليك أن تعف نفسك قبل أن تطفر من أمام حياتك، صدقني العمر يمر كلمح البصر فانتهزه ولا تحمل همّ مصروفات الفرح ومستلزماته ، سأوفر لك كل شيء ، وسأملأ الشقة لك آثاثًا جديدًا ، سترى كل شيء مهيأ لك عند عودتك من شهر العسل

رفع نجيب بصره وكان مُخفضه مندهشًا قائلاً :

- شهر العسل ؟!!

- نعم ، شهر العسل ، يجب أن تستمع وتعيش حياتك ، ولا تحمل هم شهر العسل أيضا فعندي صديق لديه عمارة فخمة جدًا في الإسكندرية ، مباشرة على البحر، سأكلمه يهيئ لك أفخم شقة فيها كان ينزل فيها كبار السياسين والفنانين والبشوات.

- لكن ....

- لا لكن ولا كأن ، كل شيء انتهى، سَتتزوج الفتاة التي اخترتها لك

- صحيح تكلمنا في كل شيء إلا العروسة ، من هي ؟

- اخترت لك عروسة جمال وأدب وأخلاق ، لن تجد مثلها

- من هي ؟

- ليلى

- من ليلى ؟

- ليلى التي في منزل الشيخ الشهاوي، التي يُربيها ويعلمها ، أنا سمعت أنها حفظت القرآن الكريم.

ينتبه نجيب لاسمها كأنه يَعرفها، فقال بصوت مهموس تغشاه السعادة والبسمة :

- ليلى !!

وكأنه تَذكر تلك الفتاة التي تخطف العيون عندما تمر، وتشغل القلوب، رأها مرة في الصباح عندما كانت خارجة من منزل الشيخ الشهاوي ، وكان ذاهبًا إلى الدكان، تقابلت عيونهما، وتداخلت أشعتها فرأى النور بداخلها وغاص فيه، وأحس بحياة أخرى ، ارتجف فؤاده لأول مرة، وكأنه يعرفها منذ زمن من هذه الفتاة التي تشغف بها العيون، ويقبلها القلب فَترتاح لها النفس من أول وهلة ؟

ظل يحدث نفسه، ويسأل عنها في باله ثم لما رآها للمرة الثانية سأل عنها على استحياء فراش الدكان «طلبة» فأخبره بأمرها، فانبجست شفتاه عن فرحة عامرة بدت على ابتسامته الرقراقة، وظل يحلم بها أياما وليالي يفكر بها، وفي طلعتها البهية، لكنه لم يُفكر أبدًا أن يَتزوج منها ولم تخطر هذه الفكرة له على بال، فكان يظن أن هذا من الخيال لكن لما كلمه يعقوب وصرح له باسمها أحس أنها قريبة منه، وكأنها الواقع يختال نحوه ، فشعر بقشعريرة غريبة تسري في أجزاء نفسه، وانفطرت شفتاه عن ابتسامة شفافة وهو يتأمل في سقف المكتب بينما يعقوب يَتفحص وجهه مبتسمًا في خبث يقطع تَفكيره وأحلامه بقوله :

- كأنك تعرفها يا نجيب

ولكن نَجيب كان في عالم آخر لم ينتبه له فناداه :

- نجيب ، يا نجيب

انتبه نجيب لصوته فالتفت إليه ململما في نفسه مُضطربًا يقول :

- يعقوب باشا

- أراك شردت بعيدًا كأنك تعرفها

- أنا ... أظنني رأيتها مرة أو مرتين قبل ذلك في الشارع

- ما رأيك فيها ؟

ـ هي ... هي ... هي إنسانة ممتازة

ـ أفهم من كلامك أنك موافق

نظر إليه نجيب، وهو مُبتسم ويخجل منه فيخفض رأسه في الأرض كالعذارى، فيقف يعقوب ، ويتجه نحوه، ويضع يده على كتفه في خبث ومكر وغدر شنيع يفوح من صوته :

ـ يقولون السكوت علامة الرضا، ألف مبروك يا نجيب

يقف نجيب، وينظر ليعقوب وهو مبتسم طائرًا من الفرحة، يقول يعقوب:

ـ إذن أسرع واذهب اليوم أو غدًا بالكثير واطلبها من الشيخ الشهاوي

تبدلت ابتسامة نجيب إلى استغراب واندهاش قائلاً :

- ألن تأتي معي ؟

- أنا ؟! ... لا ينفع، لو أتيت معك لفشلت الزيجة، ولن يَقبل بك الشيخ الشهاوي، أنت تعرف أن أهل الشارع لجهلهم بحالي، وبأمري يكرهونني لا أدري ما السبب مع أني أحبهم، وأسعى من أجلهم، ولكنهم يأخذون عني صورة سيئة ، والشيخ الشهاوي أولهم وإذا أتيت مَعك سيرفضونك من أول وهلة، لكن لو ذهبت أنت ومعك أمك أو أحد إخوتك أو أحد أقربائك المقربين فسيكون الأمر هينا ، وستجد قبولاً بنسبة كبيرة .

- لكنهم يعلمون أني أعمل عندك وقد ....

- تقصد أنهم قد يرفضونك لأنك تعمل عندي ؟!! لا ، هذا شيء وذاك شيء آخر، الشيخ الشهاوي يعلم جيداً أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولن يأخذك بذنبي ، فأنت مجرد عَامل بسيط عندي لست صديقي أو شريكي أو قريبي وهذا لن يؤثر لكن إذا أتيت مَعك كشافع ومزكي لك فلن يقبل شفاعتي، ولن يقبلني أصلاً في منزله، وسيتأزم الموضوع بدرجة كبيرة، اسمع ما أقوله لك جهز نفسك، وأخبر أمك وإخوتك وأهلك واذهب من الغد إلى منزل الشيخ الشهاوي بعد أن تَطلب منه في الجامع أن تَتحدث معه في منزله عن أمر مهم وتأخذ منه موعداً وتذهب بمن تثق فيهم أو اذهب بمفردك، المهم لا تفوت الفرصة عليك، مفهوم يا نجيب .

نظر نجيب إليه ، وهو مبتسم ابتسامة لم يعرف إخفاءها وهز رأسه بالقبول والموافقة.

لم يكن يدرج في بال الشيخ سلامة أن يشاوره والده في العريس الجديد المتقدم لليلى، وهو لم يفق بعد من صدمة مَنصور، وتجرؤه على التقدم لخطبتها وهو الذي ينام ويصحو يحلم بها، ويَتمنى أن تشاطره حياته، حتى لم يعد يفكر في شيء غيرها، فقد ملكت عليه حياته ، واستحوذت على عقله واستعمرت قلبه، واحتلت ما بين الضلوع والجوانح .

ربض سلامة يستمع لوالده وهو يقص عليه لقاءه بـ «نجيب» المحاسب في دكان يعقوب، وما أسفر عنه اللقاء من الجانبين ، حيث طلب نجيب الزواج بليلى وأرجأ الشيخ الجواب والرد عليه لحين التَشاور مع ابنه، ومعرفة رأي العروس، فقبل كل شيء هي التي سَتتزوج ورأيها هو الأهم والحاسم في الموضوع ، ولكن سلامة أبدى عن شيء من مكنونه فلم يرتض بهذا الكلام وانتصب واقفًا، وقد فار الغضب أمواجًا مُتلاطمة، ونيرانًا متقدة بألهبة لهيب يتبع لهيبا في الارتفاع وقال :

ـ ولكن نجيب يا أبي يعمل عند يعقوب ، وكلنا نَعلم حال يعقوب وما يفعله وما يدور حوله من شبه وشهوات .

صمت الشيخ مندهشًا من رد فعل سلامة المبالغ فيه في رأيه، وحدق فيه وقال :

ـ أرى جوابك حاميًا يا ولدي .

انتبه سلامة لرد فِعله والسخونة التي تنبعث من بين شَفتيه وتضطرم في باقي جسده كله، وجلس في هدوء ، وقد تخفف من بعض ما كان به وقال في لين :

- أعتذر يا مولانا، ولكني عَهدتك لا تقبل الباطل والشر أبدًا

- ومازلت يا شيخ سلامة ، ولكن ليلى طَلبها نجيب لنفسه، وليس ليعقوب ونجيب كُلنا نعرف أخلاقه وحسن سيرته

وسلوكه الحسن، فرغم أنه يعمل لديه إلا أنه لا يترك فرضًا من الصلوات جماعة، وكلنا نرى ذلك ظاهرًا وباطنه يرد علمه إلى اللّه ، لكن الظَاهر لنا حسن خلقه، وطيب سمته فهو مواظب على الصلوات في جماعة، لا يُؤذي أحدًا، يعامل الجميع برفق ولين وحسنى ، هَادئ، لين الطباع، سهل، بَسيط، مُتواضع، خجول وعنده أدب وحياء، إنسان مهذب، يعني لا يَرفض، ولا وجه للمُقارنة بينه وبين منصور الذي تَقدم والده لي بطلب خِطبة ليلى، كالفرق بين السماء والأرض هذا في أعلى المَراتب نحسبه واللّه حسيبه ولا نزكي على اللّه أحدًا، والآخر - نسأل اللّه له الهداية والسداد - كما تَعلم ونعلم كلنا حاله وسلوكه ، فما يهمنا هو نجيب وليس يعقوب، ووالده كان رجلاً صالحًا، وسار ابنه على دربه في السمت والصلاح ولين الجانب، ولن نَجد زوجًا لليلى مثل نجيب، سأكون مطمئنًا عليها يا ولدي إذا تَزوجت شخصًا مثله، أنت تعلم أنه ليس لها أحد بعد اللّه إلا نحن، فيجب أن نحافظ عليها حتى تَذهب لبيت زوج صالح تقي هذا رأيي، والرأي الأول والأخير لها سنعرض عليها الأمر، وهي تختار لن أخيرها بين منصور ونجيب، فَمنصور حتى هذه اللحظة مرفوض حتى ولو صلى والتزم ، أهم شيء الثبات، وهو مازال في بداية صلاحه، لكن نجيب مَشهود له بالصلاح والخير منذ نعومة أظفاره، ولكن سَأعطي لها القرار إما أن توافق عليه أو ترفض حتى يأتي

إنسان آخر، وأنا من جهتي من أجل إحقاق الحق سأخبرها بحال نجيب وسُلوكه وطباعه وما عليه من سمى الصلاح والخير وهي تختار .

أطرق سلامة برأسه ثم رفعها ، ولم يعرف إخفاء ما ألم به واحتواه من مشاعر الغضب والرفض والحنق ، وقال :

- الأمر أمرك يا أبي، افعل ما تَراه مُناسبًا، فهي في حماك، وفي كنفك ورعايتك وكلنا مثلها، ولن نَخرج عن طاعتك أبدًا .

- ما أراه مناسبًا أن ليلى هي التي تقرر لأنها هي التي ستتزوج ليس أنا ولا أنت، غدا ضحى إن شاء الله أخبرها بالأمر، وهي لها مطلق الحرية بالقبول أو الرفض، أما أنا فَخذ بيدي حتى أدخل غرفتي أضطجع قليلاً قبل أن أقوم للتهجد

وقف سلامة، ومد ذِراعيه ليتكئ والده على كتفه الأيمن ، وفي يده الأخرى عصاه التي لا تفارقه، وسار معه حتى اطمئن عليه بولوجه حجرته وإرتاجها عليه، ظل واقفا لحظات يُحدق في باب الحجرة، ثم أطلق العنان لقدميه تقوداه إلى خلوة الشيخ ليجلس منفردًا منعزلاً عن الجميع غائبًا في الظلام الخارجي الذي يحتوي المقرأة ويلفها، والظلام الداخلي الرابض في صدره الجاثم على قلبه، الجاري في دمه مجرى الشيطان من ابن آدم لا ينفك عنه عبس وجهه واغبر، واكفهرت مَلامحه، تضمه أفكار ووساوس

تفتق الجفن وتقذي العين، وتُؤذي القلب، وتوحش النفس، حتى أحس بأن الأرض تتزلزل من تحته كما زلزل قلبه وارتجف خوفًا من ضياع ليلى من بين يديه وهذه مُصيبة في ظنه ليس بعدها مصيبة ، مصيبة أحرت كبده وأقرحته، قد تركت نفسه مولهة، وعقله مدلها مجروحًا، ودمعه مسفوحًا على خديه، وقواه مَهدودة، مُصيبة ألمت فآلمت ثملت فكلمت، وسلبت الأجفان كراها فظل ساهرًا يضطرب رأسه كالمأفون المَجنون، لا يكاد يُصدق أن ليلى ربما تضيع منه في الصباح إذا وافقت على نجيب، فإذا قبلت ورضيت به زوجًا فَسيسرع والده الشيخ الشهاوي بِتزويجها منه في أسرع وقت، فهو يَعلمه جيدًا لا يؤخر البر والخير أبدًا، فارتعشت أنامله، وأحس بِقبض روحه ففزع ، قال لنفسه ودُموعه تَسبقه :

ـ لا، لن تضيع ليلى مني، ليلى لي وحدي، لن أتركها تضيع مني أبدًا، فهي سر سَعادتي، وبدونها شَقاوتي وضَياعي، ليلى لن أتركها ليفوز بها غيري، فهي إما لي أو ليست لأحد، لكن كَيف؟ كيف أخضعها لي ؟ كيف أذلها وأجعلها لا تَنظر إلا لي ولا تَعترف إلا بي ؟!!

وانتبه لِتسويل الشيطان له، فصمت قليلاً قد برقت عيناه، واتسعتا وتسنمتهما نظرة النصر لما نفخ الشيطان في سحره ومناخره، وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره، أوسعه

الشيطان تسويلاً، واستهواه تغريرًا وتضليلاً وحبب إليه الغدر والخسة والدناءة حتى شِيط بلحمه ودمه، وكره إليه الرشاد حتى ألقاه وراء ظهره وتحت قدمه ، فهب واقفا ناصبًا ظهره بعدما نعى الشيطان في أذنيه فاستجاب لدعائه، وحث الخطى مَاشيًا على أطراف أصابعه كما فعل قبل ذلك، انساب في سيره نحو غُرفة ليلى فمشى عن طوية معلولة، وظاهر يسر الناظر وبَاطن يسو الخابر، ما أكذب سراب أخلاقه وأكثر أسراب نفاقه، قد لبس من الغش والخيانة ثوبًا لا ينضوه، ولازم من الفعل سمتًا لا يعدوه، انتهز الفرصة كيف يَنشر أجنحة الغدر والخيانة، وكيف يعمل أسلحة الاغتيال، فَدلف نحو حجرتها ليغتال براءتها، ويهدم عش حَصانتها، ويفض غَشاء بكارتها .

أخرج الشيطان الذي بداخله، وأخذ يتلصص عليها من خرتة الباب فوجدها نائمة على ظهرها مُفرجة بين رجليها في قميص نوم أسود إلى فَخذيها، قد برز منه ثديان منتصبان، فلهث بلسانه، وانبثقت من عينيه ألسنة النيران المتقدة بين أحشائه، فاعتدل من انحنائه، وانقض على المقبض يحركه محاولاً فتحه، ولكن اصطلم بإيصاد الباب بالترباس من الداخل، فألح في تحريكه وزخه للداخل، ولكن دون جدى، أحست ليلى بحركة المقبض فلم تكن قد غَرقت بعد في النوم حيث كانت تتقلب يمينًا وشمالاً، فجثمت على السرير تَبتلع ريقها، وهي تقول :

ـ من ؟ من؟

انتبه سلامة لصوتها فتنحى بصفحة وجهه يمينا يفكر ثم قال :

ـ أنا الشيخ سلامة يا ليلى .

اعتدلت واقفة وخَطت نحو الباب يغشاها الخوف والتعجب تقول :

ـ ماذا تُريد يا شيخ سلامة ؟

ـ ليس أنا الذي يريد، الشيخ الشهاوي هو الذي يُريدك حالاً عنده، لأنه مريض، ويريدك بجواره .

تفهقت عيناها من الخوف والشفقة على الشيخ ، كانت تُحبه لدرجة لا توصف فلم تتردد في فتح الباب، فوجدت سلامة في وجهها يدفعها للداخل بشدة ، دافعًا الباب بيده، تتراجع للوراء في دهشة ورعب وقد رأت الغدر والخيانة في عينيه المحمرتين تقول :

ـ ماذا تريد يا شيخ سلامة ؟

يتحرك نحوها بقدمين ترتعشان ، ويدين ترتجفان وهو يقول :

ـ أريدك أنت يا ليلى ، أنا ... أنا أحبك وأريدك

كان قد انتهى بها التراجع إلى حافة السرير فوقفت لما أحسته خلفها، ومدت يديها أمامها تدافع عن نفسه من هول ما سَمعت ورأت:

ـ كيف تُحبني يا شيخ سلامة ، فأنت شيخي وابن شيخي ، مولانا وابن مولانا

يطمو احمرار عينيه، يَتطاير منهما الخبث والدناءة ، يدفعها بكلتا يديه على السرير ، ويقول :

ـ دعك من هذا الكلام الآن ، أنا أحبك وأريدك

تنظر إليه في رعب وخوف واضعة يَديها على صدرها المنحسر قميصها عن نصفه، وهي تترجاه، لا تريد أن تَصرخ فتفضحه ، وتفضح الشيخ فقالت بصوت دامع :

ـ أرجوك اتركني ياشيخ سلامة، واذهب لزوجتك وابنك

ـ أذهب وأتركك سليمة عفيفة لنجيب أو لمنصور دون أن أذوقك أو أرتشف منك ما يَشفي غليلي ، ويروي ظَمئي، أبدا لن يحدث ، فأنا أول من أحبك وعشقك حتى الجنون.

وانقض عليها كالوحش نَائما فوقها مُطوقها بذراعيه كي لا تنفلت من بين مخالبه، وتفر من بين براثنه، يمد فاه ليرتشف من فيها ، وهي تبتعد عنه يمنة ويسرة وهي تقول :

ـ أرجوك اتركني، اتركني، لا أريد لك الفَضيحة ولا للشيخ، اتركني

تحاول دفعه وزبنه عنها، ولكنه كان فتيًا شديدًا أحكم قبضته عليها ، وهي تتملص منه، رفع قميصها بيده اليسرى ، ويده اليمنى على صدرها، وأمسك فرجها بيده فأطلقت صرخة اهتزت لها جنبات الغرفة فلم تعد قاردة على التجلد والتصبر وهي ترى

نَفسها، وهي تغتصب، ولا تفعل شيئًا، فلم يكن أمامها بد من الصراخ الذي رن في المنزل، فما كان منه إلا أن لطمها على خدها لطمة شنيعة اصطكت لها أسنانها واحمر خَدها، وانقض عليها كالسبع يشد قَميصها من ناحية الصدر بيده اليمنى فيمزقه ويتدلى ثدياها ينفرطان أمامه فتبرق عيناه من جَمالهما، وهوى بفمه ليلثمهما فهوت على رأسه عصا من خلفه في ضربة قوية شجت رأسه فسال الدم، فوضع يده على رأسه والتفت واقعا على الأرض ويده على رأسه لينظر من ضربه فيجد والده واقفا وعصاه مازالت مرفوعة في وضع الضرب، وقد انتفخت أوداجه، واضطرب واضطرم، واحتد واحتدم، وعيناه في رأسه تذرانه، قد التهبت جمرة الغيظ في صدره، ونطقت ترجمة الغضب عن عينه، يبرق ويرعد في رياح عاصفة تَجتاح كل ما يُقابلها، لا تبقي ولا تذر، فازداد رعب سلامة، وتراجع بظهره للخلف، وهو ينظر لوالده تارة ولزوجته سَكينة الواقفة وهي ممسكة بيد ابنهما سلطان تارة أخرى، وهي ترمقه بنظرات الاحتقار والازدراء، فيدور بعينيه في لحظات مُتتابعة على والده وعليها حتى استقرت عيناه على يد والده وهي مرفوعة بالعصا لتخر فوق رأسه، ويسحب يده ينظر إليها فَيرى الدماء، بينما ليلى تبكي وتلتف بملاءة السرير تحوط بها جسدها العاري وتجري تذرف سيولاً من الدموع على أقدام الشيخ ، فينظر إليها في شفقة ثم ينظر إليه في غضب، ويقول :

ـ أنت جزاؤك القتل يا كلب ، كيف تجرؤ على ذلك ؟! كيف تدنس أشرف منزل في الحي ؟! ومن الذي يدنسه؟ أنت !! أنت يا سلامة الحافظ لكتاب الله ومُحفظه ومؤذن الجامع، أنت المصلي الراكع الساجد التالي لكتاب الله تفعل هذه الفعلة الشنيعة وتحاول اغتصاب بنت بريئة، وأين؟! في منزل الشيخ الشهاوي، المنزل الطَاهر المنزه عن الأرجاس والأدناس منذ مئات السنين منذ جدي الكَبير مروان الشهاوي

انظر حولك في كل ركن من أركانه وفي كل جنب من جنابته تلي كتاب الله صليت فيه صلوات وسجد وركع لله فيه، ذكر الله فيه، وتأتي بعد كل هذه السنين وتلوثه وتدنسه وتلهث وراء الحرام ؟!

لقد صعقت اليوم، ليتني لم أعش حتى أرى هذا الفعل منك أنت يا شيخ سلامة، لقد هويت من نظري كمن خر من السماء فتهوي به الريح في مكان سحيق أو تَخطفه الطير.

ماذا أقول للناس غدًا؟ ماذا أقول لهم عن ابن الشيخ الشهاوي مدعي الخير والصلاح؟

أأقول لهم كشف عن طويته المَعلولة، وقلب نغل وصدر دغل ونيته الخبيثة وطويته الفاسدة ؟! لقد فضحتني، وفضحت اسم عائلة الشهاوي الذي ظل طاهرًا شريفًا مهابًا لدى الجميع، لقد أثبت منصور أنه أفضل منك، وأحسن يحمل طوية حسنة، ولكن

تصرفه سيئ، بداخله إنسان نظيف أراد التغيير والاستقامة وبدأ يُغير من نفسه، وأنت متدثر بثياب الدين والصلاح والطاعة وبداخلك شيطان مَريد كشف عن نفسه أخيرًا لم يعد لك أهمية لدي ، اخرج من داري مَطرودًا، عليك لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين إلى يوم الدين .

طفقت ليلى تقبل في قدم الشيخ الشهاوي ودموعها أمواج عاتية متلاطمة وقالت بصوت مبحوح بعدما رفعت نظرها نحو الشيخ الشهاوي تترجاه :

ـ لا ،لا يا شيخنا، لا تطرده، أنا من سيخرج من هذه الدار، وليس هو، إنه ابنك وسيظل ابنك مهما عمل.

صاح الشيخ الشهاوي:

- ليس من أهلي وليس ابني إنه عمل غير صالح
- أنا من سَيخرج من هذه الجنة يا مولانا، وليس هو ، لن أكون سببًا في التفريق بينكما أبدًا .
- أنت ليس لك ذنب، أنت إنسانة طاهرة بريئة، لم تَغويه ولم تضليه ولم تستهويه وتنتهزي الفرص، إنما الذي أغواه نفسه السيئة، وشيطانه الخبيث ولن أبقي في مَنزلي الطاهر الذي تغشاه الملائكة بالليل والنهار لن أترك فيه شيطانًا ملعونًا مثل هذا .

ويشفنه في غضب ومقت ويبادله سلامة نظرات المقت والبغض وهو يجز على أسنانه مثيرًا نيران الغضب من داخله ، ويده على رأسه يكتم الدم الذي لطخ يديه، ينظر لعصا الشيخ التي مازالت مرفوعة فوق رأسه بينما تهتز يد الشيخ بها ، وهو يحد النظر فيه في غضب شديد، يهز رأسه وينزلها في تردد ودموعه تتسل من بين مآقيه، يتحرك نحو كرسي في جانب من الغرفة يجلس عليه، بينما سكينة تحتضن ابنها مخفية رأسه عن والده كي لا ينغرس هذا المشهد في باله ودموعها تنثال على خديها كنافورة مياه، تضطرب رأسها يمنة ويسرة ، وتقول قبل أن تهرول مسرعة من الحجرة:

ـ أنا لن أظل زوجتك بعد اليوم لحظة واحدة سَتطلقني قبل أن تخرج من هذا المنزل ، يا أقذر من رأت عيني .

وتهوزل في خُطاها خارجة ،وفي يدها سلطان ، بينما الشيخ الشهاوي يشفنه في احتقار وازدراء يقول له:

ـ قم، اخرج من بيتي يا ملعون، ليس للأقذار الأوساخ الأنجاس مَكان في هذا المنزل الطاهر الشريف، قم ولا أراك بعد اليوم، وابنك أنا سَأربيه ما بقي من عمري على الخير والصلاح سَأحاول أن أمحو صورة والده القذرة التي رأها اليوم، سَيكون هو خليفتي من بعدي وليس أنت .

تزحف ليلى على ذِراعيها، ورجليها حتى رجلي الشيخ الشهاوي، وتنام على قدميه تقبلهما ثم ترفع رأسها وتقول :

ـ أرجوك ياامولانا، لا تَطرده من هنا حتى لا يضيع ، لقد سامحته وغفرت له وإن شاء اللّه سيغفر له اللّه، وأنت اغفر له وسامحه واعف عنه

يهز الشيخ الشهاوي رأسه حسرة واندهاشًا ثم يقول:

ـ انظر إلى ليلى البريئة لقد غَفرت لك وسامحتك ، وتطلب مني أن أسامحك ، ولكني لن أسامحك ، ولن أتركك مَعي تحت سقف واحد

تشرأب برأسها تقبل يديه وهي تقول:

ـ أرجوك يا مولانا لا تطرده، أنا من سيخرج من هنا ، وليس هو ، هو ابنك خليفتك من بعدك ، حامل لواءك ، اغفر له ما سلف، أنا من سيخرج ، وعاجلاً أو آجلاً كنت سأخرج من هنا إذا تزوجت.

انتبه الشيخ الشهاوي لكلامها ونظر إليها مُبتمسا وقال :

ـ لابد أن تَتزوجي يا ليلى، وجاء أوان ذلك، أنا قد كبرت ، وأيامي مَعدودة أنا أشعر بذلك، وشعور وأحاسيس آل الشهاوي الصالحين في الغالب تتحقق لذلك أريد أن أطمئن عَليك في ظل

رجل صالح يَحفظك ، ويرعاك، ويحميك من الذئاب البشرية اللاهثين المَاجنين مثل هذا الذئب الذي لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، المقصر سباله، المطيل يده على خلق الله ، وقد جاءني رجل صالح ذو خُلق رفيع يخطبك يبغي الزواج بك ، في الحقيقة هناك اثنان تَقدما من أجل خطبتك، ولكني أرجح الثاني الأستاذ نَجيب المحاسب في دكان يعقوب، رجل صالح ومشهود له بالصلاح والخير والطاعة من قديم، أما الآخر فَمعروف عنه انحرافه وشذوذه وضلاله وإن كان بدأ يعدل من نفسه لكني لا أضمن أن يثبت على ما سار عليه مُؤخرًا، ربما ينتكس ، وتطمس بصيرته، ويعود إلى ما كان .

لذلك أنا أرجح لك الأستاذ نجيب ، فما رأيك يا ابنتي ؟

من ناحيتي أنا لا أريد أن تُفارقيني طرفة عين، أريدك بِجواري حتى مماتي ولكن بعد ما حصل الآن يجب أن نعجل بذلك، فالذئاب حولك من كل مكان يتربصون بك، وأولهم هذا الخنزير، وأنا لا آمن رد فعل الخنزير الآخر منصور لما يعلم بِرفضه ، لذلك لنعجل بزواجك من الأستاذ نجيب، رجل خير لن تَجدي أفضل منه إن شاء الله، وأبوه كان رجلاً صالحًا .

فما رأيك ؟

سكتت، ونظرت عن عينين مشرقتين بالدموع ثم قالت :

- افعل ما تراه صالحاً، ومُناسبًا يا مولانا .

- زواجك الآن أفضل شيء يا ليلى، أريد أن أطمئن عليك، لا أريد أن أتركك لكلاب السكك، وذئاب الطرق، أريد أن تخرجي من هنا على بيت زوج صالح مثل نجيب، وإن شاء اللّه ربنا سيسعدك معه، وستكونين قريبة مني، وأكون قريب مِنك، تأتين لزيارتي وآتي لزيارتك، ولا تبتعدين عني فما رأيك ؟

أريد منك جوابًا صريحًا مُريحًا

نظرت إليه ، وقد وجدت أن هذا أسلم حل لخروجها من هذا المنزل، حتى لا تسوء العلاقة بين سلامة ووالده، وحتى لا يَفقده ويظل معه، وجدت أن أسلم حل لذلك أن تخرج من المنزل، وهي مُتزوجة تكون في عصمة رجل يحميها، وفي نفس الوقت تكون قريبة من الشيخ ، فقالت بكل ثقة وحماس :

- أنا موافقة يا شيخنا، وقبلت بالأستاذ نجيب

- الحمد للّه، والأفضل أن نسرع بهذا الزواج السعيد إن شاء اللّه

مازال سلامة راقدًا على جنبه ويده على رأسه سامعا لذلك الحوار، ناظرًا إليهما، وقد شعر بخيبة وخزي وعار وشنار وفضيحة أمام والده وزوجته وابنه ، وربما عن قريب أمام الحي كله .

افتضح دون أن يفز بشيء مما أراده ، قد أضاع ليلى منه ، وساعد بفعلته في إسراع والده بزواجها من نجيب الذي كاد يطير من الفرحة، وهو جالس بجوارها في سيارة مرسيدس حمراء من سيارات عزام الشماس ، يقودها «أنور» أحد أهم رجال الشماس، في طريقهم إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل .

كان سعيدًا يغمره فرح عميق اجتاز كل الحدود، وعلا كل الطوابق، أسف النظر إليها، وابتسامة مُنفجرة في وجهه، فازداد حسنا على حسن

ولكنها كانت تحد النظر أمامها، واجمة ساهمة كأنها في عالم آخر، غائبة عنه بروحها، وإن كان جَسدها بجواره في فستان أبيض أنيق، كانت تفكر في أشياء كثيرة، قد تداخلت في عقلها .

كانت تَختلس النظر من طرف عينيها إليه، فتراه مازال مُحدقًا لها، حتى أشفقت عليه فَبادلته بعض النظرات المختلطة بابتسامة رقراقة تبلل شفتيها وتلين خَديها وتطري جبينها، فيهيم عِشقًا في وجهها الندي ذي الغمازتين المليحتين .

فلم يشعر بالوقت وقد انفلت من بين أيديهم في تلك السيارة الفخمة التي وقفت بهما أمام عمارة أنيقة ذات طابع تُراثي من أربعة أدوار في حي سان ستيفانو ترجل السائق، وفتح الباب لليلى التي نزلت ، وهي تنظر إلى العمارة الفخمة وهي مندهشة، وقلبها

مُضطرب ، بينما نجيب نزل بمفرده، وهو لا ينظر إلا إلى ليلى لا يَهمه أي شيء حوله أكثر ما يهمه ليلى وجمال ليلى .

وقف بجوارها يَنظر إليها تارة، وإلى العمارة التي يكتنفها الظلام تارة أخرى ، أمسك بيده اليمنى يدها اليسرى وسارا خلف قائد السيارة الذي يقودهما مرة أخرى إلى شَقتهما في الطابق الرابع والأخير .

يفتح لهما باب الشقة الذهبي ، ويتنحى جانبًا ليدخلا ، فيدخلان ويده اليمنى قابضة على يدها اليسرى ، فيفاجآ بما وجداه في الصالة في وجهيهما .

وجدا يعقوب الجواهرجي وعزام الشماس جالسين على كرسيين أنيقين يدخنان سيجارهما، وحولهما أربعة من الرجال الغلاظ الذين لا يتحرك عزام حركة من دونهم .

وبسرعة دخل من كان يقود لهما السيارة، يدخل خلفهما ويغلق باب الشقة، وألصق ظهره بباب الشقة مربعًا بين يديه على صدره غشيت دهشة عارمة قلبي نجيب وليلى، وسكنت بين ضلوعهما، لا يدريان بحقيقة الأمر، فقال نجيب مندهشًا :

ـ ما الأمر يا يعقوب باشا ؟ ومن هؤلاء ؟

يطفئ عزام الشماس سيجاره في الطفاية التي أمامه ، وينزل رجله اليمنى من على اليسرى، ويقف وهو منبهر بجمال ليلى ينظر إليها، وهو يحرك قدميه نحوها قد سلبه جمالها لبه، قد ملك حسنها عينيه فانتشاها قلبه، وارتاحت لها نفسه، تكاد عيناه تأكلها، وقلبه يَشربها، يدور حولها ليتأمل في هذا الجمال الصارخ، وفي هذه الأنوثة الرحيبة، فتزداد دهشة نجيب ، ويقول وقد بدا الغضب يلوح في جبهته:

- ما الأمر ؟ ومن هذا؟ من هذا يا يعقوب باشا ؟ ما الأمر؟ أنا لا أفهم شيئًا

قطع عزام صمته، وذهوله بجمالها، وقال وهو واقف خلفها وهي مندهشة تنظر يمينًا ويسارًا لا تفهم شيئًا، قال :

- ستعرف كل شيء الآن

التفت إليه نجيب غاضبًا وصاح به :

- ماذا أفهم ؟

ورأى يد عزام تمتد إلى بعض خُصيلات شعر ليلى البارزة فقال له وهو يمد يده نحوه ليبعدها عنها:

- ماذا تفعل ؟

- اقترب منه اثنان من رجاله، أحاطا به، نظر إليهما نجيب ،

وقد بدأ الخوف يدب في قلبه فقال :

- ما الأمر ؟ ماذا تريدون ؟ ماذا يحدث يا يعقوب باشا ؟

قطع يَعقوب صمته الطويل ووقف وهو يقول :

- الأمر في يد عزام باشا .

وهنا انطلق صوت عزام موجها لنجيب بينما عيناه موجهة لجسد ووجه ليلى يتفصحها جزءًا جزءًا فقال :

- طلقها

التفت نجيب وليلى ينظران إليه مندهشين، سبقته ليلى في الكلام وقالت :

- ماذا تقول ؟ أنا لا أريد أن أطلق

- ليس الأمر بيدك ولا بيده ولا بإرادتك ولا بإرادته ، إنها النهاية، إما أن يطلقك الآن أو يذبح أمام عينيك

ذعرا من كلامه، وابتلعا رِيقهما وغارت عيونهما ، فقال نجيب:

- وأنا لن أطلق

نظر إليه عزام وهو مُبتسم وأشار لرجاله بهزة رأسه ، فأمسك الاثنان اللذان أحاطا به يديه بقوة، ولجماه ، وقيدا حركته بأيديهما ، وجاء ثالث وهو جلال أقربهم لقلب عزام، جاء من خلفه في يده سيف متوسط الطول عريض الصفحة، ووضعه على

رقبته في حالة من الترقب والذهول ، تفهقت عينا ليلى، وذعرت وارتعش جَسدها، وارتجفت كل شعرة بها، فنظرت إلى نجيب في شفقة وعطف وقالت:

- طلقتني يا نجيب، طلقني وانج بنفسك

قال نجيب وهو مشلول الحراك والسيف على رقبته :

- لا ، لن أطلقك حتى لو قتلوني .

نظرت إليه في عطف ، واقتربت منه ، ورأت دموعه تترقرق في عينيه وقالت :

- أرجوك طلقني، وانج بنفسك، أنت وراؤك إخوتك وأمك، أسرة كبيرة في رقبتك تنتظرك، طَلقني واذهب إليهم ، واحك للشيخ الشهاوي ما حصل

عبس عزام ، فاغبر وجهه وعلته قترة وظلمة وقال بصوت أجش :

- لن يحك شيئًا لأحد، انتهى الأمر، وسواء طلقك أم لم يطلقك كان مصيره هو نفس المصير ..... الذبح ، سنأخذك أرملة

ويشير بِعينه إلى جلال ماسك السيف، ويهز رأسه من أعلى لأسفل بالموافقة فيضغط جلال بسيفه على رقبته، ويحركه من اليسار إلى اليمين ، فينقطع حلقومه ويفور الدم كنافورة من

الدماء تتناثر على الواقفين، فتطلق ليلى صرخة مدوية ترتج لها أركان العمارة ، ويتردد صداها بين جنباتها :

ـ لاا

●●●

(٦)

وجد عزام الشماس في ليلى ثورة طائلة ، وكنزًا ثمينًا سيجني من ورائه كثيًرا ويرتقي به درجات عليا، ومراتب قيمة ، لم يتركها في القاهرة ليلة واحدة اقتادها رجاله ملثمة مغمى عليه قد غيبت عن الوعي، فلم تفق إلا في الغرفة رقم " ٧ " في الطابق الثاني من سرايا الشماس .

وجدت نفسها مازالت بفستان عُرسها الأبيض مع أنها لا تعرف كم من الوقت غابت عن الوعي، ربما يومًا أو يومين لا تدري ، ولكنها شكت لما رأت فستانها الأبيض مازال عليها أنها ربما غابت عن الوعي ساعات معدودة ولكنها لم تتيقن من ذلك .

وما آثار شكها أكثر وجود بعض التعديلات في مكياجها، بزيادة بعض الألوان المُثيرة كالأصفر والأحمر، لم تكن عليها ليلة عرسها، وقفت تتأمل الغرفة، تدور بِبصرها هنا وهناك، اندهشت من باب جانبي داخل الغرفة ربما باب حمام أو باب غرفة أخرى موصلة إليها .

وقفت تنظر وكأنها تسمع صوتًا خلف هذا الباب، ثم زادت دهشتها بفتح هذا الباب، وخروج رجل مَلامحه غربية، بشعر أصفر وعيون خضراء، لا تدل ملامحه على أنه عربي، عليه روب أحمر شفاف ظهر من خلاله عضوه الذكري في قمة انتصابه، وفي

يده اليمنى كأس دهاق بالخمر، وفي يده الأخرى زجاجة شَمبانيا فرنسي درجة أولى، أفرغ الكاس في جوفه، وهو يخطر مترنحًا نحوها ، ثم يرمي الكأس على الأرض، ويضع زجاجة الخمر فوق منضدة زجاجية صغيرة في وسط الغرفة، وفرد ذِراعيه نحوها ليمسكها ولكنها هربت من بين ذراعيه، فوقف غاضبًا وقال لها :

ـ قفي مكانك وإلا ناديتهم يذبحونك مثلما فعلوا بزوجك، فأنت الليلة زوجتي

تسربلت برعب فوق رعبها، ووقفت تبتلع ريقها فمد يده ليجذبها فأمسك بفستانها فابتعدت فشده، فتمزق جزء منه، وهوت على الأرض بجوار المنضدة فهوى فوقها ولفها بذراعيه مُحاولاً تقبيلها ، ولكنها أخذت تدافعه وتزبنه بعيدًا عنها فصفعها على وجهها يمينا ويسارًا بكلتا يديه حتى احمرت خدودها وازرقت.

وشد عنها كميها فنزعهما من مكانهما، وغرزت أظافره في ذِراعيها الطريين أثناء نزع كميها حتى برزت خدوش وخموش عليهما، ثم أمسك تلابيب فُستانها بقوة بكلتا يديه ومزقها فبدا جزء من صَدرها ، فصرخت وأوغلت في الصراخ، ولكن لم يَسمعها أحد، فكانت الأصوات الصاخبة والموسيقى الفاقعة تُغطي على جميع الأصوات .

فطفقت تَدفعه وتتملص من بين ذراعيه، ولكنه كان عَنيفا فخر بفمه على صدرها واضعا لسانه بين أعلى ثدييها اللذين برزا من تمزيق الفستان، فَطفقت تبعده، وهي تنظر يمينًا ويسارًا حتى وقعت عيناها على زجاجة الخمر خلف رأسه ، فظلت تقاوم وترفع نفسها، وهو يجذبها معه إلى الأرض ولكنها لم تَستلم حتى أمسكت بزجاجة الخمر ، وهوت بها فوق رأسه، فتكسرت عليها، فَتمايل من أثر الضربة وأخذت تمد يدها نحو الزجاج المسكر حتى أمسكت برأس الزجاجة، وهذا ما كانت تريده.

أمسكت به وظلت تَنظر إليه وهو يترنح يضع يده على رأسه فيجد الدم فاشتاط غضبًا، وجاء ليخنقها، ولكنها لم تهمله فغرست رأس الزجاجة المهشم في رقبته فاخترقتها وسال الدم كمضخة ماء، وتقاطرت الدماء عليها ملطخة فستانها الأبيض الممزق باللون الأحمر القانئ، فدفعته من فوقها جانبًا وقامت وهي مرعوبة خائفة تَتلفت يمنة ويسرة ماذا تفعل؟

اقتربت من باب الغرفة الرئيسي، ولكنها خَافت من أن يقبض عليها، فنظرت يسرة فوجدت شباكًا مَفتوحا تتطاير من أمامه ستارة شفافة وردية اللون، فَهرعت نحو النافذة، ونظرت أسفل منها ويمينًا وشمالاً، فوجدت شجرة برتقال عن يمينها، فوقفت على حافة الشباك، وهي تنظر نحو باب الغرفة قلقة من أن يفتح،

ويقبضوا عليها ويقتلوها، ثم التفتت إلى الشجرة وألقت بنفسها عليها مع أنها أخفض من النافذة بمقدار متر تقريبًا ، ولكنه لم تأبه بذلك، وألقت بنفسها، وتعلقت بأحد أغصانها وقد أثرت أغصانها وأوارقها في جسدها، ولكنها تحملت كاتمة ألمها ووجعها، وقبضت بكلتا يديها على الغصن الذي أخذ يهتز بها، ثم ألقت بنفسها فوقعت على الأرض ثم قامت مسرعة تتلفت يمنة ويسرة كالمجنون، فرأت بعض رجال عزام الشماس واقفين أمام باب السرايا في مدخلها على بعد أمتار من شجرة البرتقال ، حيث تقف ليلى التي تورات خلف الشجرة خوفا من أن يراها أحدهم فيمسكها .

نظرت إليهم، ثم تلفتت ناحية اليسار، ومشت على أطراف أصابعها حتى وصلت للجدار، ألصقت نفسها بالجدار المحيط بالسرايا، وكان ارتفاعه مترين، فأخذت تنظر إليه تارة، وخلفها تارة أخرى، وطفقت تقفز لتمسك بحافته حتى أمسكت بها بَعد مُحاولات القفز .

وأخذت ترفع نفسها، وقد ساعدها في ذلك تصميم الجدار، فقد كان في منتصفه بروز مزخرف في شكل جمالي، فطمت بنفسها، ووضعت رجلها اليمنى عليه حتى صعدت إلى أعلى الجدار، ثم قفزت على الأرض فخرت عليها، وقد أصيبت قدمها

من القفزة، ولكنها قَامت مُسرعة تنظر حولها ثم أخذت تجري على الطريق واختفت وسط الزروع والأشجار، وهي تحث الخطي تَطفر في جريها، مُعاودة النظر إلى الخلف بين الفينة والأخرى خيفة من أن أحدًا يتبعها، أو أن أمرها قد كشف .

تريد أن تبتعد عن هذا المكان أطول مَسافة ممكنة حتى أنهكها الجري، فَجلست أسفل شجرة مورقة ضخمة لتأخذ نَفسها، وتستريح قليلاً فتشحن بطاقة جَديدة تُساعدها على الهروب من هذا المكان الموبوء، جلست ومدت رجليه تفردها، وقد آلمتها وغرقت في بكاء، ونشيج طويل حسرة على حالها ولما جرى لها من مصائب وطوام، ولكنها لم تَهنأ ببكائها فقد وجدت رجلاً في يده مصباح واقف فوق رأسها مُسلطا مصباحه في وجهها يتفحصها .

●●●

(٧)

تأثـر باسـل بقصتهـا، وأذرفـت عينـاه دمعًـا يسـيرًا علـى وجنتيـه، قـد اقعشـر قلبـه ممـا سـمع، أثـر فيـه مَوقعـه، واسـتكت مسـامعه ، وكاد قلبـه يطيـر مـن شـدة التأثـر فقـد أثـارت قِصتهـا كامـن الحـزن، والحسـرة بداخلـه، وثقلـت وطأتهـا علـى أجـزاء كيانـه كلـه ، فنظـر إليهـا، يُطمئنهـا، وقـد انخرطـت في بـكاء شـديد، وخـوف عظيـم فقـال لهـا :

ـ لا تَخـافي يـا ليلـى ، فقـد وقعـت في أيـد أمينـة، وكـي يزيـد أمنـك وطمأنينتـك سـوف أخبـر سـيف باشـا كـي يَقـف بِجـوارك ويُسـاعدك

فرفعت يدها قائلة بصوت خائف :

- لا، لا تخبره

- لا تخافي، إنه رجل طيب القلب ، ويمقت عزام الكلب هذا

- أرجوك لا تخبـر أحدًا بقصتـي وبأمـري إذا عثـروا علـي سـيذبحونني مثلمـا ذبحـوا نجيبًـا أمـام عينـي

- لن يَستطيع أن يصل إليك أحد ما دمت معي

- أرجـوك اتركنـي لحالـي، فبعـد قليـل سـيصلون هـذه العزبـة، ويجعلـوا عاليهـا سـافلها بحثًـا عنـي، أريـد أن أهـرب مـن هنـا قبـل أن يصلـوا إلـى هنـا ويعثـروا علـي .

ـ قلت لك لا تَخافي يا ليلى أنا معك، وكل أهل العزبة معك

ـ قلت لك ، أرجوك ...

وتجهش في بكاء مرير يهز القلوب الصلدة، ويذيب الحجارة الصلبة ، فرأف بحالها، وقال :

ـ أرجوك لا تبك، لا تبك

وهب واقفًا ومد يده ، وقال :

ـ قومي، تعالي معي

ـ إلى أين ؟

ـ سأجعلك في مكان آمن، بعيدًا عن العيون كي تَطمئني أكثر

حمجت في وجهه، وانفطرت شَفتاها عن نصف ابتسامة حزينة ، ومدت يدها له، فرفعها عن الأرض، وأخرج من دُولابه مِعطفًا ثقيلاً تلحفت به، وخرج يتحسس الطريق، وعندما ظن أن الطريق خال، لا يُوجد فيه شيء أشار إليها بِيده أن تتبعه ، ولكنه لم يَشعر بأن هناك من كان يتجسس عليه .

ليست هذه هي المرة الأولى التي يَتجسس فيها هذا الرجل المُلثم على باسل فهو يَضمر حقدًا دفينًا، ومقتًا غريبًا لباسل منذ أن أتى القرية، واحتل مكانه وأصبح من المُقربين لدى الباشا، فأجلسه مكانه، ووهبه عمله، وطرده الباشا شر طردة لما تفشت

سرقاته، وبانت للعيان ، وكثر فَساده وظلمه لأهل العزبة، فَحلت عليه اللعنات من العزبة كلها، وأولهم الباشا الذي لا يحب الظلم، ولا يَرضى أن يظلم أحد في ملكه، فزبنه ولفظه كما مجه أهل العزبة الذين أحبوا باسلا لما ظهر من حسن أخلاقه، وطيب نفسه، وحسن تعامله مع الآخرين ومقته للظلم والباطل ، فَفاز بقلوبهم وامتلكها حتى اعتلى مكانة كبيرة في صُدروهم .

وعلى النَقيض تمامًا كان هذا الرجل الداكن اللون المسمى " مصطفى إسماعيل " .

فَكان في عمله سيئًا ظالمًا قاهرًا للفلاحين الغلابة، يمتص أجورهم، ويبخس حقوقهم، حتى كشف أمره إلى الباشا فطرده من حماه، وقوبل بعد طرده بالاحتقار والازدراء والنَظرات الشزراء التي كانت تُلاحقه في كل مكان كلعنة أصابت صاحبها ، قاطعه الجميع ، وهَجروه ولم يعد يُكلمه أحد، فشعر كأنه رجل أجرب أو مجذوم يتحاشاه الجميع ويفرون منه كما يفرون من الأسود والسباع، فطفح بالضعف والذل والهوان والفقر بعدما سلب منه كل ما يملك ، ولم يعد لديه شيء يَخاف عليه ، فقرر الانتقام من الجَميع، وبدأ بمن سحله وسحفه عن مكانه ومكانته باسل .

فأنشأ يتجسس، ويتلصص عليه أينما سار أو حل ، رُبما يعثر على شيء يدينه أو يَفضحه ويخزيه أمام الباشا والفلاحين

وقاطني العزبة، أو يسرق أوراق مُهمة من بيته تخص عمله في إدارة العزبة، وهو ما عزم عليه تلك الليلة .

ذهب لبيته على ظن منِه أنه لن يجده في هذا الوقت الذي غالبًا لا يكون في بيته ، ولكنه فُوجئ به يخرج يتحسس المكان ينظر حوله في كل الأرجاء ، فتوارى مسرعًا وراء شجرة على بعد سبعة أمتار من بيته، وظل يحدج البيت بناظريه فرأى الفتاة تخرج مُتدثرة بمعطف ذكوري، يتبعثر منها الخوف في كل ركن ، تتلفت حولها، وعندما نَظرت خلفها رأى وجهها بوضوح ، فانتفض من داخله لما رأى امرأة حَسناء بهية الطلعة ، حسنة المنظر، فيبتسم ابتسامة مُلطخة بالمكر طافحة بالخبث والغدر، ثم قال لنفسه :

ـ هذا أول مسمار في نَعشك يا باسل يا ابن الكلب، عندما يعلم أهل العزبة وأولهم الباشا بما رأيت، سيكون مَوقفك سيء للغاية، ستطرد وتلعن كما لعنت، لم أكن أتوقع أن تكون بِهذه القذارة والوساخة ، آه لو يعلم أهل العزبة أن باسل الشريف التقي الخجول يزني ويَرتكب الفحشاء في بيته، ولن تستيطع أن تنكر ذلك أيها النجس، ولكن من هذه الفتاة المغطاة بِمعطفه؟ وجهها ليس من وجوه هذه المنطقة، إنها ليست من هذه العزبة، ولا من العزب المُجاورة، فأنا أعلم المنطقة كلها، فمن تكون هذه الفتاة إذن؟! وكيف عثر عليها ؟ وأين يذهب بها؟ هذه الأسئلة لن تَفيدني، الآن

يجب أن أدخل بيته ، وأبحث عن أي شيء آخر يُثبت عليه التهمة، ويجعله تحت قدمي

ويدخل بيته يقلب بصره في أرجائه، يدخله حجرة حجرة إلى أن يدخل الغرفة التي كانت فيها الفتاة، فيدور ببصره ويُقلبه في كل ناحية منها حتى يرى ثيابًا بيضاء قد لطخت بالدماء والأوساخ، وكأنه فستان زفاف لم تتضح معالمه بعد وجده في ركن من الغرفة على الأرض يُمسكه ويرفعه عند ناظريه ويبتسم ابتسامة صماء ملفوفة بأكوام من المكر والخيانة ثم يقول :

ـ هذا هو الدليل، إذن لن يُكذبني أحد، ولن يستطيع هو أن ينكر ذلك و...

لم يتم كلامه فقد ترامي إلى أذنيه صوت المُؤذن يعلو معلنا عن صلاة الفجر فهرول مسرعًا ليخرج من البيت كي لا يراه أحد فيتهم بالسرقة أو شيء آخر وعندما اقترب من الباب سمع قرعًا على الباب وصوتًا يُنادي :

ـ يا أستاذ باسل ، يا أستاذ باسل ، قم ، صلاة الفجر

فثبت في مكانه لا يهمس ولا يتنفس إلا ببطء، ثم توقف القرع والدق على الباب ، وتلاشى الصوت، فأحس براحة قليلاً ، ثم خطا نحو الباب في ترقب وفتحه في خوف وخَشية ونظر فلم ير أحدًا ، فهرع مُسرعًا يختفي عن هذا المكان .

كان قـرع البـاب وصـوت المنـادي هـو الـذي اعتـاد عليـه باسـل كل ليلـة مـن أحـد الفَلاحـين الأجريـة مـن أصدقائـه وهـو " برشـلي " الـذي اندهـش مـن عـدم وجـود باسـل بـين المُصلـين لصـلاة الفجـر في جامـع العزبـة الوحيـد، فـكان دائمًـا مـا يكـون في الصـف الأول ، فأخـذ يتصفـح وجـوه المصلـين عـن يمينـه ويسـاره وخلفـه وفي أركان الجامـع ، فلـم يجـد لـه أثـرًا ، فـزاد خوفـه وقلقـه عليـه ، فذهـب ليطمئـن عليـه، ويعـرف حالـه، قـرع البـاب بقـوة ونـادى عليـه :

- يا أستاذ باسل، يا أستاذ باسل، ياسيادة الناظر

فلـم يلـق جوابًـا أو ردًا ، فتـح البـاب، ودخـل ينظـر هنـا وهنـاك فلـم يجـده، فأخـذ ينـادي باسـمه رافعًـا صوتـه يتفحـص غـرف البيـت وأركانـه فلـم يجـده، فغشـاه خـوف لا يـريم وقلـق واضطـراب، فخـرج مـن البيـت وهـو مندهـش مذهـول واجـم الوجـه مُضطـرب الفـؤاد يقـول لنفسـه :

- أين ذهب باسل ؟

●●●

(٨)

لـم تكـن عزبـة الشـماس ومـا حولهـا مـن مَناطـق وحدهـا هـي التـي اكتـوت باختفـاء ليلـى، ففـي القاهـرة في شـارع الشـيخ قامـت الدنيـا ولـم تقعـد، أربعـة أيـام مـرت ولا يعلـم أحـد مـكان اختفائهـا هـي وزوجهـا، أقيمـت لهمـا المحـازن والمـآتم لا يَـدرون هـل مازالـوا علـى قيـد الحيـاة أم ماتـوا ؟

وكان مـن أوائـل المصابـين أسـرة نجيـب إخوتـه وأخواتـه وأمـه الثكلـى التـي لا تـدري أيـن اختفـى ولدهـا البكـر هـو وزوجتـه ليلـى التـي افتقدهـا الشـيخ الشـهاوي وقلـب الدنيـا عليهـا وذَهـب بنفسـه الكريمـة لمقابلـة مسـاعد وزيـر الداخليـة الـذي أعطـى أوامـره بسـرعة الكشـف عـن اختفـاء العَروسـين ليلـى وزوجهـا، وبيـان مـا إذا كانـوا حَيـين أم ميتـين؟ وإذا ماتـا فأيـن جثتاهمـا؟

وبأقصـى سـرعة تحركـت قـوات مـن المباحـث فرقـة تَفشـت وانتشـرت في شـارع الشـيخ والحـي كلـه ومـا حولـه مـن أحيـاء ، وأخـرى كان مسـارها الإسـكندرية حيـث العمـارة التـي شـهدت الواقعـة ، والتـي أدلـى يَعقـوب بمكانهـا لمـا تـم التحقيـق معـه ، وذكـر أن آخـر مـرة رآهمـا في القاهـرة في الفنـدق الـذي أقيمـت فيـه حفلـة الزفـاف، وبعـد ذلـك قَادهمـا إلـى العمـارة في الإسـكندرية السـائق الـذي اختفـى هـو الآخـر، فَشـمله البحـث أيضًـا، فصـاروا ثلاثـة تحـت نطـاق البحـث والكشـف عـن مَكانهـم نجيـب وليلـى والسـائق .

استجوب فريق البحث جميع سُكان الشارع، والشوارع المحيطة به، من هؤلاء الذين تم استجوابهم: منصور الذي لا يُصدق حتى هذه اللحظة أنها اختفت وتلاشت من أمام عينيه، ولن يراها بعد الآن، كانت الدموع تجوب عينيه ذاهبة وآيبة، وقد وجه إليه اتهام بأنه قد يكون وراء اختفائهما لرفضها الزواج به، فَعاقبها هي وزوجها وانتقم منهما بأن تسبب باختفائهما إما بالقتل أو بإخفائهما في مكان ما .

وظَل ثلاثة أيام في هيئات التحقيق ، يتم استجوابه حتى ثبت عدم تورطه بالأمر، لوجوده مع أصحابه أصحاب السوء ليلتها لم يُغادر الشارع ، فقد رجع لمعاقرة الخمر، واشتفاف الحشيش ليلة دخلتها ، وانتكس أمره، وعاد أشرس وأفظع مما كان ، وزادت حالته سوءًا وتدهور أمره، ورجع أسوأ وأخنع مما كان بعد اختفائها واختفاء زوجها .

لَحقته روعة ، وملكته لوعة، وجد في نفسه ألما مِما مسه من اختفائها، فأقذى سَواد طرفه، شاهد الظُلمة في مطلع الشمس، قد استنفد القلق لحزنه ما أعده الصبر من ذخيرة، طفق يتقلب على حد السيف إلى أن يعرف حَقيقة اختفائها وانكشاف أمرها .

فغرق في لجة التفكير والوساوس، وانجرف بعيدًا في غياهب الضلال والسكر والعربدة، يَظن أن هناك سرًا وراء اختفاء ليلى وهذا السر عند يَعقوب وحده، ويجب أن يعرفه .

كان يعقوب هو الذي يتعرض له في طريقها كل مرة ، وزوجها من دكانه أحد رجاله وعملائه، وغَالبًا تزوجها بإذن منه إن لم يكن هو المخطط لذلك كي يَنالها ويستحوذ عليها، فإن نَجيب رفض الزواج نهائيًا حتى يُزوج إخوته وأخواته كلهم، فقد كان مكرسًا حياته لهم، فلماذا في هذا التوقيت بالذات يتقدم لها، بعد أن تقدم والدي للشيخ الشهاوي ليخطبها لي بَعدها مُباشرة في يوم واحد.

ظل مَنصور يُفكر يتقلب على مِهاد الفكر والوساوس والهَواجس، يتململ على قتاد الأرق والقلق، يُفكر في أمر ليلى واختفائها المُفاجيء في ليلة زفافها هي وزوجها، فَهب مُنتصبًا وعيناه تثور بالغضب وتتقد نِيرانًا وقال بصوت حاد:

ـ هناك سر، وهذا السر عِند يعقوب ولابد أن أعرفه حَتى ولو قَطعت رقبته ، فلن يهنأ لي بَال حتى أعرف الحقيقة .

●●●

(٩)

ما هو إلا وقت قَصير يمر إلا وجُنود الاحتلال يدعمهم رجال الشماس يطوقون عزبة سيف باشا محيطين بها من كل جانب بمدرعاتهم، وأسلحتهم وعتادهم كأنها كتيبة حربية، يبثون الذعر، والرعب في قُلوب أهلها، ويقتحمون سرايا " سيف باشا " في عدد كبير من رجالهم، حولهم أهل العزبة الذين هَرعوا من بُيوتهم وديارهم مُخرجين منها عنوة يقادون حتى السرايا ليعلم الجميع خُطورة الأمر دَفعة واحدة، وليروا ماذا سيفعل بكبيرهم فيطفو الرعب والفزع في قُلبوهم فتخر سرائرهم وتتكشف أسرارهم لو كان أحد يعلم شيئا عن ليلى .

خرج إليهم سيف باشا صارخًا فيهم :

ـ ماذا تُريدون من عزبتي ؟

شق قائد الفرقة طريقه بين صفوف رجاله حتى ارتقى درجات سلم السرايا حيث يقف سيف باشا، وقد امتلأت حديقة السرايا بأهل العزبة المنشرين في كل مَكان حتى علوا أسوارها، وهم في حالة من الذهول والرعب يُرثى لها وقفوا واجمين بينهم " مصطفى " الواقف يَترقب في شماتة ما سيحدث، ينظر مع من يَنظر لقائد تلك الكتيبة من القوات البريطانية ، ومعه رجال الشماس وهو يقف أمام سيف باشا يَنظر إليه ثم يقول:

- جئنا نَبحث عن فتاة قاتلة، هربت من عزبة الشماس باشا، نحن نمشط المنطقة كلها، لا ندع مكانًا إلا ونقتحمه

- كيف تَدخلون عزبتي وسرايتي بهذه الهمجية ؟ ألم تعلموا أن هذه عزبة سيف الدين باشا الوزير السابق

- هذه أوامر يا باشا

- أوامر ممن ؟

- هذه أوامر عليا ، ومَعاليك لن يستطيع منعها أو وقفها

يصيح سيف باشا ثائرًا:

- سأتصل برئيس الوزراء حالاً

فيقول الآخر ببرود شديد:

- حتى لو اتصلت بِملك البلاد شخصيًا، فلن يفعل لك شيئا، قلت لمعاليك هذه أوامر عُليا من الحاكم الفعلي للبلاد .

يلتزم سيف باشا الصمت، وقد داخله غَضب مشوب بِخوف ملأ عينيه، ينظر إليهم نظرات خوف ومقت

فيلتفت القائد لفريقه ويقول :

- فتشوا كل شبر في العزبة حتى سرايا الباشا، الآن ، هيا بسرعة

يتفرق عدد كبير منهم ، ويدخل عدد منهم السرايا أمام أعين الباشا دون أن ينطق بكلمة واحدة، يراهم يَدخلون يقتحمون حرمة بيته أمام عينيه، ولا ينبس بحرف واحد، يَنظر للقائد الإنجليزي وهو يُعطي لأحد رجاله صورة الفتاة ليعرضها أمام أعين أهل العزبة الواقفين صامتين، وهو يقول في نفس الوقت الذي تُعرض فيه الصورة أمام عيونهم يقول :

ـ هذه صورة لفتاة هَاربة قتلت جنرالا إنجليزيا في قصر عزام الشماس ليلة أمس، كانت مرتدية فُستان زفاف أبيض، من يعرف مَكانها أو يستطيع أن يدلي بِمعلومات عن مكانها أو عمن يُخفيها سيحصل على مُكافأة كبيرة قيمتها ألف جنيه، ومن يَتستر عليها أو يُخفي معالمها ويضللنا عن معرفتها سيكون مُشاركًا في الجريمة وسينال نفس عقابها

تتفهق عيونهم خوفًا لما سمعوا عقاب من يخفي مكانها أو معلومات عنها، وتَمتكها الفرحة بخبر المكافأة الكبيرة لمن يدلي بأخبار عنها.

توغل الكلام في جَسد مصطفى، واحتفت الفرحة الغامرة وجهه، وهو يسمع هذا الكلام بينما ينظر للصورة التي تعرض أمامه، وكأنه رأى هذا الوجه ظل يُحدج في الصورة ، وجاء في باله مباشرة الفتاة التي رأها تخرج مع باسل من بيته في جنح الليل، وقد أخفيت بعض مَلامحها، فشعر بالظفر والفوز العظيم ،

وجَدها فرصة لن تتكرر كي ينتقم من باسل حتى لو لم تكن هي الفتاة التي يَبحثون عنها، ستحدث شوشرة ودوشة وضجة حول باسل وربما تَكون هي، وهذا ما غلب على ظنه.

فأمسك بيده الصورة من العسكري، وطفق يُحدق فيها ، ينظر إليه القائد وهو مُندهش يَستكشفه، فيرى وجهه مُتهللاً ، والصورة في يَده وهو يخطو نحوه في ثَبات حتى وقف أمامه ، وهو يُحملق في الصورة يَندهش القائد ويقول له:

- هل تعرف مَكانها ؟

- نعم، أعرف مَكانها، هذه الفتاة كانت هُنا منذ ساعات قَليلة

يندهش جميع الواقفين بما فيهم سيف الدين باشا الذي طَفق يَرمق مصطفى في ترقب وانتظار .

- وأين كانت ؟

- كانت هُنا ، في دار باسل عبد الرحمن ناظر العزبة، كانت في بيته أخذها وخرج مُنذ قليل، وقد غيرت مَلابسها الممزقة وارتدت معِطفًا أسود وملابسها الممزقة عندي

ذهل الجميع ووجموا لما سَمعوا كلام مصطفى وأخذوا يَتبادلون نظرات الاندهاش والذهول إلى بَعضهم ، ويتبادلون كلمة واحدة تطفر من على ألسنتهم :

- باسل !!

فقد صعقوا مِما سمعوا، والباشا من بينهم، لا يكاد يُصدق ما يسمع، امتلأت عيونه وعيونهم بعلامات الدهشة والذهول، وكأنهم لا يُصدقون ما يسمعون وهم يُتابعون هذا الموقف وقد أحدثوا ضَجة وجلبة شديدة فصاح بهم القائد :

ـ ليصمت الجميع ولتهدأوا جميعًا وإلا قبضت عليكم كلكم

ثم التفت إلى مصطفى مرة أخرى وقال :

ـ هذه الملابس نُريدها الآن، ونريد أن نعرف بيت باسل حالاً .

ـ الملابس عندي في بيتي، هيا نَذهب لآتيكم بها، وأدلكم على مَنزل باسل وشريكته .

يقول ذلك في تَشف وشماتة وهو ينظر إلى الباشا الذي طرده، ينظر إليه الباشا في غَضب واحتقار ثم يقول له :

ـ ستظل خائنًا طول عمرك يا مصطفى ، أكبر خطأ ارتكبته في حياتي أني تركتك دُون مُحاسبة ودون سجنك

ابتسم مصطفى ابتسامة شامت مَغرور وقال :

ـ لم يعد يُفيد هذا الكلام الآن ياباشا

ثم يلتفت لقائد القوات ويقول :

ـ هيا يا سيدي كي نُحضر الفستان، وأدلكم على مكان باسل، وتعطوني مكافأتي الألف جنيه

يسير مصطفى في حماية القوات، يَنظر لأهل العزبة الذين يأكلونه بعيونهم يريدون الفتك به جزاء خِيانته وغدره، ولكنه كان مُحتميًا في قوات الإنجليز الذين انتشروا في العزبة في كل مَكان فيها في مداخلها المختلفة وعلى أطرافها وحدودها مع العزب والقرى الأخرى، وشددوا قبضتهم عليها وتَفرقوا في كل ركن منها لما لم يجدوا باسل في بيته ، فتفرقوا ينتظرونه حتى يصل .

وكان " شوقي " أحد أصحاب بَاسل ممن يعمل تحت يديه في العزبة ، كان ينتظره في أحد مداخل العزبة من الناحية الجنوبية التي تُعتبر المدخل الرئيسي كي يُساعده على الهرب والفرار قبل أن تمسكه قوات الاحتلال، ولكن عسكرهم أحاطوا به ، ومَعهم مصطفى ينظر إليه في شماتة

يَنظر إليه باسل في غضب، قد فهم سبب ذلك، فلم يُقاومهم واستسلم لعددهم الكبير المسلح حتى أركبوه عرباتهم وانطلقت العربة تُحيطها من كل جانب مدرعاتهم وقواتهم حتى عزبة الشماس، وأنزلوه يُقاد بالسلاسل والأغلال حتى وقف بين يدي عزام الشماس الجالس واضعًا رجله اليمنى على اليسرى وسيجاره المُعتاد في يده، وخلفه مصطفى وفي يده الفُستان الممزق ، ينظر إليه عزام في غيظ ثم يَنظر للقائد ويقول له :

- شكرًا جزيلاً على جهودك الجبارة سيادة الكولونيل " جورج"

ـ هذا واجبنا يا عزام باشا، والقتيل جنرال إنجليزي، وواجبنا أن نعثر على القاتلة بِسرعة لتأخذ جزاءها حتى لا تتأزم الأمور أكثر من ذلك يا عزام باشا وأنت تعلم .

ـ لن تتأزم الأمور يا سيادة الكولونيل، وأعدك بذلك، فالأمر يَهمني مثلكم أو أكثر لأنه قُتل عندي في قصري وبين حرسي وقُواتي، سأقدم لكم القاتلة في أقرب وقت، تَفعلون بها ما تشاؤون، وباسل سَيساعدنا في ذلك ، أليس كذلك يا باسل ؟

ينظر إليه باسل في حدة ويقول :

ـ أنا لا أفهم شيئًا، عن أي شيء تَتحدث ؟

ينزل عزام رجله اليمنى ويعتدل في جِلسته وقد لفه الغضب فقال وهو يحاول أن يكظمه :

ـ أنا سأقول لك كلمتين فقط : أين ليلى ؟

ـ ليلى !! من ليلى ؟!

ينتفض عزام واقفًا وقد فار غضبه وقال هو يشير إليه بسيجاره:

ـ لا تتحاذق علي، ولا تَبث خبثك ومكرك، أنا لا أحب كثرة الكلام، واسمع جيدا ما أقوله، أنت سوف تُخبرني بمكانها طوعًا أو كرهًا، فأنت لا تدري بين مخالب من وقعت ؟

(١٠)

وقع باسل في براثن كلب ، وبين أنياب ذئب أذاقه من العذاب ألوانا ، وأصنافا قد استعرت المَلحمة في بدروم قصره المنيف ، وفي عزبته ، دون أن يدري أحد بِمكان باسل سوى الشماس وبعض رجاله حتى الإنجليز والبوليس المصري يَجهل هذا المكان المدلهم المستعر بنيران تعذيبهم لشاب مقيد في السلاسل وهو عار عن كل شيء إلا عن لباس يوراي سوأته .

مَضت ثلاث ليال ، وهو مَازال في حوزتهم بين سبعة من الرجال الغلاظ الصم البكم الذين يُنفذون أوامر سَيدهم دون نقاش أو جدال وكأن الرحمة قد انتزعت من قلوبهم، أو كأن قُلوبهم خلعت من صدروهم ووضع مكانها حجارة صماء .

لم يتبعوا معه أسلوبًا واحدًا من أساليب تَعذيبهم المستعر ، فقد أوسعوه ضربًا ومشقًا ، وطعنًا ورشقًا، وجُرحًا وزرقًا، تلظت الملحمة، وعلت الغمغمة فدارت رحى آلات التعذيب تَنهش في جسده من مقصلة الأظافر التي تنزع الأظافر من الأصابع وتقلعها قلعا فينبثق الدم كخرطوم مياه مصحوبا بآهات وصرخات باسل ترج أركان المكان بينما عزام جالس يُدخن سيجاره في برود وهو يتابع بِنفسه جلسات التعذيب المتنوعة فيها الآلات والأدوات .

جَلدوا جسده العاري بسياط لاسعة حتى أدمي جسده ، وصار جسده من كثرة الجلد أودية من الدماء تَسيل فيها على قدر استطاعتها وكميتها ، ولم يعد في رأسه شَعرة واحدة ، وباسل مازالا صامتًا صابرًا صامدًا لا يتكلم أبكم أخرس لم تَبس شفتاه بحرف واحد ، فاشتاط عزام غضبًا ، وتشيط لحمه وفارت الدماء من عَينيه فيأمر بِزيادة جرعة العذاب .

فقاموا بِتعليقه كالذبيحة ، رأسه لأسفل وقدماه لأعلى معلقتان في حبل ، ويبدأ الصعق بالعصى الكَهربائية في أجزاء جسده ، وبخاصة أعضائه التناسلية (القضيب – الخصيتين – الثديين) وقرص الثديين ، فلم يَفلح معه ذلك ، تحمل وتصبر وهو يُنازع الموت صارخًا صائحًا ، فجن جنون عزام ورجاله كيف لا يتكلم بعد كل هذا التعذيب المُهين ، فقاموا بصلبه فردوا ذِراعيه على تصميم خشبي يُعرف (بالعروسة) وربط القدمين مع فَتحهما بشدة وإبعادهما عن بَعضهما ثم صعقوه بالصدمات الكهربائية وضَربوه بالعصي وأسلاك الكهرباء .

حتى خَر مَغشيًا عليه ، ولما أفاق ابتسم لعزام ابتسامة النصر والظفر فطما غضب عزام إلى عينيه ، وارتعش جسده غيظًا ، وامتلأ حنقا عليه لا يكاد يصدق هو ومن معه أن هذا مازال على قيد الحياة بَعدما تجرع أنواعًا وأصنافًا من العذاب ، ولم

يَنطق بحرف واحد فيما يَخص ليلى، وكأنه بطل خارق لا يُؤثر فيه التعذيب، ولا الصعق، ولا الطعن، وخلع الأظافر، ولا الجلد ولا الكي ولا القرص والضرب في المناطق الحساسة، ولا التجويع ولا التعطيش، ولا أي شيء مِما اتبعوه مَعه من أساليب التعذيب المجنونة والعنيفة .

ولما استيئسوا منه تَركوه في حالة شديدة من الإعياء والمرض بعد نتف رموشه وصعقه على مَرتبة مبللة بالماء، فتركوه بضع ساعات حتى تعود إليه صِحته وعافيته من جديد فقد خشوا أن يَهلك في أيديهم وبين سياطهم فكانوا حَريصين جداً على حياته ، فحاولوا بشتى الطرق إيلامه وتَعذيبه دون أن يلقى حتفه ، ووجدوا في هذا صُعوبة أنهكتهم في تحقيق هذه الغاية حيث كان من السهل عليهم قَتله ، ولكن أوامر الشماس أن يظل حيًا حتى يَعترف بموقع ليلى ثم بعد ذلك يقتل .

●●●

(١١)

تَحركت جهود الشماس من الجانبين لسرعة الكشف عن الفتاة فَفي سعيره يصطلي باسل بِكافة أنواع العذاب والجَحيم، ومن الجانب الآخر انتشرت رجاله في العِزبة يتحسسون الأخبار بِزعامة مصطفى الذي تَولى بِنفسه مُراقبة دار باسل من بَعيد، بينما هناك آخرون يُراقبون سرايا سيف باشا ، وانتشر عدد من الجُنود برفقة بعض رجال عزام على حُدود العزبة الأربعة ، فقد طَوقت العزبة من كل جَانب .

هذا غير انتشارهم على مَقاهي العزبة ومَجالس أهلها وشَوارعها كأنه حَظر تِجوال رغمًا عن الباشا ودون رضاه وموافقته، قد عَجز أن يَفعل شيئًا أمام هذا الطاغية الذي اصطلى بِجحيمه، وكوي بِناره مُنذ سنتين تقريبًا عندما كان وزيرًا، كان دائمًا يحاول الفكاك والفرار من بين براثنه مُحاولاً تجنبه وعدم الوقوف في وَجهه ، فَدائمًا كان هُناك سربال من الخوف، ووشاحًا من الجبن يجذبه بعيدًا عن الوقوع معه في مُشكلة أخرى أو صِدام مُدمر .

ومع تِلك الصراعات التي كانت تصطلم بِداخله لم يَنس باسلا الذي يُحبه، ظل يفكر في أمر اختفائه الذي مر عليه أربعة أيام ولا يعرف أين هو؟

فكر في أن يَتقدم خطوة للأمام مُمزقًا وشاح الخوف ويسعى للكشف عن حقيقة الأمر، ويحسر عن الوضع الذي وقع فيه باسل مُحاولاً إخراجه منه، لكن وساوسه كانت تلتف حول رقبته في مُحاولة منها لخنقه بإخافته من هذا الطاغية الخائن ، لذلك ظَل رجال الشماس يرتعون في العزبة يَمينًا وشمالاً وفي كل مكان دون رادع أو مانع ، حتى شَعروا برجل غريب يدرج نحو بيت باسل، كأنه يعرف طريقه، طفق هذا الرجل الستيني واقفا أمام باب بيت باسل مُناديًا عليه بصوت أجش :

- يا أستاذ باسل، يا أستاذ باسل

ارتجت مسامع مصطفى، وهو مُتخفي خلف شَجرة يتابعه لما سمعه ينادي على باسل، فركز مَسامعه معه يتابع ماذا سيحدث فوجد رجلاً من أهل العزبة يَعرفه مُصطفى جيدًا " ماهر النجار " رأه واقفًا معه، يسأله الرجل :

- أين اختفى ؟

- أنا لا أعلم شيئًا أكثر مما قلته لك من أنه مُتغيب منذ أربعة أيام

- لقد أقلقتني، ما الأمر ؟

- بصراحة أنا لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا، وإذا كُنت تريد معرفة المزيد اذهب إلى سيف باشا سَيخبرك بكل شيء، أما أنا ....

يتلفت الرجل حواليه كالمذعور ثم يُهرول مُختفيًا من أمام أعين الرجل الذي اندهش، وبدأ الخوف يتسلل إلى جَوفه، فهرع وقلبه يجب وجيبًا نحو سرايا الباشا الذي لما رآه يَدخل عليه برفقة بواب السرايا ليدخله هش له وابتسم وقام من على كرسي الصالون المذهب، وكان غارقًا في التفكير لكن لما رآه قام إليه مُستبشرًا به وهو يقول :

- أهلا أهلا يا حاج سعيد ، تفضل

- أهلا معالي الباشا

وعندما جلس بادره بالسؤال :

- أين باسل يا معالي الباشا ؟

يجلس الباشا ، وقد بدا الحزن والحسرة على وجهه وقال :

- كيف عرفت بما حدث ؟

نما قلقله وخوفه وقال :

- أنا لا أعرف شيئًا، أخبرني أحد أهل البلد أن باسلا مُتغيب عن العزبة منذ أربعة أيام، هذا مَا أخبرت به ، ولكني أريد الآن أن أعرف كل مَا حدث بالضبط .

- حدث شَيء غريب كالكابوس فجأة من دون مُقدمات اقتحمت قوات إنجليزية متبوعة برجال عزام الشماس يقبضون على

باسل ويسلسلونه، زاعمين أنه يعرف مكان فتاة قتلت جنرالا إنجليزيا، والدنيا مَقلوبة عليها

يسرح " السعيد " بعينيه بعيدًا، ويشرد بفكره، وقد طار قَلبه بجناح الوجل وطاح روعه فرقًا فحاول أن يُخفيه فانتبه للباشا والتفت إليه وقال :

ـ وماذا حدث لباسل؟

ـ لا أعلم عنه شيئًا حتى الآن

يعتدل السعيد واقفًا ، وقد ملكه غضب واحتد واحتدم ونَسي أنه واقف أمام باشا ووزير سَابق وقال :

ـ وكيف لا تعرف عنه شيئًا، وأنت من البشوات الكبار ، وأحد الوزراء السابقين ؟! وكيف تَجعلهم يأخذونه هكذا أمام عَينيك دون أن تُحرك ساكنًا أو حتى تعرف مَكانه ؟! أهكذا تكون صيانة عشرتنا القديمة يا مَعالي الباشا، لقد أهديتك هدية ، ولكنك فرطت فيها و ..

يضطرب الباشا ويحتدم عليه قد ثار غَضبه فيصيح به :

ـ سعيد .... أنسيت نَفسك ؟! ألم تعرف من أنا ؟ كيف تُخاطبني بهذه الطريقة ؟!

يشعر سعيد بخطئه واحتداده على الباشا فيلطف قوله :

ـ أعتذر يا سعادة الباشا ، لا تؤاخذني بِما قلت ، ما حدث لباسل أفقدني السيطرة على غضبي ، ولكن هذا من حُسن ظني بك ، وللعشم والعشرة الطويلة التي بيننا .

يهدئ الباشا هو الآخر من غَضبه ويقول في لين :

ـ لا عليك يا سعيد ، لست غاضبًا منك ، أنا أيضا فقدت التحكم في أعصابي وأرجوك اعذرني ، ما حدث لباسل أحزنني جدًا ، وذكرني بحالي السابق اجلس ، اجلس يا سعيد كي نفكر بهدوء

ولم تمهلهم رجال الشماس بالجلوس ، ولم تهنئهم عليه حيث اقتحموا السرايا وفي أيديهم البواب وأسلحتهم مُشهرة ناحيتهما، فوجئ الباشا وسعيد بدخولهم فجأة عليهما ، وهالهما هيئاتهم العنيفة بالأسحلة التي في أيديهم ، فَصاح بهم الباشا :

ـ ما هذا ؟ كيف تَجرؤون على اقتحام قصري بهذا الشكل ؟

قال أحدهم وهو جلال ، ومسدسه في يده :

ـ نعتذر يا باشا

ـ مَاذا تريدون ؟

أشار بِمسدسه إلى السعيد وقال :

ـ نريد هذا

يلف الخوف السعيد وتتنابه زوابع مُرعبة مسحقة ، ويبتلع ريقه كما ابتلع الباشا ريقه والتفت إليه ثم التفت إليهم وقال بِصوت عنيف :

- لن تَستطيعوا أن تأخذوه من قصري بهذا الشكل ودون إرادتي

- أخشى يا بَاشا أننا لن نُنفذ كلامك، وسنأخذه بإرادتك أو بِدون إراداتك

- لن تَأخذوه

ويوجه كلامه للبواب :

ـ اذهب يا بَسطويسي، اجمع كل الفَلاحين يأتونني الآن بما لديهم من أسلحة

ينظر هذا المُتغطرس إلى البواب الذي في قَبضتهم ويقول لرجاله :

ـ اتركوه

فَيرفعوا أيديهم عنه فيقول له :

ـ أنت الآن حُر يا بسطويسي تستيطع أن تذهب، وتأتي بالرجال للباشا، ولكن إذا تَحركت خطوة ستموت مكانك .

يتجـرع بسطويسـي ريقـه بصعوبـة ، ويثبـت مَكانـه ينظـر إلـى الباشـا تـارة وإليهـم تـارة أخـرى مُتصفحًـا وجوههـم .

يلتفت هذا المُتغطرس للباشا ويقول :

- أرأيت يا باشـا، حتـى لـو أتـى رجـال العزبـة كُلهـم بمـا عندهـم مـن أسـحلة سـنأخذ هـذا الرجـل أيضًـا حتـى لـو فنـي رجـال العزبـة كلهـم ، وسـتكون تسـببت في مذبحـة شـنيعة لهـم .

لـم يتكلـم الباشـا ، ونظـر للسـعيد ثـم أخفـض بصـره والسـعيد ينظـر إليـه في عتـاب وشـفقة ، بينمـا يَتقـدم رجـال الشـماس يلتفـون حولـه ، ويربطـون يديـه مـن خلـف ظهـره ، وهـو لا يَجـرؤ علـى المقاومـة، قـد خَـارت قـواه أمـام هـذا الحشـد الطاغـي الـذي جـاء بِحـده وحديـده يقبضـون علـى رجـل ضعيـف قـد وهـن جسـده ، ولكـن لـم تهـن عزيمتـه، ولـم تَضعـف إرادتـه التـي نَـورت عينيـه وهـو يسـير مَعهـم مُكبـلاً بقيـوده أمـام أعـين أهـل العزبـة قليلـي الحِيلـة واهنـي العزيمـة ضُعفـاء الإرادة.

سـار مَعهـم وقـد تلاشـى الخـوف الـذي بِداخلـه ، وبـدأت قـوة غريبـة وعزيمـة عَظيمـة تجتـاح قلبـه في تلاطـم وتلاحـم وقـد زاد إصـراره ولفظـه للظلـم ومجـه للباطـل، جـر في الأغـلال والقُيـود وهـو فريسـة للأوهـام والهواجـس تلعـب برأسـه إلـى أن وجـد نفسـه واقفًـا أمـام عـزام الشـماس في غرفـة مُغلقـة عليهمـا تحيـط بهمـا رجالـه،

التفت إليه عزام والسيجار في يده وقد عبأ دخانه سماء الغرفة، نظر إله وقال:

- ما عِلاقتك بباسل ناظر عزبة سيف ؟

غاب السعيد في ملامح هذا الرجل ذي القامة المتوسطة، والشعر الناعم المنسرح أعلى جبهة عريضة أسفلها عينان لامعتان فيهما بحر عميق واسع ثم قال بعد لحظات صمت :

- من باسل هذا؟

يطفر الغَضب على يدي عزام التي أمسكت بلحيته البيضاء الخفيفة صارخًا فيه :

- لا تجعلني أهين شيبتك، وأجعلك تسف التراب ، ولا تتحاذق علي وتظهر ذكاءك أمامي، ورد على سؤالي قبل أن أنحرك الآن ، مَا علاقتك بباسل ؟ ولماذا جئت تسأل عنه ؟

يستجمع السعيد قوته في ضعف وخوف ويقول :

- صدقني ، أنا لا أعرف باسل هذا الذي تتحدث عنه ، كما أني لست من أهل عزبة سيف باشا .

ينزل عزام يده ، ويقول بهدوء :

- يبدو أنك لا تَعرفني ، سترى باسلا الآن

وأمسك رجاله به وتهيأ للانصراف مَعهم، ولكنه قال قبل أن يسير معهم :

- أنا أعرفك جيداً .

يندهش عزام ويقول :

- تعرفني ؟!

- نعم أعرفك، ومن في مصر كلها لا يعرفك

- إذن ما دمت تعرفني جيداً فأنت تعرف مدى بطشي وقهري، فكن معي صريحاً لأني لن أرحمك ولن أرحم أحداً من أسرتك ، لأنه سينالك مثلما نال باسل، ولن تتحمل ربع ما تحمله باسل، وسترى الآن كيف يَكون عقابي ؟

كانت المواجهة مُؤلمة ومُوجعة بين السعيد وباسل المصطلي بشتى أنواع التعذيب، وجده عارياً إلا ما يواري سوأته، وجسده محمر ممزق من آثار سياطهم ، يكاد أن يَتهاوى بين هذين العمودين وقد فرد ذراعاه ومدا متسلسلين قد قضت منه آلات تعذيبهم أوطارها، عرض على الموت عرض المحتضر ثم أخر لأجل منتظر، استنقذه تأخر أجله من أنياب وحوش الشماس ومخالب كلابه .

انهار السعيد وكاد أن ينقض على الأرض كالجدار الهرم ولكنه تحامل وتماسك لما رأى ابتسامة باسل على شفتيه، تبرد

حر السعير، وتغيظ كيد أعدائه ، وهو ينظر إلى السعيد في بَهجة وفرحة وكأنه النصر العظيم والعبور المجيد، يَفتح عينيه بصعوبة ليستكشف السعيد ، فلما تأكد أنه هو عبس في وجهه حزنًا عليه وقلقًا بعدما كان فرحًا مسرورًا مبتسمًا، وجاءهما صوت عزام يقطع هذا الصمت ويفصم تلك النظرات المُتبادلة بينهما معبرة بكلام طويل ، فيقول :

ـ أعرفك يا باسل بـ " السعيد " من قريتك الحقيقة بَلدتك موطنك وموطن آبائك، وأعرفك يا سعيد بباسل عبد الرحمن، ناظر عزبة سيف الدين باشا وأنا عزام الشماس مَعروف للجميع، والفتاة القاتلة التي نبحث عنها، اسمها ليلى، إذن كل الأمور اتضحت الآن ، ولكي لا نُضيع وقتنا أكثر من ذلك أريد أن أصل إلى نهاية هذا الأمر كي لا يَتأذى ناس أكثر من ذلك لأني سأعثر على ليلى ، وسأعرف منكما مكانها حتى لو فنيت أسركم وذويكم وذرياتكم للجيل الثالث منها ، فأين هي الآن ؟

يتبادل باسل وعم السعيد النظرات الصامتة فيصيح بهما عزام :

ـ السؤال مُوجه إليكما معًا، أين ليلى ؟ وإلا سأجرعكم من عذابي ما لا تطيقون، وأقذفكم في جحيمي حتى ينزع الجلد عن اللحم، ولن يستطيع أحد أن ينقذكم من بين أنيابي .

يَستمر صمتهما الذي أخرج عزام عن شعوره فضغط على أنيابه وصرخ برجاله المحيطين بهم :

ـ جردوا هذا الرجل من ثيابه ، وسوموه من عذابي ، وجرعوه بسعيري أمام عيني باسل .

يلكم السعيد في وجهه ويضرب على قفاه ، ويصفع على خده، وتنتزع عنه ثيابه ، وباسل ينظر إليه في خور وخوف عليه، تدور عيناه في رأسه من الفزع وهو ينظر إليه ، وقد جُرد من ثيابه، وجر من رجليه، وربطا في وتدين شديدين وهوى أحدهما بسطوه على باطن قدميه في ضربات متتالية متلاحقة ، لم يستطع السعيد أن يَتحملها فصرخ وصاح فتفتت أعضد باسل وأقرحت صرخاته كبده فصاح بهم :

– اتركوه، اتركوه، أنا الذي أعرف مَكانها ، هو لا يعرف شيئا، ولا علاقة له بها .

يشير إليهم عزام بوقف الضرب ويمسك أذن بَاسل اليمنى ، ويهوي بفمه نحوه ويقول :

ـ أين هي ؟

– هي .... هي في الصعيد عند أحد أقاربي هناك

ـ الصعيد كبير ، أين بالضبط ؟

ـ في قنا

يخطو مصطفى نحو عزام ويميل على أذنه يهمس فيها فتتسع عينا الشماس ويقول :

ـ الصعيد!! ليس لك أقرباء في الصعيد، ولو كان لك كيف ستكون في قنا بهذه السرعة، وأنت قبض عليك بعدها بِساعات قليلة ، يا باسل لا تكذب علي قل الحقيقة وانج بنفسك أنت وهذا الرجل الذي شارف على الهلاك وربما يموت أمام عينيك

ـ صدقني هي في قنا

ينظر إليه مصطفى في حنق وحقد ويقول :

ـ يريد أن يكسب وقتًا فقط يا باشا

فيلتفت عزام لرجاله ويقول :

ـ انصبوا هذا الرجل واصلبوه على العروسة وقيدوه بالسلاسل واجلدوه بسياطكم الحادة أريد أن أرى لحمه الأحمر تَنبعث منه رائحة الشواء والدخان

ويَفعلون كما أمر، وخروا بسياطهم اللاذعة على جسده النحيل ذي العظام البارزة، وهو يَصيح ويَصرخ متحملاً في عزيمة وإصرار، لا يتكلم ولا يفشي سر صَديقه، ويتجلد متصبرًا على

ضرباتهم المُؤلمة الموجعة التي ينفث عنه وَجعها بصراخه وصياحه الذي فتت قلب باسل وهز أركانه فصاح بهم مرة أخرى :

ـ لا ، توقفوا، توقفوا، سَأخبركم أين هي بالضبط ؟ سآخذكم إلى مكانها بنفسي .

فيتوقفون عن ضربه بإشارة عزام الشماس وقد توقف صُراخ السعيد وصياحه فظنوا أنه قد مات لما مالت رأسه للأسفل مَصحوبة بانقطاع صوته، فيقول أحد رجال الشماس :

ـ أظن أنه مات

يصيح باسل :

ـ لا يا عم السعيد، لا تمت ، فأنا مازلت أحتاج إليك ، أنا السبب أنا السبب

وينهمر في بكاء ونحيب شديد يتوقف لما سمع صوت أحد رجال الشماس يقول وهو واضع رأسه على صدره :

ـ لم يمت بعد، مازال قَلبه ينبض ونفسه يتحرك

يتوقف نشيج باسل وينظر إليه وقد كللت وجهه ابتسامة مَخنوقة ، يتنفس الشماس الصعداء، ويدلف نحو باسل ويقول :

ـ هيا كي تدلنا على مكانها

ـ لن أذهب معكم حتى أطمئن على عم السعيد

ـ ألـم تسـمع ؟! إنـه مَـازال حيًـا ، فدعـك مـن كثـرة الـكلام ، وهيـا إلـى قريتـك لتدلنـي علـى مكانهـا

ـ قَريتي ؟!

ـ نعـم قريتـك ، أتظننـي غبيًـا، طالمـا هـذا الرجـل الـذي مـن قريتـك جـاء يسـأل عنـك إذن هـي هنـاك ربمـا في داره أو دارك القديمـة أو دار أحـد تَعرفونـه في القريـة ، فَهـي في قريتـك ومازالـت هنـاك، وسـوق أقلـب عاليهـا سـافلها حتـى أخرجهـا منهـا .

يرتجـف قلـب باسـل وترتعـش يـداه وكأن مَسـامير دقـت في جسـده، ينظـر للسـعيد في شـفقة وخـوف ويقـول لنفسـه :

ـ لمـاذا أتيـت يـا عـم السـعيد؟ ألـم أطلـب منـك ألا تسـأل عنـي مهمـا حصـل ؟!

●●●

(١٢)

وصلوا القرية وباسل بين أيديهم يَجرونه جر العبيد مقادًا في السلاسل والأغلال، مُودعًا جوامع الأصفاد، متركا بالتشهير عبرة للنواظر من أهل قريته الذين خرجوا صفًا صفًا وجماعات جماعات متفرقين وملتصقين من مدخل البلد حتى داره ، يرونه، وهو بين مخالبهم وأنيابهم مقرنا في الأصفاد وحوله عرباتهم تحيط به من كل جانب يعلوها رجال الشماس وبعض الإنجليز مُشهرين أسلحتهم مرهبين الجميع، بينما هو سائر على قدميه الحافيتين مكبلة يديه يشد منهما بحبل غليظ في يد "جلال" وهو مُمتطٍ صهوة جواده يجر باسل بعنف ، وشظف وشدة ، وحوله وجوه عابسة مكلحبة مدلهمة قد كسيت أغطية من الذل والجبن وألحفة من الخوف والشفقة على باسل المسربل مثلهم بالقيود ولكن قيوده سلاسل ظاهرية، أما قيودهم فكانت من الخوف والرعب الذي منعهم من التصدي لهؤلاء المُعتدين الذين يقتحمون قريتهم في مشهد دموي رهيب ، يَسوقهم عزام الشماس في سيارته المرسيدس يقودها " أنور " ذي البشرة السمراء كسيده الطاغوت المتكبر الذي لم تداخله ذرة من رحمة أو شفقة، ودخل يَعيث في القرية فسادًا نافثًا دخان سيجاره على تلك الوجوه الغبرة التي تتسنمها القترة من الفتحة العليا من زجاجة سيارته من ناحية مقعده خلف أنور مباشرة .

يقف ذلك الموكب المَهيب قاذفًا الرعب في الأفئدة والقلوب أمام دار هرمة بالية من الطوب اللبن وغصون الأشجار ، تتكئ على ما حولها من أشجار من كل جانب، يَدخلها جلال وهو يجر باسل وحولهما بعض الرجال المُسلحين، ثم هرعوا خارجين تغطيهم أكومة من الأغبرة والأتربة، لم يَجدوا فيها شيئًا إلا خواء، وخَرابًا تقطنه الفئران ، والحشرات ، والزواحف والقطط، ترتع فيها حَيثما شاءت، ينظر جلال إلى عزام ، مشيرًا برأسه يمينًا وشمالاً ثم يقول لمن حوله وهو مازال ماسكًا بلجام باسل :

- هيا إلى منزل السعيد .

يرتعب باسل من قوله فتثبت رجلاه في الأرض، وتتسمر قدماه مقاومة جذبهم العنيف حتى خَلعوه من الأرض كما يخلع جذع النخل الفتي، فلا مفر له من قَبضتهم، وهو في حوزتهم مصفدًا، قد نشب في حبالة الخيانة، وشرك الاصطلام، فلا مفر إذن من مواجهة الأمر بصلابة، فمن الشرف له أن يَموت شجاعًا أفضل له من أن يموت جبانًا خائرًا خائنًا .

سحلوه خَلفهم وأمامهم وعن يمينه وعن شمائله يَسحبه جلال كالبهيمة دليلهم مُصطفى المهرول أمامهم، يسيرون على الجسر الفاصل بين ترعتين واسعتين حتى تراءت لهم دار السعيد من بَعيد بنخلتيها الرابضتين عن يمينها ويسارها كحارسين ، تتدلى

عناقيد البلح على سطح الدار المنخفضة، كانت كأي دار من دِيار القرية المتراكبة والمُتلاصقة الضيقة، فلم تكن دارًا واسعة ، عبارة عن ثلاث غرف وصالة وتسمى عندهم " وسط الدار " ومطبخ ، وحمام خارج الدار من الخلف .

أحاط الجنود بالدار من كل جانب مطوقينها، اقتحمها بعضهم عنوة بقيادة جلال ومصطفى دون استئذان أو مُراعاة لحرمات البيوت الآمنة، ينفضون وسط الدار بأعينهم، فلا يَجدون سوى سيدة ناهزت الخمسين تسقي امرأة عجوزًا، قد بلغت من العمر عتيا تجاوزت التسعين من سنتين، لا تستطيع الحركة ، ولا تَقدرعلى فعل أي شيء في حياتها

كانت السيدة الخَمسينية وزوجها هما من يقوم على رعايتها، ومساعدتها في كل شئونها حتى أخص حاجاتها .

لم تُكمل العجوز شربها، فزعت من هول ما رأت، فوقعت القلة الفحارية من يد " أم هاشم " ارتعشت أناملها، واهتز فُؤادها، وهالها ما ترى من هؤلاءِ الجنود المحيطين بهم في أيديهم باسل مقيدًا عار رأسه عن الشعر، طافح وجهه بالخدوش ، والخموش والندوب الطويلة الغاصة بالدماءِ الجامدة .

دارت بعينيها على وجوههم العابسة الكالحة مُرتاعة من أسلحتهم المُشهرة والموجهة نحوها، ونحو العجوز، حتى أوقفت

بَصرها مرة أخرى على باسل ، تُحدق فيه ، وكأنها تُعاتبه مستعلمة عن الأمر ، فيخر باسل من بين أيديهم جاثيًا على ركبتيه مُجهشًا في البكاء يصيح :

- سامحيني يا خالة " أم هاشم " سَامحيني يا ست " آمنة "

يصيح جلال في رجاله :

- فتشوا الدار شبرًا شبرًا ، لا تتركوا شيئًا ، بسرعة

يَتفرق الرجال يُتفشون ويبحثون عن ليلى في جَنبات الدار ، بينما يُفتش جلال بعينيه فيما حوله من الأشياء المُبعثرة وسط الدار ، يدور بِعينيه على وجه أم هاشم الغائصة في رعبها ، والسيدة العَجوز المذهولة من هذا الحشد، ثم يحدق في رأس بَاسل المنخفض في الأرض، يسمع دقات قلبه المتزايدة ويشعر برعبه ، وما لبث هذا الرعب أن زال شيء مِنه لما جاء الجنود من كل جانب يكررون قولهم لجلال :

- ليس لها أي وجود في الدار

- الدار خَاوية على عروشها

- ليس فيها أثر لمدبة النمل

رفع باسل رأسه، وكأن روحه عادت إليه من جديد، زاهية ابتسامته وهو ينظر إلى جلال المُحدق نحوه في غضب وغيظ،

حاول إخراج شيء من ذلك بجذبه باسل بِعنف حتى أوقفه ثم جَره خلفه خارجًا من الدار، ينظر إلى الشماس الجالس في سَيارته ويهز رأسه له يمنة ويسرة مُعلنا فشله في العثور على الفتاة، فاشتاط الشماس غضبًا، وترجل من السيارة، ودخل الدار وخلفه جلال ساحبًا باسلا، يَنفض الدار ببصره يرى أم هاشم ، فَيقترب منها وسيجاره مَازال في يده لم يَنطفئ بعد، يشير به إليها ويقول :

ـ أين الفتاة التي كانت هنا ؟

ـ لم يكن هنا أي فتاة

ـ انطقي بالحقيقة، صَاحب هذه الدار في قبضتنا، أهو زوجك ؟

قالت في لهفة وشوق :

ـ السعيد !! أين هو ؟

ـ السعيد عندنا في الحفظ والرعاية، ولكن كي يَعود إلى داره سليمًا معافى بدون خدش واحد يجب أن تقولي الحقيقة ولا تكذبي أو تخفي شيئا، فكل شيء انحسر وظهر ، وإلا لن تَري زوجك بعد اليوم

تصرخ السيدة العجوز الملقاة على الحصير :

ـ ولدي .... ولدي

ينهكها الصمت ، فتلتزمه طريقًا، وتنظر تارة إلى حماتها، وتارة إلى وجه باسل المدلى على صدره، وثالثة إلى الشماس النافث دخانه مغبرًا الجو، ثم فتحت شفتيها متهيئة للكلام ، ولكنها تراجعت وابتلعت ريقها ثم فتحته مرة أخرى وكأن شيئا يمنعها يُمسك لسانها، ترددت من داخلها، فكرت مسائلة نفسها من الداخل :

أأتكلم أم أصمت ؟ والسعيد .....

ثم فرجت بين شفتيها وقالت :

ـ الفتاة كانت هنا ، لكنها هربت

ـ هربت !!

ـ والله العظيم هربت ، صدقني

ـ وكيف هربت ؟

ـ هربت ليلاً ، والسعيد ذهب ليخبر الأستاذ باسلا، ولم يعد حتى الآن، أرجوك أستحلفك بالله ألا تَمسه بسوء، وأن ترجعه إلينا سالمًا، فليس لنا عائل إلا هو، انظر إلى أمه الهرمة المريضة التي لا يتحرك فيها شيء إلا لسانها، لا نَملك شيئًا من الدنيا سواه، فهو رجلنا وكبيرنا .

- إذا كنت تريدين رؤيته مرة أخرى ، وعودته إليكم سالما، فأخبريني أين هربت؟

- وحياة ربنا لا أعلم أين هربت، فَنحن لا نعلم عنها شيئًا غير أن باسلا أتى بها قبل صلاة الفجر منذ أسبوع تقريبًا، واستأمنا عليها، ولكنها هربت ثاني ليلة لها مَعنا، وكان السعيد مترددًا في الذهاب إلى باسل لإخباره لأنه طلب منه ألا يأتي إليه مهما حصل حتى لا ينكشف أمرها ، ويقبض عليها

- يعني أنت تعرفين أنه مطلوب القبض عليها ، وبالرغم من ذلك تسترتم عليها ، وجَعلتموها تعيش بينكم ، إذن أنت مشتركة في الجريمة مع زوجك وهذا الوغد

(ويشير إلى باسل)

ثم يصدر أمرًا لرجاله :

- اقبضوا عليها

تخر أم هاشم على الأرض، تقبل قدمه ماسحة بدموعها قدميه، وهي تقول :

ـ أرجوك اتركني من أجل هذه المرأة العجوز، فليس لها أحد من البشر غيري الآن، كيف تأخذونني، وتتركونها لوحدها، كيف ستعيش؟! إنها لا تقدر على فعل أي شيء، لا تستيطع أن تقضي حَاجتها بنفسه ، أرجوكم اتركوني من أجلها .

انتزعت الرحمة من قلوبهم فحاولوا رفعها ولكنها تشبثت بالأرض، فلم يقدروا على رفعها، فجروها من قدميها يزحفونها على الأرض حتى اغبر جسدها ووجها من تراب الدار، تصرخ وتصيح وتعوي، ولا ينقذها أحد يحاول باسل أن يَفر من قيوده فلا يعرف ، فيأخذ من البكاء سلاحًا فينغمر في أمواجه المتلاطمة، ويظل يبكي ويصيح :

- اتركوها ، اتركوها ، فلينقذها أحد، فلينقذها أحد

يخاطب باسل الواقفين من أهل قريته الذين ينظرون في جبن وخور وضعف بارز على الوجوه الحاسرة عن الذل والهوان والعار.

يرون امرأة من نِسائهم تزحف وتجر على الأرض كالبهائم، ولا يتحرك منهم أحد خوفًا على حياتهم التي ليست كالحيوات، فالموت أشرف لهم منها وهم في هذه الحال .

سحلها وسحبها رجال الشماس أمام عيونهم الباهتة حتى ألقوا بها في إحدى سياراتهم ثم انطلقوا بها وبباسل المسحوب في قيوده حتى سعير التعذيب في بدروم سرايا الشماس .

وتلتقي أم هاشم بزوجها في جحيمهم، تراه عاريًا إلا ما يواري عورته مصلوبا بين عمودين من الحديد، بدا عليه أثر الإعياء والتعب من آلات التعذيب، رمت نفسها في حضنه تتحلب من عينيها سحائب الدموع الغزار معلنة النشيج والضجيج بصوتها المحشرج ، وزوجها يقول لها :

ـ كيف حال أمي يا أم هاشم ؟

رفعت رأسها تَنظر إليه مشرقة عينيها بالدموع، وجاءت لتتكلم فانتزعت من حضنه، وألقي بها على الأرض أمامه ، وهوت فَوقها سياطهم في أيدي أغلظ زبانيته جلال وحسني ومرسي ، انهالت عليها سِياطهم من كل مكان حتى نزف رأسها ، ورعف أنفها بالدم، يَصرخ زوجها يصيح :

ـ اتركوها يا كلاب ، اتركوها

يُشير إليه الشماس بسيجارته ويقول :

ـ أنقذها مِن العذاب وأخبرني بمكان ليلى

ـ ليلى ....

وينظر إلى باسل المصلوب مثله مقيدة يداه ، ورجلاه من خلاف، فيشير إليه باسل برأسه من أعلى إلى أسفل ، فينظر إليه ويقول :

ـ ليلى كانت عندنا ، ولكنها هربت، أقسم بالله العظيم هربت، ولا نعلم عن مكانها شيئًا، هربت ليلاً ونحن نائمون ، اكتشفنا ذلك في الصباح ، حتى لو قتلتمونا كلنا لن تعرفوا مكانها لأننا فعلاً لا نعرف مكانها لا أنا ولا باسل ولا هذه المَسكينة ، أنتم تضيعون وقتكم معنا .

انتبـه عـزام لكلمتـه، فَتوقـف عـن التدخـين، وذهـل يُفكـر وهـو واجم عابس ينظر إلى السعيد ثم ينظر إلى المرأة والسياط تنهمر فوقها كالمطر حتى تَمزق جزء من ثوبها فانحسر عن شيء من عَورتها ، فصرخ السعيد، وباسل بصوت واحد :

- لاااااااا

قال السعيد وهو يبكي :

- استروها ، استروها أرجوكم

صاح باسل :

- اتركوها ، اتركوها يا أولاد الكلب، غطوها غطوها أرجوكم، هي ليس لها ذنب، الذنب ذنبي، أنا من وضَعتها عندهم، ليس لهم ذنب، اقتلوني أنا اقتلوني، واتركوها، واتركوا عم السعيد .

ينطلق صوت عزام في حدة لزبانيته:

- كفى، كفى، توقفوا

تتوقف أيديهم عن الضرب ويلتفتون إليه يَتقدمهم جلال قائلاً :

- لا تستمع لهم ، إنهم كذابون ، اذهب أنت استرح قليلاً ، واتركنا نحن معهم وسوف نأتي لك منهم بمكانها .

وقف عزام وقال :

ـ لا يا جلال ، نحن نَضيع وقتنا معهم، هم فعلا لا يعرفون مكانها، وربما يموتون في أيدينا دون أن نعلم مكانها ، ويضيع الوقت من بين أيدنيا وتبتعد الفتاة أكثر، ويتعقد موقفي ويسوء مع السلطات البِريطانية التي تزعجني ليل نهار يُريدون معرفة مكان الفتاة لِيعرفوا من وراءها، فَهذه الفتاة في اعتقادهم أنها لَيست بمفردها ، وهناك من يُحركها وأعدها لهذه العملية

ـ إذن ماذا تأمرنا ؟

ـ ارفعوا أيديكم عن هذه المرأة، وأطلقوا سراحها، لم يَعد لها أهمية

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ تذهب أنت وأنور حالاً القاهرة ، وتأتياني بِيعقوب الكلب، فهو سبب ما نحن فيه من مَصائب وبلايا، وربما يكون عنده جواب لما نَحن فيه من ورطات ، بل أكيد سَنجد عنده حلاً لمشكلتنا تلك ، فكما ابتلانا بها عليه أن يَنقذنا مما نَحن فيه ، أريده عِندي بأقصى سُرعة

يَنظر جلال لباسل والسعيد ويقول :

ـ وهذان ماذا نَفعل مَعهما ؟ هل نطلق سَراحهما مثل المرأة ؟

ينقل عزام بصره عليهما ثم يُنادي على حسني الذي هرع إليه والسوط في يده فقال له :

ـ هذان الاثنان خُذهما أنت ومرسي إلى البوليس السياسي، لا أريد أن يَقعا في أيدي الإنجليز ، فربما أريدهما مرة أخرى ، وإذا أخذوهما فلن نعرف طريقهما بعد ذلك أبدًا ، لذلك أريدهما تحت عيني باستمرار ، اذهبا بهما إلى " قلم الضبط فرع ب "وأنا سأتصل بصديقي الصاغ طلعت الجزار ليقوم باللازم ويكون في استقبالكم ، وقبل ذلك أطلقوا سراح هذه المرأة .

تخرج أم هاشم مُنهكة بعد أن أتوا إليها بِملابس أخرى غير التي مزقت، ثم ألقوها على أول الطريق مكمكمة العين، فقامت ، وهي تَكشف غطاء عينيها وهي تتأوه وتَئن من الألم، لا تقوى على السير ، ولكنها تَحاملت وتجلدت وظلت تنظر هنا وهناك، وكأنها تعرف هذه الأماكن، تشعر أنها سارت فيها قبل ذلك، فجرت في قدميها وهي حَائرة، لا تريد أن تذهب إلى قريتها، وتترك زوجها في أيدي هؤلاء الوحوش، ولكنها لا تدري مَاذا تفعل؟

أتاها خاطر يَخطر في بالها مُترنحا من بعيد، فسارت خلفه حتى وصلت إلى عزبة سيف الدين باشا القريبة من المكان الذي رميت فيه، فقد رأت المنازل وسرايا الباشا التي دخلتها أكثر من مرة مع زوجها قبل ذلك رأتها من أول الطريق الخاو من الأشجار،

انتابتها دهشة فقد كان هنا قديما أشجار تظلل هذا المكان ، وتزيل لهيب الشمس الذي ظل يلسعها حتى وصلت إلى السرايا فطلبت من البواب الذي يَعرفها أن يدخلها لمقابلة سيف باشا .

ظلت تنتظره في الصالون، وهي تسعل سعالاً مميتًا انزعج منه الباشا وهو يهبط من فوق درج السلم الداخلي متجها نحوها، قد انغمست أركانه في غيبوبة من الدهشة والذهول لما رأى حالتها تلك من الجروح والشقوق التي يتشدق بها وجهها فاضحا ما تعرضت له من إهانة وإذلال، يثب من ذهوله وصمته ويقول :

- ست أم هاشم ؟!

يكاد لا يعرفها رغم أنه أخبر أنها في انتظاره في الصالون ، ولكن معالمها وملامحها قد مُحي شيءٌ منها مما أصابها ، فيجلس قُصادها ، وهو واجم صامت ثم يقول :

- ماذا حدث لك يا ست أم هاشم ؟ وما هذه الجروح ، والخدوش التي في وجهك ؟ ماذا حدث ؟ تكلمي

- ما حدث أن جارك الباشا الذي قبض على زوجي السعيد، وعلى باسل قبضوا علي أيضا وأهانوني وذلوني وهووا فوقي بِسياطهم على جميع أجزاء جسدي حتى صار جسدي متورما كما ترى .

- ولماذا كل هذا الفجر والطغيان ؟

- يريدون أن أخبرهم بمكان الفتاة التي كانت عندنا، وأنا وزوجي لا نعرف شيئًا عنها، لقد هربت منا، ولكنهم لم يصدقونا، وسامونا سوء العذاب، ومازال السعيد وباسل بين مخالبهم.

يهز الباشا رأسه ويقول :

- عرفت ما حدث لهما ، زوجك قبض عليه هنا من أمامي

- قبضوا عليه عندك ، ولم تفعل شيئًا ؟!

- مَاذا أفعل يا ست أم هاشم ؟ الرياح عاتية والعواصف قَاصفة

- من نَاحية الفعل بمقدورك أن تفعل الكثير يا سيادة الباشا، أنت باشا كبير وكلمتك مَسموعة ، وكنت كما نظن وزيرًا سابقًا

- كنت يا ست أم هاشم، وحتى لو كنت في الوزارة الآن، فأمام هذا الرجل كلنا حتى رئيس الوزراء لا يملك أن يَفعل شيئًا له.

- يا خَسارة يا معالي الباشا، كنت مُعتقدة أنك سترد الجميل بأفضل من ذلك

- أنا لا أنكر جميل السعيد وإخلاصه لي ومن قبلي والدي

- وجميل الشيخ مَسعود ، أنسيته ؟

- ومن يَستيطع أن ينكر فَضائل الشيخ مسعود علي وعلى والدي؟ ! فما قدمه لنا كثير جداً تعجز الألسن عن وصفه .

- طالما أنك تعرف ذلك جيداً، فرد الجميل لابنه وانشله وانتزعه من بين براثن هذا الوحش الطَاغية .

يجم وجهه ويصمت لسانه ويشرد باله ، فتتحامل على نفسها حتى تقف ، وهي مذهولة من موقوفه ومن صمته الرهيب ثم تَقول في حسرة :

- يا خَسارة يا باشا، خسارة وألف خسارة، كل شيء أمره إلى اللّه، أنا لا أريد شيئًا منك ولا من أي أحد، ما أريده منِك أريده من اللّه، شكوت هذا الظالم إلى اللّه عز وجل، حسبي اللّه ونعم الوكيل فيه، فلن يتركه اللّه يدمر المَظلومين الأبرياء هكذا ، سيقتص منه إن عاجلاً أو آجلاً، حسبي اللّه ونعم الوكيل في هذا الظالم

وسارت بخطى مُتثاقلة تكاد أن تقع ، سارت وهي تحسبل عليه مرات ومرات حتى اختفت من أمامه، تَاركة إياه في حالة من الوجوم والحزن قد أغفلته عيناه وأنزلت بَعضًا من دمعها على خديه، وكان دَمعه عزيزا، ولكن هذه المرة لم يعد يَحتمل ما يحدث حوله دون أن يتحرك، فهب واقفًا مناديًا على البواب الذي هَرع إليه في لهفة وخفة، فَطلب منه أن يأتي له بسائقه " سيد" من داره بأقصى سرعة .

(١٣)

بمجرد أن وضع عزام سماعة هاتفه الأسود قام من كرسيه منتفضًا صارخًا بصوت رجّ وهضّ أركان قصره المنيف قائلاً :

- أين جلال ؟

هرع أحد خدامه من عبيده على صوته من خارج القصر ، وهو يهرول حتى وقف أمامه في خوف وقال :

- جلال لم يصل بعد

- الحمار ، لماذا تأخر ؟

وظل يَترقبه يمنة ويسرة ، وهو يجول في مدخل قصره الرحيب وهو يَنفث دخان سيجاره الذي عبأ الجو، وغَير لونه وزنخ طعم الهواء، وكأن غمائم سوداء تظلل الفضاء، أقشع بعضها بيديه لما سمع صوتًا يُنادي :

- عزام باشا .

إنه صوت جلال ، فارتاحت نفسه قليلاً وطفر من على درج السلم حتى قابله جلال وخلفه أنور يَجر يعقوب مقيدة يداه في الأصفاد، ووشاح أسود يغطي عينيه، ينزع جلال ذلك الوشاح، ويلقيه أنور بعنف أمام قدمي سيده عزام فيجري عليهما يُقبلهما وهو خائف مذعور قد توشح بالهلع والتحف بالرهبة لا يدري مَاذا

فعل كي يسحبونه هكذا مقيدا كالعبيد ؟! وهو الذي لم يقدم شرًا قط للباشا، بل كان دائمًا خَادمه المُطيع ، قدم له خدمات جليلة باصطياد فرائسه من النساء خاصة القاصرات والغلمان الحسان، ويبيعهم إليه ليستغلهم أسوأ استغلال، وأبشع انتهاك لحرمات الآدميين ، في تِجارة متزية بزي الخدمة لدى البشوات وهي في الحقيقة تقديم لحومهم لراغبيهم من الشهوانيين في كل مكان .

ولكن الباشا لا يَعرف من قدم له خدمات، ولو كان أباه، لا يعرف سوى مصلحته فقط، ولا يسعى إلا لنفسه ، وهو الآن كالغريق يريد أن يتعلق بقشة تنقذه لبر الأمان ، فقد أكثرت السلطات البريطانية من تَعنيفه ، وأعطي مهملة قصيرة للقبض على القاتلة ، وشُركائها، وتقديمهم إليهم للكشف عمن وراءهم فأصبحت حياته في مهب الزوابع والعواصف، ربما تطيح به في أي وقت وتنهد مملكته على رأسه، فصار كالكلب المسعور على وشك أن يفتك بأي شخص، فأبدى جَميع أسلحته يستعملها في حربه بعدما صار في وجه المدفع ويوشك أن تُطلق منه قذائفه فتفنيه وتمزقه أشلاء .

لذلك أمسك بوجه يعقوب يرفعه إليه، فانصاع له، ووقف وهو مذعور، ثم قال له عزام بصوت هادئ بعدما تمالك أعصابه:

ـ أمامك أربع وعشرون ساعة كي تأتيني بليلى

انتفض يعقوب ، وقال وهو يرتعش :

- ليلى !! ليلى اختفت، ولا أحد يَعلم مكانها حتى البوليس عجز عن معرفة مكانها، وقد حققوا معي في ذلك .

- ليلى اختفت بعدما قتلت جنرالا إنجليزيًا

يسحفه الفزع وينزفه الذهول وتتفهق عيناه بالدهشة ويقول :

- قتلت جنرلاً إنجليزيا !! وامصيبتاه ، لقد ضعنا كلنا

- أنت لا يعرفك أحد يا يعقوب سواي، أنا من في وجه القذائف، والصواعق لقد قتل الجنرال في قصري، ومن إحدى فتياتي ، فاللوم كله علي، ولن أضيع يا يعقوب قبل أن أفتك بالجميع، وأولهم أنت لأنها جَاءت عن طريقك

- صدقني لا أعلم عنها شيئًا، ولا أحد في الحي كله يعلم مكانها، وقد قلبت القاهرة بسببها ولم يعثروا عليها .

- هم لن يعثروا عليها، ولكني سأعثر عليها ، وعليك أن تُساعدني في ذلك

- كيف أساعدك ؟

- أمامك أربع وعشرون ساعة، وتأتيني بها أو بأي خبر يدل عليها وإلا أنت تعلم ماذا سيكون مصيرك ؟

ـ أعلم يا سيدي عزام ، ولكن هذه المهلة قصيرة جدًا .

ـ لنجعلها ثماني وأربعين ساعة ليس أكثر ، أمامك يومان كاملان لتعث وترسل رجالك في مَنطقتك ، والمناطق المُجاورة تتحسس الأخبار بدون أن يشعر بك أحد ، ولا يمر اليومان إلا وعندي خبر عنها إما بها شخصيًا أو بمكانها أو بمعلومة تدل عليها ، أفهمت ماذا أريد يا يعقوب ؟

يهز رأسه وقد ملكه خوف ثم يقول :

ـ فهمت كل شيء يا عزام باشا ، كلنا خدمك وطوع إشارتك .

●●●

(١٤)

لم يكن باسل يعتقد أنه سيؤول به الأمر، وسيصل به الحال في هذا المكان الموحش من هذا المعتقل المدلهم الكئيب ، ومعه السعيد الذي أخذ بذنبه دون أن يَرتكب معصية أو جُرمًا .

وهذا ما كان يغص في صدره آلاما، وهموما عظيمة ، فكلما يراه حزينا تعيسا مُنزويا في ركن يبكي، قد أنهك من الجلد ، ومحش من التعذيب حتى انعدمت حركته، ولم يعد قادرًا عليها .

فقد أضاف زبانية هذا السجن الغريب إليه عذابًا فوق العذاب الذي اصطلى به من رجال الشماس، فجاء رجال البوليس السياسي وزبانية هذا المعتقل ليجهزوا عليه ويتموا عملهم على أكمل وجه فَيسقونه العذاب جرعات هو وباسل .

ولكن باسل كان شابًا فتيًا تحمل ومازال يتحمل، أما السعيد فقد خارت قواه ووهن جسده، ولم يعد قادرًا على الحركة قد اشتد به التعب وتَنامت به علته التي هو في أسرها معتقل، وبِقيدها مُكبل، فأصبح لا ينقل رأسه ولا يجر ظله، ويد المنية تقرع بابه .

كان باسل بجواره لا يفارقه يبكي من أنينه، وخنينه ، وتأوهاته التي توقظ المعتقلين، والمَساجين، وأغلبهم من السياسين المناوئين للاستعمار واللافظين لهم ، والمعترضين على سياساتهم وسياسات

ملكهم ، فجمعوا في هذا المكان ليتجرعوا ويلات العذاب وسعيرهم المسحل .

أصبحت وجوههم مألوفة لبعضهم حيث أكثرهم من شباب الجامعة الثائر ولكن هذين رجلان غريبان عنهما أحدهما رجل قد أخذ به العمر وتقوس ظهره ، صار حليف علة نمت بِتعذيبهم، فكيف لهذا الرجل أن يكون من الثائرين وهيئته لا توحي بذلك هو ومن معه ؟!

وإن كانت هيئة باسل تنم عن وطنية جارفة ، وثورة عارمة وشباب غض فتي يَرفض الذل والإباء ، إلا أن أحدهم ويدعى " خالد " عندما اقترب منه لم يشعر منه بأي وطنية ، فلم يَجد عنده أي أفكار وطنية أو آراء تحريرية أو تصورات عن وطن المستقبل الذي يَحلم به كل محب له .

رأه شخصًا عاديًا بَسيطًا ضعيفًا لا يقل ضعفًا ووهنا عن عم السعيد الذي اشتدت عليه آلامه وأوجاعه وصار يهز جدران ذلك المكان التعس بتأوهاته فتجمعوا حوله في جنح الظلام ، ينظرون إليه في شفقة ورحمة

طلب مِنهم باسل أن يبتعدوا عنهما، وأن يتركوه مع صاحبه، يريد أن يتكلم معه بِمفرده، فتفرقوا من حولهما وهم يتمتمون ويدندنون بكلام قاسي إلا خالدا ذلك الصحفي الذي تعرف

عليهما وجلس مع باسل جلسة قصيرة، ومع ذلك أحس منه بِطيب قلب ، وبظلم شديد وقع عليه، فأحس بانجذاب نحوهما، ولكن لما طلب باسل منهم أن يبتعدوا كان أول المبتعدين في صمت وهدوء تاركًا باسل يخلو بصديقه، وينفرد به في نزعه الأخير الذي بات وشيكا لدى كل من يرى مَنظر وهيئة السعيد .

هطلت سحائب دموع باسل تغسل وجهه ، وتقطر على رأس السعيد الراقد على فخذ باسل الأيسر، وقد فرد رجليه ومدهما أمامه واحتضنه على فخذه يلملم جراحه، نظر إليه السعيد ، وهو يُحاول أن ينزع ابتسامة من بين شفتيه الجافتين وقال :

ـ لا تحزن يا باسل، هذا ثمن لابد أن يَدفعه كل من يعيش على أرض مغتصبة كما تداعى الذئاب والأكلة إلى فرائسهم .

فيرد باسل بصوت مبحوح يهزه الحزن والأسى والوجع :

ـ لكن أنا السبب ، أنا السبب ، أنا من أدخلك في هذه الدائرة وأسكنك هذا القبر أنا السبب في بعدك عن زوجتك وأمك ، أنا السبب في تَعذيبك وإهانتك وإهانة زوجتك، أنا السبب في تعبك وإعيائك ، أنا السبب في كل ما حدث لك ولأسرتك ، أنا السبب ولن أسامح نفسي أبدًا .

ويغط في بكاء شديد، ونحيب مريع ، فيحاول السعيد تَهدئته فيقول :

ـ لا يا باسل، لا يا ابني، أنت لست السبب، أنت أحييتني من جديد، علمتني درسًا لن أنساه أبدًا في الوفاء والدفاع عن المظلومين والمنكوبين .

ويسعل بشدة ثم يَستأنف كلامه :

ـ وليلى علمتنا كلنا درسًا لم نتعلمه حتى الآن، لم نفعل مثلها، وهي أنثى دافعت عن شرفها، وقتلت من حاول اغتصابها، ونحن نعيش بين مغتصبينا ومغتصبي مصر كلها ولا نُدافع عنها أو عن أنفسنا ، لم نقتله ولم نحاول ردعه، أنا أحسست بِالعجز والنقص والضعف أمام ما فعلته هذه الفتاة المَسكينة الضعيفة ، لذلك تحملت التَعذيب والتزمت الصمت كي أطهر نفسي قبل الموت ، أنت كَشفت الغطاء عن رأسي والغشاوة عن عيني عندما أتيت إلي بهذه الفتاة لِتختبئ عندي وتختفي عن أعين الإنجليز وعن عيون هذا الخائن الذي أذاقنا العذاب أشكالاً وألوانا، ولما استيئسوا منا تركونا في أيدي البوليس ليتهمونا بأننا ثوار ليتم اعتقالنا، في هذا المكان الموبوء، ومع ذلك أنا فرح وسعيد لأنهم اتهمونا بتهمة عظيمة ، ونحن لسنا أهل لها .

- هم لن يغلبوا في سَجننا بدون سبب يا عم السعيد ، ليس هناك من يحاكمهم بيننا إنهم هم الحكام .

- لا يا باسل، هم يريدون أن يكتموا موضوع قتل هذا الإنجليزي

- يريدونه في طي السرية والكتمان لا يريدون أن يَفتضح أمرهم حتى يعثروا عليها، وعزام هذا الطاغية لو لم يعثر على ليلى التي قتلت الجنرال في قصره سيكون مَوقفه سيئًا للغاية أمام الإنجليز وأعوانهم من الخونة والعملاء لذلك جعل الموضوع سرًا واتهمنا بتهمة أخرى حتى يعثر على الفتاة ، وهو يعلم أننا بين يديه في أي لَحظة يَنتزعنا مرة أخرى .

يبتسم باسل ، وهو يسمع هذا الكلام من السعيد ويرى تلك الابتسامة التي انسابت على شفتيه، وقد خفت وطأة التعب وثُقله عليه قليلاً ، وقال :

ـ كلامك يا عم السعيد كلام رجل ثوري عظيم، وأنت تتهم نفسك بأنك لست وطنيًا، ما فعلته وما تَحملته دليل على عظم وطنيتك الحقة و...

ويقطع كلامه قلقًا على السعيد الذي انغرق في سُعال شديد، وقد احمرت عيناه حتى كاد أن يختنق، ولكن باسل حاول هو وخالد الصحفي وبعض المخلصين الذين هرعوا على سعاله الشديد، حاولوا رفعه عن هيئة الاضجاع لهيئة الجالس أو المتكئ كي يخف هذا السعال الشديد، وأتوا له بكوب من الماء، ارتشف منه بعض الرشفات، ثم مال على جنبه الأيمن، وهو لا يزال يزفر ويشهق ويتنفس، وظلوا بجواره حتى غرق في النوم .

اطمئن باسل عليه، فغطاه ببطانية رقيقة ، ثم ابتعد عنه قليلاً كي يأخذ وقته في النوم دون إزعاج أو إقلاق، والدموع تنسكب من عيني باسل وهو يرنو إليه، وبجواره الصحفي خالد الذي لم يتركه كالباقين بل ظل بجواره يربت على كتف باسل في رفق ولين ، ويقول في محاولة منه للتخفيف عن باسل وإخراجه من حالته تلك بالكلام فقال :

ـ أتصدقني لو قُلت لك أنتما من أوائل الناس الذين ارتحت إليهم مباشرة ، قد أحببتكما في اللّه .

ينظر باسل إلى وجه السعيد المسجى ثم ينظر إليه بعينين مرتعتين بالدموع دون أن تلتقي شفتاه بكلمة واحدة ، فَيتابع خالد كلامه :

ـ أنا خالد عبد الهادي صحفي، دخلت هذا المكان المزري لأني قلت الحق ولأني أبحث عن الحقيقة، وفي زمن اللصوص والمغتصبين وآكلي الحقوق إذا قلت الحق فلا مكان لك بينهم، فيتفننون في إيجاد مكان لك بحيث تكون في قبضتهم وتحت أيديهم حتى يَظل الحق سجينا لا يَخرج عن نطاقهم .

يَختلس باسل إليه النظرات الدامعة دُون أن يَنحسر فمه عن كلمة واحدة ، فيتابع خالد :

ـ لا تَندهش أنا حكايتي طويلة ومريرة، ولا أريد أن أشغلك بها، كفاك ما أنت فيه أنت وصديقك، أستأذنك سأذهب لأستريح قليلاً

ويتهيأ للانصراف، وقد اعتدل نصف اعتدال، ألجأه للجلوس مرة أخرى صوته يقول له :

ـ ما الحق الذي قلته ؟ وما الحقيقة التي تَبحث عنها؟

يبتسم خالد ويتربع مرة أخرى يقول بصوت باسم:

ـ أنا متأكد أننا سنكون أصدقاء ، لقد دخلت قلبي ، واخترقت شغافه أنت وذاك الرجل الكسير.

ثم يتنهد كأنه يحمل همومًا كأوزان الجبال ثم يقول بصوت لين :

ـ الحقيقة التي أبحث عَنها ليست حقيقة في الكون وليست حقيقة فلسفية أو علمية، إنها أكبر من ذلك بكثير، إنها حقيقة وطن وحق مواطن في أن يعيش في وطن حر غير مُغتصب مهما كان هذا المغتصب ، لأنه حق شامل لكل مكان وزمان، هذا الحق سيعيش إلى قيام الساعة وسيجد دائمًا من يدافعون عنه، ويُضحون بأنفسهم من أجل أن يعم وأن يسود، عندما تفوهت بالحق وصرحت بالحقيقة التي ينافق بضدها الكثيرون أدخلوني المعتقل ظُلمًا وعدوانًا، كنت حزينًا وكئيبًا في البداية لكني لما اختلطت بالناس هنا وعرفت حقائقهم وقصصهم وحكاياتهم التي يندى لها الجبين، وتتقرح لها الأكباد السليمة أحسست أني لم أكن شيئًا مذكورًا، حق الحرية والحقيقة الوطنية التي حيرتني

كثيرًا وجدتها هنا في وجوه هؤلاء البشر الذين يقولون الحق ولا يخشون في الله لومة لائم، ولا سوط عذاب، ولا أي شيء، لو تسمع حكايات الناس هنا سيتفطر قلبك، مِنهم من فقد أباه، ومنهم من فقد أخاه ومنهم من فقد ابنه، ومِنهم من فقد جزءًا من جسمه، وهنا رجل في هذا المكان فقد أسرته كلها، وظل وحيدًا فريدا يقاسي البؤس، ويعاني ويلات الوحدة، وبالرغم من ذلك لم يَتركوه بل جاءوا به إلى هنا ليقضي باقي عمره معهم، وحتى لا يسعى للانتقام، فقد أباه في مظاهرات ١٩١٩ وعمره وقتها لا يتجاوز الشهرين، فقد أخاه الأكبر في مظاهرات ١٩٣٦، فقد أخوين آخرين الثاني والثالث من إخوته في حرب ١٩٤٨ في فلسطين، وفقد أمه مباشرة إثر علمها باستشهاد أخويه، وقبع هنا وحيدًا شريدًا بلا أهل من دمه ولا وطن حر ولا سكن سوى هذا القبر الذي يشعر فيه بالغربة والوحدة والخوف .

يتأثر باسل بكلامه ، ويسف النظر إليه في عطف وشفقة بعدما يرى دموعه تنثال على خديه ، فيقول له وقلبه يقول له أنه هو :

ـ من هو هذا الشخص ؟ أريد أن أعرفه

ـ سأعرفك به .

ـ أريد أن أعرفه الآن كي أصافحه وأحتضنه وأقبله

فيمد خالد يده بدون تردد في يد باسل ويرمي نفسه في حضنه ويحضنه بقوة فيندهش باسل، وبدأ قلبه يرجف فقد بدأ إحساسه يصيب، فيقول مُشيرًا بسبابته إليه :

ـ أنت ...... أنت هذا الرجل .

يخفض خالد رأسه، ودموعه تنهال على الأرض، ونشيجه يزداد ونحيبه يعلو بتذكر أهله ، فتلوح دموع باسل هو الآخر في عينيه بكثرة، وتتجمع وتبدأ في التقاطر على خديه، ثم يضم رأسه إليه ويقبلها ويمسك بيده ليقبلها فيسحبها خالد بسرعة ويرمي نفسه في حضنه فيحتضنه باسل بلطف ورفق كما تَحتضن الأم وليدها .

ومن هذه اللحظة توطدت بينهما صداقة قوية، لم يعد يُفارقان بعضهما في هذا القبر إلا قليلاً ، كانا يجلسان مع بعضهما بجوار السعيد المريض يسليانه ويخففان عنه وفي نفس الوقت يتحدثان في كل شيء، رغم أن باسلا كان حريصًا على ألا يبوح بكل شيء، كان كالبئر قعرها بعيد، أما خالد فكان يقص عليه كثيرًا عن حياته :

- تخرجت من كلية الهندسة بناء على رغبة أمي، هي في الأصل كانت رغبة أبي، ولكن الصحافة كانت تجري في عروقي، كنت أكتب مقالات وخواطر بَسيطة عندما كنت في التوجيهية،

وعندما دخلت الجامعة إرضاء لأمي دخلت الهندسة فأخذت كل وقتي لصعوبتها، ولكني كنت بين الحين والحين أروي ظمأي في الكتابة، فكنت أكتب مقالات وقصص قصيرة، ممكن تعتبرها خواطر شخصية تندد بالاحتلال وبالفساد، كنت من خلال هذه الكتابة الضيئلة أسعى للحياة الكريمة الهادئة في ظل سلام عَادل في حضن وطن حر يسعى من أجل ذاته ، ولا يسعى من أجل الاستبداد والطغيان ، وبعد تخرجي رَفضت العمل كمهندس وكونت مع بعض رفقائي ومنهم بعض الأصدقاء كونّا جريدة يَومية سميناها " الغد الحر " ولكن لم يمض سوى شهور قليلة حتى كان مصيرها الغلق بالشمع الأحمر ، ومَصيرنا هنا بين هذه الجدران .

- كل هذا بسبب الجريدة ؟

- نعم ، لكن ليس بسبب الجريدة بحد ذاتها، فمصر مرتع خصب للجرائد والمجلات ، ولكن هناك من يوالي الإنجليز ، ومن يوالي الفساد، ومن يوالي السرايا، ولذلك هذه الجرائد تحيا حياة طيبة، أما جَريدتنا فكانت سوطًا على رقاب الفاسدين والخائنين من أبناء البلد الموالين للعدو، وكانت سيفا يقصم ظهور الإنجليز مُنددة باستعمارهم لنا .

- أتعرف ما هو أسوأ من الاحتلال ؟

- ماذا ؟

- من يوالي الاحتلال والظلمة من أبناء الوطن

- لذلك نحن هنا، بسبب ما كتب عن هؤلاء الخونة الموالين للاستعمار والظالمين والطغاة، وأخص بالذكر رجلا كلبا خنزيرا، من الأسباب الرئيسية في إغلاق الجريدة، واتهامنا بالثورة وقلب نظام الحكم

- رجل !!

زايل باسل شعور داخلي أنه هو الذي في باله، فقال بصوت مهزوز :

- من هو هذا الرجل ؟

- إنه أخطر رجل في الشرق الأوسط كله، لا أريد أن أزعجك وألوث أذنك بسماع اسمه

- أرجوك ، أخبرني من هو؟

- لماذا يأخذك الحماس هكذا لمعرفة اسم هذا الرجل، انأ بسمعك عن سماع اسمه، أنت لا تعرف مدى خطورة هذا الرجل، فليس له علاقة بالمندوب السامي فقط ، بل علاقة شخصية مع رئيس الوزراء البريطاني

- أريد أن أعرفه

- ربما تكون سمعت اسمه من قبل أو قرأت عنه في الصحف ، فهو لا يخلو منها، هو عزام الكلب

- كما جاء في بالي ، عزام الشماس

- عزام الشماس!! أتعرفه ؟

يتبدل لون وجه باسل، وتعبس ملامحه ، وينزوي بوجهه مُعرضًا عنه، ويقول :

ـ ربما، فأنت قلت أنه رجل مشهور، واسمه يتردد في الصحف كثيرًا

يعرض خالد عن مناقشته في سبب تغيره المفاجئ ويقول :

- صحيح ، آه لو تعرف ماذا أتمنى الآن ؟ أتمنى أن أذبح هذا الرجل كي أخلص العالم كله، وبالذات مصر والوطن العربي من شره ومن جرائمه

- ولماذا هذا الرجل يبيع وطنه، ويفعل كل ذلك ؟

- المال والسلطة يا صديقي يَفعلان أي شيء، الإنجليز يحبون ويقربون من يخلص لهم ويخدمهم، فَيضخون عليه أموالاً طائلة، وعزام هذا الخائن سبب ثرائه الفاحش هو الإنجليز، فقد ساعدهم كثيرًا من أجل توطيد حكمهم في مصر في الفترة الأخيرة ، وخاصة أخطر فَترة مرت عليهم فترة

الحـرب العالميـة، فأصبـح في نظرهـم أهـم شـخص لديهـم في أكبـر مسـتعمراتهم في الوطـن العربـي مصـر، وقـد أثنـى عليـه رئيـس وزراء بريطانيـا شـخصيًا وقـال عنـه لقـد قـدم الشـماس لبريطانيـا أكثـر مِمـا قدمـه البريطانيـون أنفسـهم لهـا

- خالد ....

- نعم يا صديقي، أنا آسف أزعجتك بهذا الرجل ولكن ....

قاطعه باسل :

- أريـد أن أقـص عليـك حكايـة حاولـت مواراتهـا وإخفائهـا عنـك كثيـرًا، ولكنـي الآن أريـد أن أقصهـا عليـك .

- أنا لم أطلب منك أن تقص علي شيئًا، أنا أحببتك في اللّه .

- ولكنـي أريـد أن أقصهـا عليـك، سـبب دخولنـا هـذا المعتقـل بعـد جلسـات مريـرة مـن التعذيـب هـو عـزام الشـماس

- عزام الشماس !؟

- نعم ، وسأقصها عليك من البداية .

●●●

(١٥)

استيقظ شارع الشيخ على صراخ عال، وصياح رهيب ينبعث من منزل الشيخ الشهاوي، فقاموا مَذعورين يهرعون نحوه، فوجدوا عددا من العربات والرجال المسلحين يغلقون الشارع محيطين بمنزل الشيخ الشهاوي، يحاول بعض الرجال، ومن بينهم مَنصور وبعض شباب وكهول الشارع الدخول لمعرفة الأمر، ولكن أسلحة الرجال حالت دون ذلك، ولكنهم بقيادة منصور أخذوا يعافرون ويدفعونهم في صدام واصطلام محتم بينهم .

حدثت فوضى وجلبة شديدة وتدافع وتراشق بالحجارة عليهم حتى يتركوهم ليدخلوا منزل الشيخ ليروا مصدر هذا الصراخ وسببه، تعالت الأصوات وتداخلت، ولكن سرعان مَا صمتت وتهاوت مع خروج الشيخ الشهاوي في جلبابه الأبيض الأنيق وعصاه يتقدمه جلال بينما يمسكه من ذراعيه رجلان أحدهما أسمر وهو أنور والآخر أبيض وهو حسني، بينما يمسك عامر بالطفل الصغير، ومرسي بسكينة التي مازالت تصرخ وتصيح ، وهي تقول :

ـ أنقذونا يا ناس أنقذونا، يُريدون أخذنا أنا وابني والشيخ حتى يعرفوا مكان ليلى، لقد أخبرناهم أننا لا نعرف مكانها، ولكنهم لا يصدقوننا، يُريدون أخذنا معهم إلى حيث لا نعلم .

اضطربت الوفود وزمر الناس، وارتفعت أصواتهم وطفر الغضب من عيونهم

كيف يأخذون الشيخ الشهاوي أطهر رجل في الشارع من بين أيديهم ؟!

فصرخ منصور :

ـ لن تأخذوا أحدًا معكم ، نحن لسنا خنازير أو خرافا أو أقفاص طماطم ، تأخذون الشيخ وأهله من بيننا هكذا ولا نفعل شيئًا ؟

وقال آخر :

ـ لن تأخذوهم إلا على جثثنا

وقال ثالث :

ـ ستكون مذبحة هنا إذا خرج الشيخ وأهله من المنزل

وصاح رابع في أهل الشارع :

ـ يا أهل شارع الشهاوي تجمعوا كلكم يدا واحدة للدفاع عن الشيخ وأهله

وكان الشاعر مكتظا وفي ازدياد مُستمر حتى ضج بأهله، وبغير أهله ممن يحبون الشيخ الشهاوي، تجمعوا من كل صوب

وحدب ، نساء ورجالاً، أطفالاً وشُيوخًا، شبابًا وفتيات، تجمعوا عن بكرة أبيهم إلا شخصًا واحدًا وهو يعقوب الذي ظل في دكانه يراقب الموقف عن كثب، وقد هالته هذه الجموع الكثيفة الذين جاءوا وفي أيدهم ما وجدوه أمامهم من أسلحة وعتاد الصغار والفتيات أمسكوا بالحجارة ورفعوها في وجوههم في حالة التأهب والاستعداد، بينما الرجال والشباب ارتفعت أيديهم بالشوم والعصي وبعض السيوف والسكاكين الضخمة في يد بعضهم ، وقليل منهم رفع أسلحة نارية عبارة عن مسدسات وبنادق

من هؤلاء منصور الذي أخرج مسدسه الذي لا يُفارقه من جيبه، وأطلق طلقتين في الهواء، وقال موجها الكلام لجلال الصامت وقد بدت عليه علامات الخوف من هذه الجموع الغفيرة، قال له :

ـ إذا أردتها مَذبحة فنحن لها ، ولتنظر لعددنا ولعددكم حتى ولو كانت معكم مدافع ودبابات ستكونون أنتم الخاسرون هنا ، وإن كنت لا تصدق ، جرب وسنرى .

ثم يوجه كلامه لتلك الجموع :

ـ ما رأيكم يا رجال

تعالت الأصوات وتتابعت مصدرة كلمات متفرقة ، وإن كانت متفقة حول معنى الذبح :

ـ نذبحهم هنا

وارتفعت أسلحتهم في حالة الاستعداد، والتفت منصور إليهم، ودقق النظر في وجوههم، ثم ثَبت نظره على جلال الذي يبدو أنه زعيمهم لتقدمه عليهم ثم قال :

ـ ما رأيكم ؟ نجرب، أم تأخذون بَعضكم وترحلون من هنا إلى غير رجعة

ينظر جلال إليه في صَمت ثم يتصفح تلك الوجوه، والأيدي المصوبة أسلحتهم ناحيتهم، فرأى أن هذه المعركة ليست له وأنه الخاسر، ولو دخلها ربما ينتهون جَميعهم هنا جُثثا، ولن تكون لهم دية، ولن يتحرك أحد من أجلهم، فلن يستطيع بمن معه أن يُحارب حيا مصريا بأكلمه وهو مسلح ومعد للقاء في أي لحظة نساء ورجالاً ، رأى الغضب في وجوههم، قد اشتعلت جمرات الغيظ على ملامحهم ، وتكلمت ترجمة النيران عن عيونهم فهز رأسه والتفت إلى رجاله وقال :

ـ اتركوهم، ولِنخبره بما جرى، وأنتم رأيتم ما حدث ، هيا بنا

وخرجوا يجرون أذيال الخيبة والفشل ، تلاقحهم لعنات شارع الشيخ ، وهزموا في معركتهم مَعهم، وإن لم يحدث صدام أو تراشق، ولكن النتيجة بينة واضحة على هذا النصر العظيم ، وكان البطل فيه المصريين البسطاء في هذا الشارع يَتزعمهم منصور الذي

بات بطلاً في عيونهم شهما رغم كل عيوبه التي نسوها بمجرد أن نطقت نفسه الطيبة عما بداخلها من خير وبر برز جليًا في موقعة الشارع مع رجال الشماس المنهزمين ، ومنهم يعقوب الذي بدأ يشعر بالخوف والرعب من مكوثه في هذا الشارع بعدما هرب رجال الشماس الأقوياء من أمامهم كالجرذان ، فإذا كان الشماس ورجاله لم يَقدروا عليهم فهل يقدر عليهم يعقوب بحفنة قليلة من الرجال ؟

فبدأ يترقبهم ويترقب فعلهم بعد ذلك .

لم يَترك الشارع وظل في دكانه العتيق فكيف يتركه وحياته وحياة آبائه وأجداده كلها هنا، كما أنه لم يَظهر في الصورة مع جلال ومن معه كان في دكانه يراقب من بعيد مآلات الأمور، وخَابت وخسرت ظنونه عندما حسب أن الشماس ورجاله سيقدرون على أهل الشارع .

لم يدر أن المصريين إذا انتفضوا كانوا كالأسود الكواسر ، ربما ينزعون الهرم من مكانه أو يغيرون مجرى النيل، فالعاقل من لا يلهو في مرابض الأسود، ومكامن الأراقم .

ولكنهم ليسوا بالعقلاء، ولم يَفهموا طبيعة هؤلاء البسطاء الضعفاء الطيبين إنهم يسكتون يسكتون يصمتون يصمتون ومع ذلك في لحظة واحدة ينقلب الحال بدون مقدمات فترى ريحًا

عَقيمًا لا تُبقي ولا تذر أمامها وما حدث في شارع الشيخ دليل على ذلك .

فطن يعقوب مؤخرًا أن هؤلاء ليسوا بالقوم الذين يأمن لهم ظَالمهم، وآكلوا حقوقهم، وفطن منصور أن يعقوب له علاقة بِهؤلاء، وأنه ربما هو السبب في مَجئيهم هذا اليوم

فكان مراقبًا جيدًا وعينا لا تكل ولا تمل عن التلصص والتجسس على يَعقوب ومن حوله ومراقبتهم غالب يومه، يراقب من بَعيد من يدخل، ومن يخرج من عنده حتى يوم أن أخذ عنوة من قبل رجال الشماس كان واقفًا ينظر إليهم وهما يحيطان به، ويُدخلانه سيارة سوداء مرسيدس ذات زجاج مظلم كلونها وقد تأكد لديه ذلك في ذلك اليوم عندما تفطن لوجهي جلال وأنور، فهما من الرجال الذي أخذوا يَعقوب معهم في ذلك اليوم ، فصار لديه علما يَقينًا أن السر عند يعقوب، وأن الأمر أكبر بكثير منه، فصار له حلس ظله لم يتركه طفق يراقبه ويتلصص عليه من بَعيد دون أن يشعر به أحد .

●●●

(١٦)

كانت الأيام تمر، ويزداد خالد من باسل قربًا ويزداد الوجع والألم بالسعيد الذي تغيرت مَلامحه من آثار التعذيب في الغرف الأرضية المُظلمة أسفل ذلك المعتقل الصحراوي ، فكانوا يَتركونهم بالساعات الطوال في تلك الغرف المظلمة الطافحة بالعناكب والحشرات والجرذان والصراصير والضفادع التي أزعجتهم بنقيقها في هذا الظلام الحانك الذي لا يَعرفون متى ينتهي ؟ ومتى ينتهي عذابهم اللاذع المهين الذي لا يفرق بين كبير وصغير، بين مريض وسليم بين مُصاب أو صحيح، الكل سواسية أمام سعيرهم ، يصلون الجميع به بدون عُنصرية أو تمييز فيه ، وكأنهم لا يعترفون بالعدالة والديمقراطية إلا في تجريع العذاب للآخرين من الضُعفاء والمساكين كأمثال باسل وخالد والسعيد الذي أنهكه المرض، واستشرى فيه الألم وظل ينازع ويلات ظلمهم حتى شحب وجهه، ونحفت عظامه وضمر جسده، وامتصت دماؤه، وصارت تأوهاته أنينه الملازم له الذي لا يفتر، ولا يخفت حتى جن باسل من سماع صوته ، وحشرجات صدره وطنين سعاله المستمر ، فظل يصيح من داخل عنبره :

ـ أنقذوا عمي السعيد، أنقذوه، أحضروا له طبيبًا، سيموت

وعم السعيد ينظر إليه في رقة ووهن يقول له:

ـ لن يحضروا شيئًا يا باسل، إنها النهاية، وما هي إلا أيام وينتهي كل شيء

تتذرف دموع باسل ساحبة على وجهه ، يقول :

ـ لا تقل ذلك يا عم السعيد، ستعيش إن شاء الله، وستخرج معي من هنا منصورين فخورين بما حدث .

ـ إنه الموت يزحف نحوي يا ابن صديقي

يصرخ باسل وحوله خالد وبعض الشباب يخففون عنه ، يربت خالد على كتفه ويقول :

ـ هون عليك يا باسل، إن شاء الله سيكون بخير .

يهز باسل رأسه والدموع تتطاير وتتناثر من عينيه يمنة ويسرة ويقول :

ـ إلى هذا الدرجة صرنا رخصاء ، إلى هذه الدرجة أصبح الإنسان رخيصًا في هذا البلد، إلى هذه الدرجة نموت كالكلاب والحيوانات، بل إن الحيوانات تجد من يرعاها، ويخفف عنها آلامها، من يسعفها يعالجها ويداويها، تجد من يدفنها عندما تموت، أما نحن نموت هنا في هذه القبور وندفن فيها أو في رمالها المهيلة حولنا، ما أرخصنا ! ما أرخصنا !

ويجهش باسل في بكاء ونشيج ونحيب وعواء طويل ، يهز القلوب القاسية بل يفت الأحجار الصلبة والجدران الصامتة حولهم .

(١٧)

عاش سيف باشا ويلات الوحدة والانعزال والخوف والقلق في قصره في عزبته كثيرًا، ومازال يعيش تلك المشاعر في قصره المُحاط بالأشجار والحدائق في حي حدائق القبة ، يحاول الفكاك من أسر خوفه، وقيد قلقه وأغلال جبنه التي تطوق رقبته ، قد رضي بالاستسلام، والرضا بالقهر والظلم ، ولكنه عانى وقاسى محاولات متعددة للفكاك من هذا كي يعود حرًا مرة أخرى .

لم يعد هناك مجال للخوف، فعلى أي شيء يخاف؟ على المال ، المال والثروة والأطيان لن تكون أغلى وأثمن من الولد الذي ظل يتمناه حتى هذه اللحظة، تزوج بأربع نسوة إحداهن امرأة ريفية قد تَزوجت قبله وأنجبت من البنين والبنات ثلاثة، ولكنها لم تنجب منه، لم يكن العيب منها، فطلقها بعد مرور عام على زواجهما .

كان يريد أن يكون له عقب في هذه الدنيا من صلبه يرث ثروته وتركته وأطيانه الشاسعة، ولكن تيقن مما لا يدع مجالاً للشك بعد فحوصات وتحاليل كثيرة ، والذهاب هنا وهناك خارج مصر في أنحاء شتى من العالم ، ولكنه باء بخيبة أمل ورجع وهو مُتيقن أتم يقين أنه عقيم، ولن يصبح له عقب من صلبه لعيب فيه ، فرضي بالأمر الواقع ، ووهب حياته للآخرين .

لم يكن من طراز أولئك البشوات الإقطاعيين الذين يسخرون الناس من أجل خدمتهم يسوقونهم بأذناب البقر في وضع قمعي أشبه باليهود أو النازيين ، فلم يكن مِثلهم، كان طيب القلب معهم، عطوفًا عليهم، رحيما بهم إلى درجة عظيمة، فأحبه الناس حبًا شديدًا ، وعندما صار وزيرا ظل كما هو لم يتغير أو يتبدل كمن تغيره السلطة أو تُبدله الكراسي أو تبعده المناصب عن أهله وناسه .

فظل كما هو لم تتغير مُعاملته معهم، ولم يغتر بمنصبه الزائل، بل شعر أنه حمل أعباء وأثقالاً أكثر من أي وقت مضى، فكان يخدم الجميع ، كل من يحتاج منه شيئا ويقدر على فعله يفعله بدون تردد ، فأعان من يحتاج إلى إعانة ، وكان يُقيل العثرات، ويشد من أزر العمال والفلاحين، وسعى في إعطائهم حقوقهم التي سلبت، ونهبت منهم برد بعض الأراضي المسروقة ظلمًا وعدوانا إلى أصحابها، فلم يَسلم من كيد الحاسدين وأصحاب المطامع والمصالح من ذوي الأملاك والضيع الوافرة ، والأطيان والإقطاعيات من أمثال : عزام الشماس " كبيرهم الذي خطط ودبر له مكيدة ، وفضيحة أطاحت بمنصبه الوزاري ، ولكنها لم تطح بحب الناس له ، بل زاد ونما هذا الحب عقب هذه الحادثة بعد مَعرفتهم بأن الشماس الخائن وراء ما حدث له ، فطفح مقتهم له، وغصت قلوبهم بحبهم الشديد لسيف باشا الذي زلزلت حياته بعد هذه الفضيحة فهزت سمعته، وزرعت الريبة والشكوك في

نفوس البعض. حيث تركه المنافقون الذين كانوا يلتفون حوله وهو في أوج سلطته، وداروا حول الشماس يَهتفون تحت رايته مشوهين صورة سيف باشا أكثر وأكثر أمام الناس، ولكنه أتعبهم وأشعل نيران الحقد في صدورهم لما ثبت وظل صامدا لم يتزعزع في تحد عظيم لهذا الطاغية الذي عزم على القضاء على سيف باشا وإنفاذ ثأر والده القديم الذي قتل وعزام ابن خمس سنوات .

فعزم على تخليص جميع ما يجول في صدره منه ، وانتهزها فرصة فضرب على الحديد وهو ساخن، فخرجت نِيران حقده وانتقامه تجول وتصول في عزبة سيف باشا تلتهم كل ما يقابلها، ابتلعت مزارعه، ومحاصيله وشوت بهائمه ، وكبدته خسائر فادحة.

كان سيف على يقين تام أن عزام الشماس وراء ذلك فلجأ إلى القضاء يتهمه بأنه وراء ذلك الحريق الهائل الذي شوه عزبته، وجعلها رمادًا، ولكن مصر وقتئذ قوانينها كانت تسري على ناس دون ناس، فوقف القانون عاجزًا عن أخذ الحق من عزام الشماس، وإنصاف الباشا الذي نسي أن مصر حينها لم تكن تدار سوى بقانون الإنجليز وأعوانهم من الخونة والمتآمرين ، فعاد صفر اليدين من الاقتصاص من هذا الطاغوت، رجع "يدا أمام ويدا ورا" كما يقال، لم يأخذ حقا، ولكنه رأى الباطل يسود ويعم، وقيدت القضية ضد مجهول مع علمهم الشديد بأن الباشا بريء،

وأن الشماس وراء كل ما حدث له، ولكن الأوامر العليا جاءت بتربئة الشماس، وإدانة سيف باشا وسجنه بتهمة الادعاء الكاذب وتشويه سمعة بريء موالي للحكام الفعليين .

ولكن حبسته لم تطل، فلم يتخل عنه صديقه الوفي " عبد المجيد باشا " بعدما تخلى عنه كل المقربين والأفاكين والمنافقين، وبقي وحيدًا في محنته إلا ما كان من عبد المجيد باشا الذي يعرف جيدًا من هو عزام الشماس ، ويعرف أيضا من هو سيف الدين باشا بن نشأت باشا ، واستطاع باتصالاته الرفيعة وبمنصبه العالي ، وعلاقاته المتعددة أن يزيل وحشة صديقه فصدر أمر بالإفراج عنه ، فخرج قويًا أمام الناس ضعيفًا أمام نفسه ، خائرًا من الداخل كان يتظاهر بالقوة والثبات والشجاعة أمامهم بينما داخله يغوص في بحار من الخور والوهن والجبن والخوف المريع، ولكنه كان يخفي ذلك كما أخفى نفسه في عزبته التي أحرق شطر كبير منها ، ولكنه بعزيمته، وبمن وقف معه من أهل العزبة ، وبطرد السراق والنهابين أمثال مصطفى استطاع أن يعيد العزبة إلى سابق عهدها من الخيرات الكثيرة .

ورغم مُحاولاته واجتهاده مع الفلاحين والزراع أن يعيد العزبة إلى سالف أمرها حاول في خضم ذلك أن ينسى ما حدث ، وما ألم به ولكنه لم ينس ، بل كان الأمر يزداد معه سوءا ، فاستكان

داخل نفسه، وركن إلى الخضوع والاستسلام، وأخذ عهدًا على نفسه ألا يتدخل في الأمور السياسة مرة أخرى وألا يتقرب من السلطة، وأمور الحكم حتى ولو بكلمة واحدة بعدما كاد أن يفقد حريته بسببها، فقد ترسخ في يقينه أن هذا الطاغية سلطته واسعة جدًا وعلاقاته شاسعة ، وكلمته مسموعة وأوامره منفذة حتى على أعتى البشوات وذوي المناصب والسلطة والحكام في مصر .

وبدأ يعيش في حالات من الرهبة عندما يسمع اسمه أو يمر عبر خاطره ولكن ما حدث لباسل والسعيد وزوجته ونظرات العتاب واللوم التي رأها وظل يراها منهم ، ومن أهل العزبة جعلته ينتفض من الداخل ، ويثور على خوفه وفزعه ورعبه ، ورأى أن ينتصر على كل ذلك خاصة وقد طال عمره فعزم على الصمود، والوقوف في وجه هذا الطاغية، فليس هناك ما يقلق عليه ، المال؟ ليس له قيمة إذا فقد الإنسان شَرفه وحُريته وكرامته .

فحطم كل قيود الخوف ونزع أغلال الجبن والخور ظاهرًا وباطنًا ورأى أن يتحرر من هذا السجن الذي سجن نَفسه فيه منذ أن خرج من السجن الحقيقي وصمم أن يعود إلى سالف عهده من القوة والكرامة، فلم يتردد ولو للحظة واحدة فيما أقدم عليه ولم يفكر في عواقب ذلك ، وذهب مباشرة إلى صديقه الحميم " عبد المجيد باشا " الذي بذل أقصى جهوده حتى يعرف المكان الذي سجن فيه باسل والسعيد بأمر من الشماس .

واستطاع بعد تعب واتصالات عديدة من قلة بعدما أحجمت الكثرة عن التدخل في أمر يخص الشماس، ولكن مازال هناك من الشرفاء من أهل هذا البلد الذين ساعدوا عبد المجيد باشا في معرفة مكان باسل والسعيد بل ساعدوه فيما أكبر من ذلك وهو تَدخلات بعضهم في الإفراج عنهم .

ونجحت تلك الجهود وصدر أمر بالإفراج عن باسل والسعيد الذي تدهورت صحته بدرجة كبيرة وأحس أنه شارف على النهاية فأخذت أنفاسه تتقطع وصوته لا يريد الخروج، وسكاكين من الألم مغروزة في جميع أجزاء جسده فأيقن أنه الموت فنظر إلى باسل بحب وعطف وتسامح، يبادله باسل نظرات اشتفتها الدموع التي ساحت وانسابت على رأس السعيد وقد وضعه باسل على فخذه الأيمن وفرد رجليه له كي يأخذ راحته، انسلت الدموع من عيون باسل وخالد الجالس عند قدمي السعيد يربت عليهما بلطف ، بينما السعيد يرفع يده في بطء ورفق يمسح بهما دموع باسل ، ويقول وكأن الروح بلغت الحلقوم:

ـ لا تحزن يا باسل، ولا تلوم نفسك، لا حزن بعد اليوم يا ابني، أنا وأنت صرنا على الطريق الصحيح، نحن على الحق يا باسل فلا تخف من شيء أبدًا .

ـ أرجوك لا تتكلم ، ولا تنطق بحرف ، اصمت من أجل راحتك، استرح قليلاً فلن تمت الآن .

ويصيح فيمن حوله بصوت باك يرج أركان السجن:

- نريد طبيبًا بسرعة، أرجوكم نريد طبيبًا

يبتلع السعيد ريقه ويقول:

- الطبيب هو الله، هو الشافي عز وجل، ولن يقدر أحد مهما كان أن يمنع الموت عن أحد، فالموت آت لا محالة ولا مفر منه .

وأحس بحشرجة في صدره، فتجرع باسل ريقه وهو منهار من البكاء والنحيب يقول :

- لا ، يا عم السعيد ، تجلد أنا محتاجك بجواري ، لم ينته مشوارنا بعد

- يا باسل ، اعتنِ بأمي وبأم هاشم زوجتي اجعلها مثل أمك.

- أرجوك اصمت، اصمت ، يا أستاذي وشيخي ومعلمي الأول

ومازالت يد السعيد على وجه باسل تداعب خصلات من شعره متدلية على جبهته، يبتسم له، وقد بدأ الموت يدب فيه فانفطر فاه ناطقا بالشهادتين وتسل روحه من جسده ، وتهوي يده على الأرض، يخفض خالد بصره في الأرض ، وهو يبكي بُكاء مريرًا ، ويبكي من حوله .

بينما باسل لا يُصدق يحركه يمنة ويسرة يهزه يرفع يده فتخر مرة أخرى ينظر في عينيه المبرقتين ، يتجرع نفسه يزفر

ويشهق يهزه يرفع يده فتسقط بشدة، إنها الحقيقة، لقد مات، مات السعيد، فترتعش يدا باسل، ويرتجف فؤاده، وتجحظ عيناه من الذهول ويسود القاعة صمت رهيب يقطه صراخ باسل بعدما ألقى برأسه على رأس السعيد صارخًا صرخة تردد صداها بين جنبات المعتقل قد أهالت رمال الصحراء واهتزت الجبال بتلك الصرخة المدوية:

- لا!!

●●●

(١٨)

دخل باسل والسعيد المعتقل معًا وها هو الآن يخرج بمفرده ، ودع أترابه ورفقاءه ، وكان آخرهم خالد الذي ظل يحدق فيه ، وفي وجهه بسمة تعلوه حتى ذَرفت دموعهما وغرقا في حضنٍ طويل ، قد أنهكهما النشيج والبكاء

آن وقت الفراق بعد أن تعودا على بعضهما، وصارا كأخوين شقيقين ، ولكن وقت الفراق حل فانصاع له باسل وخرج وكله أمل تحدوه أهداف كثيرة وغايات على رأسها رعاية أم صديقه وزوجته .

ثم الثأر والانتقام من عزام الشماس ، والبحث عن ليلى سبب التغيير الذي حدث له بعدما كان يعيش حياة هادئة كريمة ، فلم يعد يشغله ذلك بعدما خرج لم تعد تهمه تلك الحياة الهائدة الكريمة في عزبة الباشا، ما يصبح فيه يمسي فيه بدون هدف أو غاية في الحياة .

قد عرف طريقه أخيرًا وعليه السير فيه مع علمه أنه طريق مَحفوف بالمخاطر ، وربما يفقده حياته، ولكنه لم يعد أمامه مناص وقد دخل في مكائنهم وعرف كثيرًا عما كان يجهله في هذا الوطن مما يحدث في الخفاء والعلن من فساد وطغيان وظلم وقهر.

وقبل أن يتخذ أي خطوة ذهب إلى الباشا ليشكره على وقوفه بجواره في محنته، وإخراجه منها ثم طلب منه أن يذهب قريته ليعيش فيها بجوار أم السعيد وزوجته، فلم يعد لهما عائل غيره الآن، وقد حمله السعيد أمانة رعاية أهله من بعده .

ولم يَكن باسل بذلك الخائن المنافق الذي إذا اؤتمن خان ، كيف وهو مازال يشعر أنه السبب فيما جرى للسعيد ؟!

وظل هذا الإحساس يؤرقه ويعكر عليه صفو حياته، ولن يمحو شيئًا منه أو يخفف وطأته إلا أن يوفي دينه ويرد الجميل والمعروف، فآثر أن يترك ما كان ينعم فيه في عزبة الباشا، وطلب منه أن يذهب للعيش في قريته بجوار أم السعيد وأم هاشم، ولكن الباشا أبى ذلك بشدة، فمازال متمسكا بباسل ، لن يتركه أبدًا مهما حدث، وطلب إليه أن يحضر أم السعيد وزوجته للمعيشة في العزبة معززتين مكرمتين، وسوف يهيء لهما منزلاً صغيرًا، ويحضر لهما فتاة تخدمهما، وتقوم على رعايتهما، ويكونان بجوارهم في العزبة .

ابتسم باسل من كلام الباشا، ورأى في ذلك أفضل الحلول، فقريته لم تعد مصدر أمان، وهنا في أرض الباشا ستنعمان وتكونان بجوار باسل والباشا وأهل العزبة الطيبين .

فرح باسل بقرار الباشا، وذهب في سيارة الباشا، يقودها سائقه ليحضرهما ظنا منه أن هذا الخبر سيفرحهما بعد حالة

الحزن التي اكتنفتهما بعد وفاة السعيد، ولكنه صدم بحالة من الحزن والسواد تغطي المكان، فقد فقدت أم السعيد قدرتها على الكلام بعد علمها بوفاة نجلها حتى الإحساس بمن حولها فقدته ، صارت كالموتى في عالم آخر .

دخل عليهما فوجد أم هاشم تسقيها من القلة ، وهي ممدة على حصير على الأرض في وسط الدار، بينما بقي السائق في السيارة ينتظر باسلا حتى يخرج وهما معه، ولكن باسل لم يخرج، وظل جالسًا على الحصير ينظر تارة لأم هاشم البائسة، وتارة لأم السعيد التي تنظر في سقف البيت الخشبي دون حراك، والماء يطفح من فمها، انتبه باسل لذلك فصاح :

- الماء ياست أم هاشم

فتنبهت أم هاشم ورفعت القلة مُسرعة فوجدت الماء يلفظ من فمها على جسدها

رمت القلة فانكسرت واقتربت في فزع منها تحركها وتقلبها فلم تجد حراكًا ووجدتها قد شخصت ببصرها، وتجمدت أطرافها فنظرت نحو باسل فوجدته قد أخفض رأسه يبكي ويتهدهد من البكاء، فأطلقت صرخة ندب مدوية.

لم يتركها باسل في هذه الظروف، وظل حتى دفنت أم السعيد، وأقام لها عزاء كبيرًا، وممن جاء للتعزية الباشا سيف الذي عزى

باسل وربت على كتفه، وهو يهز رأسه حزنًا وأسفًا، ثم مال على أذنه يهمس فيها بسرعة إحضار أم هاشم إلى العزبة، فلم يعد لها أحد في القرية، ولن يصلح أن تبقى بمفردها هنا دون راع .

هز باسل رأسه بالموافقة، وظل حتى مرت ثلاثة أيام ثم كلمها في هذا الأمر فأبدت رفضًا في بداية الأمر ، ولكن باسل جعلها في النهاية تُوافق بإقناعه لها فكيف تبقى لوحدها هنا بدون راع كما إنها إن لم تذهب معه سيظل بجوارها هنا، ويعمل أي عمل، وسيترك الباشا ولن يتركها بمفردها أبدا مهما حصل حتى لو كلفه ذلك حياته فأبى أن يعود إلا معها .

ابتسمت له أم هاشم ومررت يدها على شعره، ودعت له الله عز وجل أن يكرمه، ويستره في الدنيا والآخرة، قبل يدها ورأسها، وساعدها على الوقوف .

أخذت تتهيأ لترك منزلها فجمعت أغراضها وأغراض زوجها وأمه، وطفقت تودع منزلها بنظرات باكية ربما تكون هذه آخر نظرات لها إلى هذا المكان وتابعت نظراتها وهي في سيارة الباشا مع باسل في طريقهما إلى عزبة الباشا كانت نظراتها هذه المرة على جدران القرية، وبيوتها وأشجارها وحقولها وزروعها وثمارها وأهلها الذين وقفوا أمام بيوتهم يودعونها بالنظرات والعبرات ، والإشارات بالأيدي .

تناثرت ذِكرياتها في هذه القرية أمام عينيها وهي ترحل منها ربما إلى غير عودة، كانت الذكريات تتراءى لها، ذكريات لها مع زوجها وأمه، وذكريات لها في طفولتها مع أخواتها البنات، لم يخطر يومًا ببالها أن تترك هذا المكان لأي سبب .

لم يكن كلام باسل هو السبب الوحيد لترك هذه القرية، وإنما رغبتها في البعد عن ذكرياتها وعن ماضيها في هذا المكان الذي شهد أحلى أيامها مع زوجها في ذلك المنزل الذي يشهد كل ركن فيه على حبهما، وحسن عشرتهما لبعضهما، فكيف تَصحو في الصباح ولا تسمع صوت زوجها ينبعث من خارج الدار مُناديًا بالفطور والشاي؟!

كيف تعيش في المنزل بمفردها وفيه رائحة زوجها وأمه، مازالت تنبعث من كل ركن فيها، ربما تموت أو تنتحر أو تجن إذا ظلت بمفردها وحيدة لا ترى زوجها أمامها .

من أجل ذلك آثرت الذهاب مع باسل، وإن كانت رافضة في البداية، ولكنها في النهاية رحلت معه إلى العزبة حيث الباشا واقف في انتظارهما في مدخل قصره، آخذا بيدها ليوصلها إلى منزلها الجديد على بعد مئة متر من القصر

كان منزلاً مُغلقًا منذ سنين، عبارة عن استراحة مكونة من خمس غرف وحمامين ومطبخ كبير، كان ينزل فيها بعض أصدقاء الباشا .

ولم يعد الباشا يستقبل أحدًا منهم، لأنهم تخلوا عنه ، فلم يعد لها قيمة لديه فأمر بإغلاقها، ثم أمر بفتحها وتهيئتها لأم هاشم المذهولة من هذه الاستراحة البشواتي ، وكأنها قصر مفعم بالأثاث الراقي والتحف الأنيقة والديكورات الرائعة .

في البداية قلقت منها، وهرعت خارجة منها مسرعة في مشيها ، ولكن الباشا وباسل طمآنها بأنه لا داعي للقلق سيكون هذا مَنزلها ، ومقرها الجديد ومعها " زينب " فتاة صغيرة عمرها خمسة عشر عامًا ، ستكون معها في خدمتها ، ورهن إشارتها .

وجدتها أم هاشم ترنو إليه في حب، كانت فتاة بيضاء ذات ابتسامة طرية وعود ممشوق ، وثديين أعجرين، وفستان وردي يلف جسدها اللين، هشت لها أم هاشم ، وابتسمت قبلتها عيناها، ودخلت قلبها .

ابتسم باسل والباشا لما رأيا ابتسامة أم هاشم التي غابت منذ زمن، فرحا جدًا بعودة ابتسامتها تكلل وجهها .

أحس باسل براحة نفسية وطمأنينة تجتاب صدره، وإن كان هناك حزن يعشش في عينيه، ويظلل هامته، اندهش الباشا من أمره، فقد ظن أن أحزانه زالت ، وانتهت بقدوم أم هاشم إلى العزبة لتكون تحت رعايتهما وفي كنفهما ردًا لشيء من جميل السعيد، ولكنه استغرب من العبوس الصامت الذي يجوب في وجهه ويترقرق، فلم يتردد في سؤاله عما به، فقال له :

- لا شيء ياباشا، كله تمام، وأشكرك جدًا على ما فعلته من أجلي، ومن أجلي زوجة عم السعيد .

- هذا شيء قليل على ما قدمتوه لي يا باسل، ولكن دعك من هذا الكلام الآن هناك شيء بداخلك يحزنك .

- صدقني يا باشا لا يوجد شيء يحزنني، أنا ما يشغلني الآن هو كيفية الانتقام من عزام الشماس هذا هو شاغلي .

- سيأتي يوم وننتقم منه كلنا يا باسل، لكن لا تتهور، ولا تقحم نفسك في مشاكل معه، فلن نقدر عليه .

- كل هذا محل تفكير، والتعامل معه يحتاج لرؤية وتخطيط كبير، فهو محاط بجيش من الأنصار والأتباع والحراس .

- جميل أنك تفهم ذلك جيدًا، ولا تقلق ، فنهايته قربت، هناك كثير ممن ظلمهم هذا الطاغية يريدون القصاص منه، ووقت القصاص أظنه بات وشيكًا

نظر باسل للباشا، وابتسم له ابتسامة لينة كأنه يريد أن يقول له شيئًا بعدما تذكر صديقه خالد ، قال :

- كنت أريد منك طلبًا آخر يا باشا

- أي طلب يا باسل؟ تكلم

- أنا أعرف أني أثقلت عليك، ولكني تذكرت شخصًا عزيزًا علي الآن، لما تحدثت عمن ظلمهم الشماس .

- ماذا به هذا الشخص ؟

- هذا الشخص اسمه خالد صحفي كان معتقلا معي ظلما في المعتقل أيضا بسبب عزام الشماس، هو مَظلوم قد فقد أسرته كلها وصار وحيدًا في هذه الدنيا وبالرغم من ذلك اعتقلوه وساموه سوء العذاب

- تريد حريته؟

- أريده أن يخرج من هناك، لو لم يكن عند معاليك مانع ؟

يبتسم الباشا ويقول:

ـ لا تقلق يا باسل ، سأبذل قصارى جهدي لأخرجه من هناك، فلا تقلق

يتمادى باسل في ابتسامته وينحني ليقبل يد الباشا ولكنه يسرع بسحبها، وهو مبتسم يفرك شعر باسل ويربت على كتفيه .

●●●

(١٩)

انتفض عزام من كرسيه غاضبًا، وأمامه جلال وأنور بعدما أخبراه بأنهما وجدا يعقوب الجواهرجي مَذبوحًا في دكانه ، قد فصلت رقبته عن جسده وصاح فيهما :

ـ كيف حدث هذا ومتى؟

تجرع جلال ريقه وقال:

ـ أمس ليلاً

ـ ومن فعل ذلك؟

ـ لا أحد يدري حتى الآن؟

يهز عزام رأسه يمنة ويسرة ويغطي وجهه بيديه ثم يسحبهما بعنف وهو يتنفس بصعوبة ويقول :

ـ الأمور بدأت تتأزم وتتعقد أكثر، أنتما تخبراني الآن أن يعقوب قُتل، وحسني ومرسي يخبراني أن باسلا خرج من المعتقل، يعني كل مافعلناه ذهب أدراج الرياح، وكأننا ما فعلنا شيئًا، وليلى مازالت هاربة، وموقفي صار زفتا وخراء أمام السلطات البريطانية، فماذا أفعل الآن؟ أأقف في مكاني وأترك إمبراطوريتي تتهاوى أمام عيناي، ماذا أفعل؟

اتقدت نيران الغضب بداخله فاحتد واحتدم، ودفع فازة فخمة من على منضدتها فوقعت وتهشمت، وهو ينفث غضبه الذي طفر من عينيه بعدما طفح به صدره ونظر من نافذة مكتبه المطل على حديقة قصره وخلفه جلال وأنور مرتبكين ثم قال :

ـ لم يخرج باسلا من هذه الورطة إلا سيف عن طريق عبد المجيد باشا الذي أنقذه المرة الفائتة، ولكني الآن لست في مزاج كي أعيد انتقامي منهم، سأرجئ هذا الانتقام لحين العثور على الفتاة، وعندما أنتهي منها وأقدمها لهم أتفرغ لباسل ولسيف ولعبد المجيد باشا، لكن الآن ماذا أفعل كي نعثر على هذه الفتاة؟

تنحنح أنور وقال بصوت مبحوح :

ـ عندي فكرة يا عزام باشا

قال له دون أن يلتفت إليه :

ـ تكلم

ـ نأتي بفتاة ونقدمها لهم على أنها هي .

ينظر جلال إلى أنور بينما يظل عزام واقفًا ثابتًا في مكانه كأنه يفكر ثم قال:

ـ فكرتك هذه فكرت فيها قبل ذلك، ولكن حرس الجنرال يعرفون شكلها جيدًا ، فقد فشتوا كل شيء في الغرفة حتى فستانها

قبل أن يدخل عليها الجنرال، وأيضا صورها نشرت في الصحف والجرائد والمجلات، وبات الكثير يعلم شكلها، فكيف نفعل ذلك يا ذكي عصرك، كنت أظنك داهية يا أنور، ولكنك أثبت أنك غبي، السلطات البريطانية لا تخدع بسهولة يا أغبى خلق اللّه .

نظر أنور إلى جلال ثم إلى ظهر عزام ثم قال :

ـ لن نأتي بأي فتاة، سنبحث عن فتاة في مواصفاتها قريبة من شكلها ومن ملامحها ثم نُقدمها على أنها هي .

صمت عزام قليلاً ثم التفت إليهما مُبتسمًا وقال :

ـ الظاهر أني سأعدل رأيي فيك مرة أخرى يا أنور، يا داهية عصرك

●●●

(٢٠)

لم تكن الفترة التي تصادق فيها باسل وخالد طويلة، وبالرغم من ذلك حدثت بينهما أشياء عظيمة، وجمعت بينهما روح طاهرة نابعة من حب الخير، في خلال هذه الفترة القليلة تعلم باسل من خالد حقيقة حب الوطن التي باتت تسري في دمه بعد خروجه من السجن، عرف أشياء لم يكن ليعرفها إلا في هذا المكان الخالي من الأحقاد والأدناس المشع بالنور وبالحب وبالدفء يضمهم جميعًا في أحضانه كأم تحيط أولادها بذراعيها .

صاروا إخوة كلهم وإن تفاوتت مراتب الإخوة ودرجات الصداقة، فصار خالد لباسل كالشقيق وكالشطر المفقود مِنه منذ ولد وأخيرًا عثر عليه، ومن أجل اكتماله وتمامه سعى له ليخرج من هذا القبر الدجوجي، ونجحت مساعي سيف باشا كما نجحت من قبل مع باسل، وتم الإفراج عنه، وهو في قمة الدهشة والاستغراب يسأل نفسه :

- من وراء هذا الإفراج المفاجئ؟

وانقطع شيء من تلك الدهشة وانصرم جزء من ذلك الاستغراب لما وجد سيارة فارهة سوداء، تنتظره خارج باب المعتقل، أمامها يقف سائقها ينادي على خالد، فَيتعجب خالد من هذا الرجل الذي ينادي عليه وهو لا يعرفه، فيتحرك نحوه وهو قلق منه ، ويتحرك الآخر نحوه فيتقابلا في منتصف الطريق، يحدق فيه خالد ثم يقول :

ـ أأنت تعرفني؟

ـ نعم أعرفك، أنا سائق سيارة سيف باشا

يصمت خالد برهة يفكر وكأنه سمع هذا الاسم قبل ذلك ، فيزيل السائق شيئًا من استغرابه ويقول :

ـ سيف باشا الذي أخرج باسلا صديقك من هذا المعتقل وهو أيضا الذي أخرجك .

ربط خالد بين باسل وسيف باشا الذي حكى له باسل كثيرًا عن شهامته وطيبته ورقة فؤاده وحنانه وعطفه عليه وعلى جميع من يعمل عنده ، فيبتسم ويقول :

ـ باسل .... أين هو الآن ؟

ـ هو مع سيف باشا في انتظارك في العزبة .

كان خالد طيلة الطريق، وهو جالس في السيارة المتجهة نحو العزبة يفكر في باسل ويفكر في السنوات العجاف التي مرت من عمره في المعتقل ويفكر في حياته الجديدة بعد خروجه ماذا سيفعل؟ وكيف سيكون حاله؟ هل يعيش مع باسل في العزبة ، ويرضى بأي عمل هناك ويتوارى عن عيون الجميع ويظل في سجن آخر أوسع مما كان فيه وينسى أحلامه وآماله ويترك قضيته الأساسية التي عاش عمره يدافع عنها، وأهدافه النبيلة التي هي أهداف جميع الأحرار في هذا الوطن.

هل ينسى كل ذلك وينسى نفسه ويلقيها بين الحقول يزرع ويحصد أو يتابع ويشرف على الفلاحين، ويجلس في العصرية تحت شجرة يشرب الشاي وبعد العشاء يختفي تحت اللحاف ينام مبكرًا ويصحو مبكرًا ، وتصبح حياته على هذه الحال أكل وشرب ونوم، فما أشبه هذه الحياة بحياة البهائم ؟

ظل يفكر في هذا الأمر طيلة الطريق يظن أن باسلا سيرضى بهذه الحياة مرة أخرى يأكل ويشرب وينام يأكل ويشرب وينام يأكل ويشرب وينام إلى أن يأتي يوم ينام ولا يقوم إلا يوم القيامة، ولكنه ذهل من موقف باسل الجديد وإن اختلف معه في الطريقة، ولكنه فعلاً أعجبه قوله ورأى فيه إنسانًا آخر لا يقبل بالأكل والشرب والنوم فقط كما تَفعل البهائم.

فبعد لقائهما الحار واحتضانهما الذي طال دقائق وتقديمه إلى الباشا الذي فرح به جدا، وفرح به خالد الذي شكره على صنيعه معه وأعجب برده عليه لما شكره :

ـ هذا أقل شيء نقدمه لإنسان وطني مثلك، حق على الجميع أن يقبلوا رأسك يا خالد، لا تحسب نفسك غريبًا هُنا، أنت في بيتك الثاني.

لم يشعر خالد بغربة أو بِوحدة بعد هذا اللقاء الرطب من الباشا ومن باسل الذي أخذه من يده بعد لقائه به وبالباشا وتمشيا في حديقة الزيتون والليمون ليفرجه عليها ، وفي نفس

الوقت يَتحدثان سويا في أشياء مُهمة وخطيرة بالنسبة لباسل الذي رد على سؤال خالد له أثناء حوارهما :

ـ ماذا ستفعل الآن ؟ هل ستبقى هنا وتَعيش كما كنت تعيش سابقًا أم ماذا ستفعل ؟

رد عليه باسل بعد لحظات من الصمت :

- أنا أخيرًا عرفت طريقي يا خالد

- أي طريق ؟

- الطريق إلى الحق والحقيقة التي عرفت معناها منك .

- أنا أعلم أنك تريد أن تنتقم من هذا المجرم الشماس الذي عذبك أنت وعم السعيد وأودعكما السجن .

- وهذا هو قراري وطريقي وهدفي في الفترة القادمة

- كيف؟

- سأنتقم لنفسي ولليلى وللباشا ولمصر كلها من هذا الطاغية الخائن

- كلنا سننتقم لمصر ولشعبها يا باسل، ولكن كيف ؟ ما الوسيلة في نظرك؟

- الدم

- الدم !!

- نعم ، سوف أجز رقبة هذا الكلب، وأخلص الشعب من شره ومن خيانته وظلمه وجبروته، وسأنتقم ممن يعاونونه ويساعدونه من زبانيته وعلى رأسهم الخماسي: جلال وأنور وحسني ومرسي وعامر، هؤلاء الخمسة الذين أذاقوني أنا وعم السعيد أشد أنواع العذاب ، هذه هي قضيتي القادمة حتى تتحرر مصر من هؤلاء وأمثالهم .

- ولكن يا باسل هذا الطريق محفوف بالمخاطر

- حياتي لم يعد لها ثَمن أمام الحرية وتحقيق العدل ، فإلى متى سنستكين ونخضع لهم؟

- ومِن منا يستكين ويخضع ؟! كلنا نجاهد من أجل أن يتحرر هذا الوطن

- وماذا فعلتم؟ مازالت مصر مصفدة في الأغلال ، ترسف في القيود والأصفاد .

- كل منا له وسيلته يا باسل ، صحيح أن الغاية واحدة لكن وسائلنا مختلفة ،أنا ومن معي نجاهد وندافع بالقلم ،بالكلمة.

- أما أنا فجهادي سيكون بالسيف، وهذا هو الطريق الحقيقي للوصول إلى الحقيقة والحق .

- لا يا باسل، لا تَحصر الطرق في طريق واحدة، كل واحد من الشعب يدافع بالطريقة التي تناسبه والتي يقدر عليها ولا يقدر على غيرها

- سنون طويلة ونحن مازلنا مقرنين في الأصفاد، كل يوم يَستحكم الذل ويستعمرنا أكثر وأكثر، لذلك السيف والقوة هما الطريق الوحيد للاستقلال، لا يفل الحديد إلا الحديد، الكلمة لا تفل الحديد ولا حتى الخشب

- الكلمة تفل الحديد وتفت الحجر الأصم

- لا نسمع منكم إلا شعارات

يتضايق خالد، ويَنزعج من كلام باسل، ويتوقف عن السير بين أشجار الزيتون ويقول :

- هذه ليست شعارات ، هذه وطنية

- الوطنية التي تعلمتها مِنك في المعتقل هو أن أبذل روحي في سبيل الآخرين أليس هذا كلامك ؟ ألم تَحك لي عما فعل بأبيك، وما فعله أخواك؟! أم أنك تناقض نفسك ؟

يتنفس خالد بهدوء ويعود لطبيعته الهادئة بعدما احتد وقال:

ـ ليست هُناك مناقضة، قلت لك الغاية واحدة لكن الوسائل متعددة ومختلفة ، ولكها تتكامل من أجل هذه الغاية، وكل منا يحمل روحه على كفه

ينظر باسل لخالد ويقول :

- لكن طَريقك طويل ومشوارك يحتاج عمرًا فوق العمر، أما طريق الانتقام والاصطلام ونزع الرؤوس هو أيسر طريق

- الكلمة أيضاً لها وزنها، فالكلمة غيرت الكثير في شعوب العالم، مثل ثورة العبيد في أمريكا و...

- كل هذا كلام وجدال، دعنا منه الآن

ويمد باسل يده لخالد ويقول :

- هيا مد يدك في يدي ونكون جَبهة قوية نُساعد بعضنا في القصاص من عزام وأمثاله

ينظر خالد إلى يد باسل الممدودة، ولا يتحرك فَيندهش باسل، ويقطب وجهه وينزل يده ويقول :

- الظاهر أننا مُختلفان، وأن طريقك غير طريقي

- لسنا مختلفين يا باسل، وسوف تعرف ذلك بنفسك، والآن سأتركك وأرحل ولكن انتظرني ربما أعود إليك مرة أخرى

يهز باسل رأسه في حسرة ويقول :

- إذن سأخوض هذه الحرب وحدي، ولن أكون خائفًا

- ألم تجمع حولك بعضًا من أبناء هذه العزبة ؟

- لم أجمع بعد، ولكني سأحاول، فما رأيك تمكث معي فترة كي تجمع حولي بعض أبناء القرية فأنت بارع في الكلام وفي الخطابة .

- أنا واثق من أنك سَتستطيع أن تجمعهم حولك ، وهذا ليس خذلانا مني لك ولكني متعطش للكفاح في الجبهة الواسعة في العاصمة

- فلتنتظرني أنت أيضًا يا خالد، ربما تتسع جبهة كفاحي وتصل العاصمة ولكن على طريقتي

يربت خالد على كتف باسل ويقول :

- حافظ على نفسك يا باسل

- الحافظ هو الله

- أستودعك الله عز وجل

- انتظر يومًا أو يومين لتسريح من وعثاء السفر وتعب السجن

- راحتي ستكون في شقتي في القاهرة

ينظر باسل إليه مُبتسمًا، ثم يمد يديه يحتضنه ثم ينخلع باسل من الحضن ويقول:

- كنت أتمنى أن تَعيش معي هنا في هذا المكان الجميل.

ـ كل واحد منا تَعود على شيء من الصعب الانفكاك عنه.

يضع باسل يديه حَول رأس خالد ويقول :

ـ مهما اختلفنا سَتظل لي الأخ الذي لم تلده أمي والمعلم الذي علمني كثيرًا .

●●●

(٢١)

حمل باسل نفسه أحمالاً ثقيلة من جهة رعاية أم هاشم، والقيام على شئونها كلها، فلم تكد تمر ساعة إلا ويذهب يطمئن عليها ، ومن جهة أخرى ما يجول في خاطره من رغبته الحتمية في الانتقام والثأر من هذا الطاغية عزام الشماش الذي سامه سوء العذاب، وتسبب في موت السعيد صديقه وصديق والده ، وماتت بسبب ذلك أمنة أم السعيد، هذا غير ما فعله بالباشا قديمًا ، وما فعله بخالد ورفقائه وغيرهم كثير من الشباب الشرفاء .

ولكن ما فت قَلبه وقرح عقله هو ما حدث لليلى بسبب هذا الخائن وسعيه الدؤوب خَلفها حتى يعثر عليها ليقدمها وليمة للإنجليز كي يَنجو من عقابهم وشرهم ، إنه يَطرق جميع الأبواب ويسعى خلفها في كل السبل بواسطة كلابه التي أطلقها خلفها .

- أين هي ليلى الآن ؟

سؤال سأله لنفسه جال بخاطره، فطفر من على لسانه دون أن يشعر ، لقد أحبها وسَكنت جوراحه وصارت كالماء والهواء، تعلق قلبه بها بالرغم من أن معرفته بها لم تدم سويعات قليلة.

باتت طيفا يُؤرقه يقلقه يكلحه بمراود السهر والفكر، إنه لا ينساها، ولا يعرف كيف يَنساها، ليته يراها مرة أخرى أو يعثر عليها قبل هذا الطاغوت فيتزوجها ويعيش معها ما بقي من عمره سعيدًا.

ولكن ماذا لو عثر عليها الشماس قبل أن يجدها ؟

سيتبعثر هذا الحلم ، وتذروه الريح في الهواء، ويصير هباء مَنثورًا ، فماذا يفعل كي لا يحدث هذا ؟

هو ما عزم على فعله وبدأ فيه، إن ثورة الثأر وفوران نيران الغضب كالبركان تجتاحه من كل مَكان في كل ركن من أركانه ، يريد اليوم قبل أمس أن يفتك به ، ولكن جنود الشماس كَثيرة وكلابه وجواسيسه منتشرة في كل مكان ، ونظام أمنه وحراسته شديد للغاية ليس من السهل اقتحامه، ففكر أن يسير في طريقه خطوة خطوة، وإن كان سيؤخره بعض الشيء عن سرعة الفتك به ، ولكنه ليس أمامه سوى ذلك حتى لا يتعثر أو يفشل وتتقلب الأمور ضده ويصير هو الخاسر الوحيد ، فطلب من "سيف باشا" " ٥٠٠ "جنيه فاجأه الباشا باندهاشة مَلأت وجهه، اندهش لها باسل فتابع قوله :

- أنا أعلم أن حقي عندك هو " ٢٠٠ " جنيه فقط ، و " ٣٠٠" جنيه اعتبرها دينًا قرضًا مقابل عملي القادم إن شاء اللّٰه، يخصم كل شهر من راتبي حتى استوفي ديني كله .

- اندهاشي ليس من أجل ما قُلته يا باسل، وأنت تعرف مِقدارك عندي، وإنما ماذا ستفعل بكل هذا المبلغ الكبير؟

- سأذهب إلى مولد السيدة زينب، وسوف أغيب أسبوعًا على الأقل

- أتتفق " ٥٠٠ " جنيه في المولد ؟!

- ليس كل المبلغ سأصرفه هناك، ولكني بعد إذن معاليك نويت أن أشتري قطعة أرض صغيرة .

ابتسم الباشا وهز رأسه كأنه يَعلم ماذا ينويه باسل وقال :

- أنت لن تذهب إلى المولد ولن تشتري أرضًا، أنا أعلم ماذا ستفعل بهذا المال، سأعطيك المال ولكن حافظ على نَفسك جديًا وخذ حذرك من كل شيء

انصرف من عنده، والمال في يده وهو مبتسم من ذكاء الباشا واضعًا في رأسه بجدية نَصيحة الباشا له، فرفل على الطريق الرئيسي الفاصل بين زمامين من أراضي الباشا ، ونادى على لطفي الواقف وسط الفلاحين العاملين في حقول الباشا ، وطلب منه أن يأتيه بحسن متولي في أسرع وقت سينتظرهما في داره .

وعندما جاءه حسن متولي أمسكه باسل من يده، وكان ينتظره أمام بيته، وقال للطفي :

- ادخل البيت يا لطفي اعمل لنا كوبين من الشاي .

وانجذب حسن له برفق، وسار معه حتى جَلسا تحت شجرة صفصاف على بعد عشرين مترًا من بيته تشرف على ترعة صغيرة، كان الاندهاش والاستغراب يلجم حسنا فلم يتكلم فبادأه باسل بالكلام :

ـ سأطلب مِنك طلبًا يا حسن، لكن أرجو ألا تحرجني وترفضه

ازدادت اندهاشته وقال :

- ماذا تقول يا أستاذ باسل ؟ كيف أرفض لك طلبًا ، وأنت خيرك علي، كفاك أنك توسطت لدى الباشا كي أزرع فدانين في أرضه، وهذا لا يحدث وبالذات مع شخص من خارج العزبة، أنت أخ يا أستاذ باسل، ماذا تقول ؟

- هذا عشمي فيك يا حسن، المهم، أنا أعلم أنك تمقت عزام الشماس، وأنت تعرف ما الذي أصابني وأصاب عم السعيد " اللّه يرحمه " بسببه، لذلك أريد منك شيئًا وأرجو أن يكون في طي التمكان ، لا أحد يعلم عنه شيئًا

- تكلم يا أستاذ باسل ، ما هو هذا الشيء ؟

- أريدك أن تعرف لي كل ما يدور في عزبة الشماس، وبالذات ما يحدث في قصره، حفلاته، رجاله، حراسته، هل عثر على الفتاة الهاربة أم لا؟ ما الخطوات التي يَتخذها من أجل ذلك؟ هل تقدر على ذلك؟

- إن شاء اللّه أقدر يا أستاذ باسل، وأنا لن أسألك عن السبب، لكني واثق أنك تفعل الخير، لذلك سأساعدك بكل طاقتي، فلا تشغل بالك بهذا الأمر بعد ذلك واطمئن من هذه

الناحيـة، ولـو تُريدنـي أن أشـترك معـك في مـا تنـوي فعلـه فأنـا تحـت أمـرك.

ـ لا، أنـت وراؤك أولادك وأسـرتك وأرضـك، أنـا لا أريـد منـك سـوى مـا طلبتـه

نظر فوجد لطفي يقترب بصنية الشاي الأحمر، فقال باسل:

– هيـا انصـرف الآن يـا حسـن، اذهـب لأرضـك فأنـا أريـد لطفـي في أمـر آخـر

ويقوم حسن يسرع في سيره، يندهش لطفي فيقول :

ـ الشاي يا سي حسن .

يرفـع حسـن يـده يشـير بهـا مـن خَلفـه وقـد بـدأ يختفـي عـن العيـون ، فيتعجـب لطفـي ويضـع صنيـة الشـاي أمـام باسـل، فيقـول باسـل :

ـ اجلس اشرب الشاي معي يا لطفي، أريدك في شيء

يجلس في قلق وحيرة، فَيبتسم باسل ويقول :

ـ ماذا بك يا لطفي؟ لماذا تغير وجهك هكذا ؟ لا تقلق

نظر إليه باسل حتى خف وطأة قلقه وقال :

ـ أريد منك خدمة يا لطفي

- خدمة مني أنا يا أستاذ باسل ؟

- نعم

- لو في مقدرتي لن أتأخر أبدًا، فيكفي أفضالك ومعروفك عليّ

- لا معروف ولا حاجة يا لطفي

- كيف تقول ذلك ؟! يكفي أنك انتشلتني من المُستنقع الذي كنت فيه، وأنجتني من السجن ومن طريق الشيطان الذي كنت أسير فيه

- أنت رجل صالح يا لطفي وقلبك أبيض، أنا أريدك بشأن المستنقع الذي كنت فيه

تنبجس شفتاه عن ابتسامة دهشة وذهول، يقول :

- لا أفهم شيئًا

- أريد أن أتعرف على مُجرم قاطع طريق ممن كنت تعرفهم ، وليس أي مجرم أريد أن أتعرف على أفضلهم رميًا ورشقًا ، يعني أريد ابن ليل

- ابن ليل ؟!

- نعم أريد رجلاً لا قلب له، متمرسا في فنون القتال والنشان والضرب والصد وكل شيء، أنت طبعًا تفهم ماذا أريد؟

- اعذرني يا أستاذ باسل ، أنت رجل صالح وطيب وخير ، فلماذا تريد أن تتعرف على رجل مثل هذا؟

- سأخبرك في حينه، لكن الآن أريدك أن تصلني بواحد من هؤلاء

- لكنك تعرف أني ابتعدت عن هذا الطريق منذ أن انتشلتني منه ، وأخذتني أعمل هنا بين يديك، لقد نسيت هذا الطريق وأهله ، وبدأت طريقًا جديدًا، وأنت تعرف ذلك جيدًا أني كنت صادقًا في توبتي

- أعرف يا لطفي ، لكنك كُنت تتعامل بل كنت تصاحب هؤلاء

- أنا كنت واحدا منهم يا أستاذ باسل

- إذن فأنت تعرفهم جيدًا ؟

- نعم

- إذن كل ما عليك الآن أن تصلني بأحدهم ، وأريده أخطرهم وأغلظهم

يصمت لطفي برهة ثم يقول :

ـ أخطرهم وأغلظهم ... إذن أنت تريد سنقرا

ـ أريده في أسرع وقت

ـ لا تقلق يا أستاذ باسل، اترك لي بقية النهار، سأكتشف مكانه لأنك تعلم أنهم يغيرون أماكنهم باستمرار، وإن شاء الله سأعرف مكانه سآتي وآخذك إليه أفضل لأن المكان هنا كما تعلم طافح برجال الشماس وبالشرطة .

وظل ينتظر باسل هذا اللقاء على أحر من الجمر ، مضى النهار وشطر الليل حتى جاءه لطفي بالخبر اليقين، وانتظرا حتى الصباح، استأذن باسل الباشا في أخذ سيارته لمشوار مهم ، وأذن له مع شكه بما يدبره باسل، ولكنه يحبه فلم يرفض له طلبه .

قاد باسل السيارة وبجواره لطفي حتى وصلا إليه ، وكان اللقاء بينه وبين سنقر أمام لطفي في مخبأ سنقر في الصحراء الشرقية حيث القطع الصخرية المنتشرة في كل مكان يتخللها بعض الأشجار الصحرواية والحشائش والنباتات العشبية التي ترعى فيها بعض الأغنام التي تهش بعصي بعض الرعاة من البدو يحيط بهم عدد كبير من رجال سنقر .

جلس باسل معهم في خيمة سنقر التي تطل على هذا المَنظر البديع حيث الأغنام والرعاة والرمال الصفراء، ثم ارتشف رشفة مِن كوب شاي أخضر ثم قال :

ـ نعم يا باشا، أنا تحت أمرك، وأمر لطفي صاحبي وحبيبي.

ـ اسمع يا ريس سنقر سأعطيك ما تريد، ولكن أهم شيء وقبل أن أقول ما أريد، أهم شيء أن يكون بيننا أمانة وإخلاص وكتمان السر

- نحن يا باشا أولاد ليل صحيح، لكن عملنا مع بعض يكون مبنيا على الأمانة والإخلاص

يقول لطفي :

- لا تقلق يا أستاذ باسل من هذه الناحية ، تكلم مع سنقر كأنك تكلمني بالضبط ولا تقلق من شيء

- من الآخر يا سنقر ، أنا أريد سلاحًا

- سلاح !!

(قالها سنقر ولطفي في آن واحد)

ـ نعم أريد مسدسات وبنادق ورشاشات لو يوجد عندك

يصمت سنقر ويهرش في رأسه بينما لطفي مُندهشًا ، ويتابع باسل قوله :

- والأهم من ذلك أريدك أن تُدربني على كيفية استعمال السلاح، أريد أن أكون أفضل قناص في القطر المصري كله، ولك كل ما تريد .

- أدربك ؟! هذا ليس من تخصصي يا باشا

فيقول لطفي :

- سنقر، اسمع كلام الباشا ونفذه

فيرد سنقر:

- أنت تعلم يا لطفي أن هذا ليس من اختصاصاتي ، لكني سأوصلك بمن يعرف ذلك، لطفي يعرفه ، مُعلمنا وسيدنا ستجد عنده ما تريد من سلاح وبالكميات التي تطلبها وسوف يدربك أيضًا

فيقول لطفي :

- مخلوف؟! كيف لم يأت في بالي؟ ! وأين نجده يا سنقر ؟

- في مكانه القديم

- ألم يغيره؟

- كيف يغيره هذا ستاره وحجابه عما يفعله في الخفاء .

يقف لطفي ويقول :

- هيا بنا

يقف باسل ولا يقف سنقر، فيقول لطفي :

ـ لماذا لم تقف يا سنقر ؟

ـ أنت تعلم يا صاحبي أني مطلوب للبوليس ، إذا ظهرت سيقبض علي، لقد أتيت هنا من أجل ذلك، أنت تعرف المكان، اذهب إليه وإذا احتجت شيئًا فأنت تعرف مكاني، والمعلم مخلوف أيضًا يعلمه، وربما نلتقي قريبًا جدًا لأن التدريب هذا ربما يكون هنا، فهذا أفضل مكان للتدريب والنشان، وإذا لم تجده ستجده عند زوزو .

تقف سيارة الباشا أمام ملهى " الحياة " في آخر شارع الهرم، وقد خاط الظلام عيون الخلائق، وانتشر في كل ركن، وعم أرجاء الكون ، ينفضون صالة الملهى بأعينهم يمينًا وشمالاً .

يميل لطفي على أذن أحد النِدال ، ويهمس فيها فيشير له إلى منضدة في آخر الصالة من جهتها الشرقية فَيجدان رجلا قارب الخمسين من عمره جالسًا ينفث دخان سيجارته مُتابعا لهزات وتمايلات والتواءات الراقصة زوزو، وهي تنثني بصدرها إلى الأمام، يقطع باسل ولطفي مُتابعته لما وقفا أمامه فينزل سيجارته، ويندهش ويتأمل في وجهيهما، ويقف عند وجه لطفي فتزداد دهشته ويقول :

ـ لطفي؟ أين أنت من زمان يا رجل ؟ اجلس ، اجلس يا أستاذ

ويجلس لطفي وباسل قبالته، يصافحهما مخلوف، ثم يتفحص وجوههما ويقول :

- ما الذي رماك علينا أخيرا يا لطفي ؟ ومن هذا الذي معك؟

- هذا باسل باشا، ناظر عزبة سيف باشا هو الكل في الكل، وهو الذي انتشلني مما كنت فيه، وجعلني أعمل في العزبة بـ (١٥) جنيه في الشهر يعني فضله علي عظيم .

- ١٥ جنيه في الشهر ؟!

- لكنها حلال يا معلم مخلوف ، المهم باسل باشا ...

يقاطعه :

- هو أخذ البشوية متى؟

- دعنا في المهم يا معلم، باسل باشا يريد كذا قطعة سلاح مختلفة مسدسات على رشاشات وبنادق روسي، وأيضا يريد من يدربه على استعمالها

ينفث دخان سيجارته، ويقول في برود :

- رشاشات وبنادق روسي، الموضوع شكله كبير ، لماذا يا باسل باشا؟

- سأدفع لك ما تطلبه يا معلم مخلوف

- أنا عارف أنك ستدفع، أنا سألتك عن السبب، هل ستعمل عملنا وتكون مثلنا أم وطنية زائدة طافحة عليك؟

- وطنية؟!

- نعم ، أصل في هذا الوقت من يُريد السلاح واحد من ثلاثة إما قاتل أو ابن ليل، أو شاب وطني ثائر وهم يتكاثرون الآن كالذباب، ونحن أيضا نحب بلدنا حُبًا شديدًا ، بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي، رحمة اللّٰه عليك يا مصطفى كامل باشا ، هذا هو الباشا الحقيقي .

يحتد لطفي في كلامه :

- دعنا في المهم يا معلم أرجوك، أنت ما يهمك هو المال ستأخذ ما تريد وبزيادة مقابل السلاح والتدريب، فلا تسأل عن السبب

- لا ، لابد أن أعرف ، افرض مثلاً أن شيئا حصل من الممكن أن يضرنا، لابد أن نطمئن على أنفسنا، هل نحن في أمان أم لا ؟

يقول لطفي متعجبًا:

- نحن !! من " نحن " ؟

- لا تسأل عما لا يعنيك يا لطفي

- وأنت أيضا لا تسأل عما لا يعينك

- صوتك ارتفع يا لطفي بعدما تركتنا

- صوتي دائمًا مرتفع يا معلم ، وأنت تعلم ذلك

خشي باسل أن يحتد الكلام بينهما أكثر من ذلك فقال ملطفا الجو :

ـ انتظر يا لطفي ، أنا سأقول لك ما تريد يا معلم، ولكن أريد السلاح بسرعة وستأخذ ما تريد، هذا السلاح أريد من أجل استرجاع إرثي من عمي الذي اغتصبه

يبتسم مخلوف ويقول :

- مع أني لا أصدقك لكني سأحضر لك ما تريد، كم قطعة تريد؟

- أريد ست أو سبع ، أريد مُسدسات وبنادق ورشاشات

- رشاشات!!

- نعم ، وفوق كل هذا التدريب ، أريد التدرب ليس فقط على استخدام السلاح وإنما أريد أن أكون مُحترفًا .

- أنت تذهب لكبيرنا

- كبيركم!! من هذا؟

- ستقابله وتتعرف عليه بنفسك، هذا أكبر تاجر سلاح في مصر كلها، ستجد عنده ما تريد من كل أنواع السلاح، وسترى بعينك وتسمع بأذنك

- ومتى سأقابله ؟

- في نفس هذا الموعد تنتظرني في هذا المكان بِمفردك ، بدون لطفي وبدون أي شيء

- تمام

- أخرج " ٥٠ " جنيها

- ٥٠ جنيها ؟! لماذا ؟

- مصاريف تنقل، سأذهب إليه آخذا لك موعداً معه

يقول لطفي:

- مصاريف تنقل ٥٠ جنيها يا ظالم

- اخرج أنت من الموضوع يا لطفي، تعاملي الآن مع هذا الرجل ذي الوجه السمح

يخرج باسل " ٥٠ " جنيها ، يتلقفها مخلوف في لهفة، ويقول:

- أنت الآن أثبت حسن نيتك، لا تنس في نفس الموعد وفي نفس المكان

وفي لحظة من لحظات الصفاء العقلي داخل باسل بدأ يسأل نفسه ويحاورها:

- هل يصح ما أفعله الآن، أتعاون مع مجرمين من أجل محاربة مجرمين؟! لقد اتسعت الدائرة وأخشى أن كبيرهم هذا يكون عزام الشماس، فهو وراء كل خراب، وخلف كل مصيبة ورزية، إلى أين أنا ذاهب، كلها دقائق وأغوص في مستنقع ربما لن أعرف السباحة فيه أو النجاة منه، مازال أمامي طريق للعودة والفرار، ولكن هل أترك عزام الكلب بعد كل ما فعله في وفي عم السعيد وفي أمه وزوجته وفي الباشا وفي غيرهم ، وليلى التي نَبحث كُلنا عنها ، أنا كي أقبل يديها التي قتلت ذلك الجنرال النجس " ديفيد كستتر " وعزام ورجاله الذين يبحثون عنها ليل نهار؟! لا، لن أهرب بعدما قطعت شوطا كبيرًا، لن أهرب مهما حدث

قطع حديثه النفسي صوت مخلوف :

- هيا يا باسل باشا، قم .

كانت لحظات الصفاء تلك في اليوم التالي في نفس المكان الذي قابل فيه مخلوف، كانت الراقصة عشيقة مخلوف تتمايل وتترنح من الرقص وهو لا يشعر بها ولا بمن حولها، كان غائبًا في عالم آخر يفكر فيما هو آت، وقد أتى مخلوف يناديه للقيام والذهاب للقيا كبيرهم .

وقبل أن يركب السيارة مع مخلوف واثنين آخران من رجال زهران، وسائق سيارة زهران الجيب الأمريكي الجبارة ماركة بانتام بي أر سي ٤٠ ذات الدفع الرباعي، والتي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، وكانت من أسباب النصر لسهولتها وخفتها وسرعة انطلاقها في الوحول والجبال وجميع المناطق والأماكن الوعرة والوعثة .

اندهش باسل من منظرها وهيئتها المريبة واندهش أكثر لما طلب منه قبل أن يركبها أن يَضع غطاء أسود سميكا على عينيه وجبهته ، استراب من الأمر وساوره قلق وخوف ولكن مخلوف طمأنه قائلاً :

ـ هذه مجرد احتياطات وأخذ حذر فقط ، وهذا من أساسيات عملهم خاصة مع الغُرباء عنهم في بدايات تعاملهم معهم ، فلا تقلق .

ويَنصاع باسل لتهدئة وطمأنة مخلوف فيستجيب لهم ، ويوضع اللثام على عَينيه وجبهته، وتنطلق بهم السيارة، لا يعرف باسل شيئا، يشعر فقط بِمناطق السير من روائح أتربة بدأت تتطاير إلى الأنوف ومطبات وطرق وعرة ورمال وعثة ذات قلاقل، فأحس أنه أصبح خارج المنطقة السكينة كانت ظنونًا لم يلق لها بالا، ولا يهمه أن يعرف المكان أو يعرف هذا الشخص الأسطوري الذي يتحدثون عنه .

كل ما كان يهمه هو الحصول على السلاح والتدريب، سواء كان في مناطق سكنية أو مناطق خربة أو صحراء لا يهم، المهم ما جرى خلفه يتحقق، وبدأت وساوسه وأفكاره تتلاشى رُويدًا رُويدًا عندما بدأ يسمع أصوات ناس ونباح كلاب يبدو من نباحها أنها كلاب شرسة فتاكة كأسلحة صاحبها، وزالت هذه الأفكار والوساوس تمامًا لما كشف الغطاء عن عينيه

فوجد نفسه جالسًا على كرسي قبالة رجل جاوز الخمسين من عمره، أبيض اللون ، أزرق العينين، يترقرق ماء الحسن والصفاء في وجهه المدور المورد جاثمًا إلى مكتب برونزي وعن يمينه ويساره رجلان في أجسام الرجلين اللذين خلف باسل، وخلفه دولاب واسع مفتوح على مصراعيه معلقة فيه أسلحة كثيرة مُتنوعة، نفض باسل المكان بعينه فوجده يزخر بالأسحلة بنادق ورشاشات ومدافع آلية ومسدسات في كل جانب كأنها ترسانة أسلحة دار بوجهه عليها وعلى أولئك الرجال الأربعة المحيطن بهما ثم عاد إلى وجه ذلك الرجل المبستم ذي الملامح الأوربية ، أحس أنه أجنبي لأول وهلة ثم تلاشى ذلك لما تكلم بلغة مصرية صريحة :

ـ أهلا بك أستاذ باسل، اعذرنا على مَوضوع غطاء العين هذا، فهذا أول عمل لنا معا، وتعتبر غريب عنا، وكل هذه احترازات أمنية، فأنت الآن لا تعرف أين نحن بالضبط في مِصر، ولا تعرف

أيضًا أين نحن في هذه الفيلاً الشاسعة وستخرج مثلما أتيت ، فلا تقلق من ذلك وكما يقال " احذر ولا تخون " ونحن لا نخونك ولكن هذا قَانون عملنا ونحن لا نغير قوانينا

ـ ولا يهمك يا ... ماذا أسميك ؟

ـ ممكن تقول زهران، مع أنه ليس اسمي الحقيقي، ولكن كي يسهل التعامل بيننا تناديني وأناديك، قل زهران وارفع الألقاب فأنا لا أحبها ، قل لي ماذا تريد؟

ـ أريد أسلحة وتدريبا على استخدامها

ـ عرفت هذا ، ولكن أي نوع من الأسلحة تريد؟

ـ أنا لا أعرف عن الأسلحة شيئًا، أنا كل ما أفهمه في الزراعة فقط

ـ كل سلاح يستخدم حسب مُهمته يعني مثلاً لا يصلح عندما أريد أن أقبض على شخص أذهب له بدبابة مثلاً أو مدفعًا أو طائرات حربية، و قتل شخص واحد ليس كقتل مجموعة، ومواجهة مجموعة مسلحة غير مواجهة مجموعة غير مسلحة، والأخذ بالثأر كما في الصعيد غير خناقة في شارع غير القبض على عصابة غير تصفية وطنين أو تصفية جنود احتلال ، وأنا تعاملت مع الجَميع بدون تفرقة، فالأمر يختلف على كل حال وبحسب كل

مهمـة التخطيـط والسـلاح والتدريـب أيضًـا يَختلـف، يعنـي مثـلاً في الجيـوش تجـد تدريبـات لفـرق مختلفـة عـن تدريبـات لفـرق أخـرى وهمـا في جيـش واحـد ، يعنـي تدريبـات قـوات الصاعقـة الأمريكيـة مثـلاً غيـر تدريبـات فـرق المشـاة أو المدفعيـة وهلـم جـرا، الموضـوع كبيـر لكـن باختصـار أري أن أعـرف نوعيـة مهمتـك كـي أدلـك علـى السـلاح المُناسـب لهـا ومـن ثـم ندربـك التدريـب المناسـب لهـا

ـ مهمتـي باختصـار هـو الثـأر مـن رجـل ظلمنـي وتسـبب في مـوت أعـز صديـق وزجنـي في غياهـب السـجون، ويريـد الآن أن يقتـل حبيبتـي، مـازال يبحـث عنهـا لأنهـا قتلـت ضابطًـا إنجليزيـا كبيـرا، أراد أن يعتـدي علـى شَـرفها ويفـض بكارتهـا فقتلتـه دفاعًـا عـن شـرفها وهربـت منهـم ومازالـوا يبحثـون عنهـا حتـى الآن، وهـذا الرجـل مـن أسـوأ مـن أنجبـت مصـر عميـل كبيـر للإنجليـز واليهـود الصهاينـة الذيـن سـلبوا أرضنـا في فلسـطين، هـذا غيـر الظلـم الـذي يكـوي بـه الفلاحـين الغلابـة وحتـى البشـوات والكبـار لـم يسـلموا مـن أذاه .

هز زهران رأسه وقال :

- رجل بِمثل هذه المواصفات أكيد معه رجال كثيرون يحرسونه
- فعلا مَعه جيش من الرجال والأحراس الغلاظ ، لقد عاينتهم، وذقت مرارتهم وتجرعت أذاهم
- وهل ستحارب هذا الجيش بمفردك ؟

ـ أنا لن أحارب مِنهم سوى خمسة فقط وهم الموكلون بالبحث عن حبيبتي، هؤلاء الخمسة يُعتبرون أهم رجال هذا الرجل، لأن كل واحد منهم يقود فرقة أو كتيبة من الرجال ، وبموتهم يتزعزع ملك سيدهم وينهار، فيصبح فريسة سهلة لي كي أقتص منه .

صمت زهران قليلاً وحرك رأسه يمنة ويسرة ثم وقف وقال :

ـ هؤلاء يحتاجون لِخطط محكمة، أنت لا تحتاج إلى المواجهة المُباشرة معهم لأنك ستخسر، أنت لا يَنفع معك إلا اغتيالهم وتصفيتهم فرادى

يقف باسل هو الآخر ويقول :

ـ معك حق ، الأمر كما قلت وهذا ما كنت أفكر فيه

يبتسم له زهران ويقول :

ـ مَرحبا بك أستاذ باسل .

ثم يَلتفت خلفه إلى دولاب الأسحلة الطافح بها ، الرابض خلفه، ونزع رشاشا من على معلاقه ووضعه على مكتبه أمام باسل، ثم فتح درجا بداخل الدولاب أخرج منه عِلبة أنيقة، ووضعها بجوار الرشاش، ووقف ينظر لباسل المنغرق ببصره للنظر إلى هذا الرشاش وتلك العلبة الأنيقة التي لا يعرف محتواها ،

ولكن زهران كشف عن وجومه وأزاله بالكشف عن هوية هذا الرشاش وما بداخل العلبة، وأول ما بدأ بالتعريف بدأ بتعريف الرشاش، رفعه أمام عينيه ينظر إليه ثم قال:

ـ هذا سلاح هجومي رشاش اخترعه الروسي ميخائيل كلاشنكوف، وسمي باسمه وهذا له اسمان إما كلاشنكوف أو (إيه كيه ـ ٤٧ ـ / AK-47)

يطلقون عليه بالروسي :

Автомат Калашникова образца 1947 года

وزنه : ٤,٣ كجم بدون مخزن يعني بدون رصاص

طوله : كما ترى ٨٧٠مم يعمل بالغاز وبترباس دوار

سرعة رميه : ٦٠٠ طلقة / الدقيقة

مداه : ٤٥٠ متر يعني نصف كيلو تقريبا

له منظار حديدي قطره ٣٧٨ مم

هذه بعض مواصفاته بسرعة، وستعرف كل شيء عنه أثناء التدريب في نادي الرماية الذي أمتلكه

ـ لَديك نادي رماية ؟

ـ نَعم، ومرخص ، يعني عَملنا قانوني، نادي رماية على أعلى مستوى تخرج منه قناصة عظماء وقتلة محترفون، ستراه بعينك عندما تخرج من هنا لتمكث فيه مدة تدريبك إلى أن تصير أكبر قناص في مصر كلها وأنت واجتهادك، إذا اجتهدت جيداً ستتعلم بسرعة وستفوق غيرك وأنا أرى أنك ستفعل ذلك ، لأن لديك هدفا وأرى إصرارا عجيبا في عينيك وصمتك وتأملاتك في السلاح ، وأنا أذكر بعض مواصفاته الخطيرة .

واستكمالاً لبعض المعلومات عنه هذا السلاح صمم في عام ١٩٤١ لكنه لم يجرب فِعليًا إلا في عام ١٩٤٧ ومن هنا أخذ اسمه الآخر " إيه كيه ٤٧ "

هذه معلومات سريعة باختصار عن هذا السلاح الجبار الذي سيكون له مستقبل رائع إن شاء الله في الحروب .

ويمد يده به لباسل الذي يمسكه وهو يتأمله بانبهار عجيب قد انحسرت شفتاه عن ابتسامة حماس وعزيمة، ثم وضعه على المكتب ، ونظر إلى العلبة التي اشتاق لمعرفة ما فيها .

وجده زهران مَلهوفًا بعينيه لمعرفة سرها فرفعها، وفتحها وأخرج منها مُسدسًا غَريبًا انبهر به باسل أكثر من الرشاش، وضع زهران العلبة على المكتب، وظل يحرك المسدس في يده، وباسل يتابع هزاته وحركاته قد شغف به ومد يده ليأخذه ، أعطاه له زهران بدون تردد وقال :

ـ هذا المسدس روسي أيضًا، يا رجل هؤلاء الروس في صنع الأسلحة وتصميمها لا يجاريهم أحد، المهم هذا المسدس معروف باسم مسدس ماكروف، بالروسية:

Пистолет Макарова

وبالإنجليزية :

Makarov pistol

مسدس آلي أو بتعبير أصح شبه آلي، صممه نيقولاي ماكروف ، فسمي باسمه، وزنه فارغ بدون طلقات: ٧٣٠ جرام، طوله : ١٦١,٥، عرضه ٣٠ مم، ارتفاعه: ١٢٦,٧٥، طلقته عيار ٩ مم

هذه أهم مواصفاته الشكلية لكن هيئة تصميمه وكيفية استخدامه ستعرفها في نادي الرماية في الحصص النظرية التي ستأخذها قبل التطبيق .

وقف باسل مبهورًا أمام هذا المسدس الأسود ذي اليد البنية الذي يراه لأول مرة في حياته، يُصوبه أمامه ويضع يده على الزناد في هيئة الرامي ، يبتسم زهران ويقول :

- إن شاء الله ستنجح وتكون قناصًا بارعًا، ربما نحتاجك في يوم من الأيام لأشياء مُهمة وخطيرة

- أنا كل ما يَهمني الآن هو القصاص من الطاغية

- إذن تنقل مُباشرة إلى نادي الرماية لتبدأ التدريب

- وأنا مستعد، ولكن ما سعر هذا المسدس وهذا الرشاش ؟

- كم قطعة تريد؟

- أريد مبدئيًا مسدسان ورشاشان

- المسدس الواحد ثمنه بالدولار ٢٠٠ دولار ، والجنيه يصرف بثلاثة دولارات أمركية يعني أريد منك في المسدس ٦٦ جنيها مصريا، والرشاش الواحد ب ٣٠٠ دولار يعني ١٠٠ جنيه مصري لا غير ، يصبح مجموع الأربعة ٣٣٢ جنيه، إذا أضفنا إلى هذا المبغ مبلغ التدريب في النادي لمدة إقامة أسبوع واحد ٣٠٠ دولار يعني ١٠٠ جنيه تزيد بزيادة مدة التدريب، وإن شاء الله، سيكون أسبوعًا واحدًا كافيًا لك، لأن عندنا مدربين على أعلى مستوى من داخل مصر وخارجها كثير منهم اشترك في الحرب العالمية الثانية ألمان وإنجليز وفرنسيين وروس

- رائع جدًا، إذن كم المبلغ الكلي؟ نحن قلنا ٣٣٢ جنيه أضف ١٠٠ جنيه يصبح المجموع ٤٣٢ جنيه، ومن أجل وجهك الحسن هذا وابتسامتك الطرية وعزيمتك القوية وهدفك الذي تَسعى لتحقيقه، سأرفع عنك «١٢» جنيها يعني سنأخذ منك ٤٢٠

جنيه بعد انتهاء فترة التدريب وحصولك على الأسلحة ، يعني لن نأخذ مُقدمًا

- شكرا جدا على حسن تعاملك

- لا تشكرني، وهيا لتنتقل من هنا مباشرة إلى النادي ، وستدخله أيضا بنفس طريقة دخولك هنا .

وبعد ساعتين تقريبًا وجد باسل نفسه داخل النادي مُحاطًا برجال كثيرين أقوياء أشداء بعضهم رجال زهران، والبعض الآخر مدربون، والبعض الثالث مُتدربون مثله، في ميدان صحراوي واسع للرماية على جانبيه صالات وحجرات مُتفرقة كانت خاصة بالاستراحات للنوم والاسترخاء وبعضها خاص بالدراسة النظرية التي بدأت فور وصول باسل حيث تجمعت مجموعة مكونة من عشرين فردًا مختلفي الأشكال والألوان نصفهم لم يتجاوز الخمسة والعشرين بلحى خفيفة وطواقي تعلو رؤوسهم، والنصف الآخر بعضهم فوق الثلاثين والآخر فوق الأربعين بدون لحى، بانتماءات مختلفة، لم يشغل باسل باله منهم .

تناوبوا النظر إليه واختلاس النظرات بين الفينة والأخرى نحوه، ولكن لم يأبه بهم فقد كان مَركزًا مع الضابط السابق بالجيش الروسي " ديمتري أناتولي " المنهمك في الشرح والحديث عن مواصفات الرشاش كلاشنكوف إيه كيه ٤٧ .

كان واقفًا أمام سبورة بيضاء مسطور عليها أوصاف ذلك السلاح بأقلام من الفحم بخط كبير مستعينا في الشرح ببعض الصور المعلقة على الجدار الأمامي يشير إليها بعصا فضية في يده .

وكان باسل مُتابعًا جيدًا له وهو ينسدر في ذكر مواصفات السلاح بشيء من التبسيط والسلاسة :

عيار الطلقة : ٧,٦٢ × ٣٩ ملم.

المدى: ٧٥٠ متر

الطول : ٨٦٩ ملم

الوزن: ٤,٣ كلجم

وزن الحربة مع الغلاف : ٤٥٠ جرام

وزن المخزن فارغ : ٣٢٢ جرام

وزن الرصاصة مع الظرف الفارغ : ١٦,٢ جرام

وزن الرصاصة وحدها : ٧,٦٠ جرام

أقصى ضغط على حجرة الانفجار (بيت النار) : ٢٨٥٠ كلجم/سم^2

عدد الخطوط الحلزونية في السبطانة : ٤ خطوط

طول موجة الخط الحلزوني: ٢٣٥ملم

السرعة الابتدائية للطلقة : ٧١٥ م/ث

قوة الزناد عند سحبه : ٢,٧٥٠ كلم

التبريد : بالهواء

التغذية : مخزن سعة ٣٠ طلقة ، مع إمكانية تركيب مخزن سعة ٤٠ طلقة أو مخزن سعته ٧٥ طلقة الخاص بسلاح :

RPK

معدل الرماية النظري : ٦٥٠ طلقة في الدقيقة

معدل الرماية العملي : ١٠٠ طلقة في الدقيقة آلي و ٤٠ طلقة في الدقيقة نصف آلي

نظام التقييم : بالغاز

نوع الأخمص : خشبي ثابت أو قابل للطي ، معدني قابل للطي

يتوفر أيضا بمنظار رؤية تقريبي

كان باسل منهمكا بالمتابعة وكتابة كل شيء في الأوراق التي تَسلموها بمجرد دخولهم قاعة المحاضرة النَظرية الأولى والتي تخص رشاش كلاشنكوف " إيه كيه ٤٧ "

ثم أخذوا استراحة ورجعوا مرة أخرى للجزء الثاني من المحاضرة التي تخص هذا السلاح الرهيب ، وتم الحديث فيها عن مكنوناته وأجزائه جزءًا جزء مُستيعنا الشارح بسلاح عملي للتطبيق مُفككا أجزاءه جزءًا جزءًا بعدما ذكر المكونات كلها مرة واحدة على السبورة بصورة عامة :

الأخمص ـ ممسك الأمان والمحول ـ علبة المغلاق ـ المقبض ـ مخزن الطلقات ـ السبطانة ـ كابح اللهب ـ نابض الرجوع مع دليله ـ الإبرة ـ المغلاق ـ علبة المهداف ـ أنبوب الغاز ـ حاضن المغلاق مع الدافع ـ غطاء علبة المغلاق

ثم رفل في التفصيل جزءًا جزءًا بالتطبيق على أجزائه أمام أعينهم مُستعينًا أيضا بالصور والمكتوب على السبورة .

ثم أخذوا الاستراحة الثانية لمدة ساعتين لتناول وجبة الغداء ثم الرجوع مرة أخرى بعد العصر للمحاضرة الثانية، والتي تَخص سلاح المُسدس مع محاضر آخر فرنسي يدعى " توماس فيليب " الذي بدأ في عجالة بالحديث عن نبذة تاريخية عن المسدس ثم تحدث عن أنواعه أيضا في عجالة :

١ ـ المسدسات الدوارة أحادية الفعل

٢ ـ المسدسات الدوارة مزدوجة الفعل

٣ ـ المسدسات شبه الأوتوماتيكية أحادية الفعل

٤ ـ المسدسات شبه الأوتوماتيكية مزدوجة الفعل

٥ ـ المسدسات أحادية الطلقات

وأنشأ يذكر بعض المعلومات عن كل نوع مُستعينا بالصور وبالمكتوب على السبورة ، ثم تحدث عن جزء مهم من المحاضرة وهو أجزاء المسدس فقال :

ـ تختلف المسدسات في مَظهرها وحجمها ونوع الذخيرة المُستخدمة وطريقة تشغيلها، ولكنها كلها تَتضمن الأجزاء الأساسية نفسها، وهذه الأجزاء هي الهيكل والأخمص (القبضة) والسبطانة (الماسورة) والمسددتان (أجزاء الرؤية) وآلية التشغيل (أجزاء الحركة)

وبدأ بتعريف كل جزء من أجزائه :

١ ـ الهيكل هو الجسم الرئيسي للمسدس الذي يربط الأجزاء الأخرى

٢ ـ أما الأخمص فهو محمل المسدس

٣ ـ السبطانة هي الأنبوب المعدني الذي تنطلق الخرطوشة من خلاله كما أن السدود والأخاديد هي أسطح بَارزة ومجار متعاقبة داخل السبطانة تتسبب في تدوير الرصاصة وجعلها تنتقل في مسار مستقيم.

٤ ـ يستخدم الرامي المسددتين ليصوِّب الخرطوشة تجاه الهدف

٥ ـ تتضمن آلية التشغيل الأجزاء العاملة الرئيسية للمسدس وهي الزناد والمطرقة وحجيرة الخرطوشة .

ثم أخذوا الاستراحة الثَالثة لمدة نصف ساعة ثم عادوا للمرة الأخيرة في هذا اليوم للجزء الثاني من المحاضرة الثانية ، والتي تَخص الحديث عن المسدسات بصفة عامة ومسدس ماكروف بصفة خاصة ، وكان الحديث هذه المرة عن تصميم مسدس ماكروف :

يستخدم في مسدس ماكروف ترباس طولي منزلق حرًا ، وماسورة غير متحركة تشبه ماسورة مسدس " فالتر " الألماني، ويتم إغلاق الترباس بفضل كتلة الترباس وقوة نابض الإرجاع، ويؤمن هذا التَصميم البسيط دقة تزيد عما هو عليه لدى مسدس ذو ماسورة متحركة .

وتعد الطلقة عيار ٩ مم أكبر الطلقات وزنا التي يستحسن استخدامها في هذا المسدس .

ويستخدم في مسدس ماكروف طارق لا يُوجد فيه نابض من شأنه أن يجعله في الوضعية الخلفية، الأمر الذي قد يسفر من حيث المبدأ عن الضرب عند سقوط المسدس من الارتفاع العالي مثلاً

ومن المميزات التي تميز مُسدس ماكروف هي بساطته المطلقة وأناقة تصميمه والحد الأدنى من الأجزاء، وتقوم بعض

أجزائه بأداء وظائف عدة. وعلى سبيل المثال فإن محدد الترباس يستخدم في الوقت ذاته كعاكس للخراطيش ، أما النابض القتالي فيستخدم كسقاطة للمخزن .

ومن النادر أن يَتعطل مسدس ماكروف في حال مراعاة تعليمات استخدامه. وإذا حصل عطل ما فيمكن تَفكيكه تمامًا بدون استخدام عدة إضافية.

وقد استعان الشارح بالتطبيق على مسدس ماكروف مُفككًا قطعة قطعة مستيعنًا أيضا بالصور الجدارية وبالمكتوب السبوري .

وبهذا انتهت المحاضرة الثالثة في هذا اليوم الحافل بالمعلومات التي انبهر بها باسل، حتى إنه لم ينم في هذه الليلة مِثلما نام باقي رفاقه الذين غرقوا في لجة النوم بوضع أجسادهم على المراتب الإسفنج، أما هو فظل شطرًا كبيرًا من الليل ساهرًا يُذاكر ما كتبه، وما رسمه بيده في أوراقه حتى يكون على استعداد تام في الصباح للتطبيقات العملية على السلاحين، وهي أهم مرحلة فسيتعلمون كيف يمسكون الأسلحة، وكيف يُطلقون رصاصاتها ، وكيف يصيبون الأهداف القريبة والمتوسطة والبعيدة، ستكون رحلة شاقة الأيام الستة الباقية في أسبوع الجحيم هذا كما يسميه المدربون المصريون في هذا النادي الآسر .

لم يكن هذا الأسبوع أسبوعًا عاديًا كان أسبوعًا قاسيًا لا ينامون إلا قليلاً، كان أشدهم حماسًا باسل الذي كان يَتخيل كل

شاخص أو هدف أو طبق يدرب عليه هو عزام الشماس، كانت طلقاته في البداية تُخطئ كثيرًا، ولكن النار التي بداخله والهدف الذي يُريد أن يحققه كانا يدفعانه بقوة لأن يجتهد ، وينفذ جميع تعليمات المدربين بدقة وكفاءة .

وقد استخدموا معهم أنواع تمارين الرمي الخمسة التي تستخدم في تدريب الجيوش وهي :

(١) ـ تمارين الرمي بالتأشير: وهي تمارين ابتدائية يُؤديها الرامي بمساعدة معلم بجواره، وهدفها تَوجيه الرامي لتصحيح أخطائه، التي تظهر أثناء الرمي، واختبار قُدرته على التجميع، على مَسافات مُختلفة حتى ٣٠٠م

(٢) ـ تمارين الرمي تخت حديد: وهي تمارين تُجرى على مسافات مختلفة تبدأ من ٣٠٠م فأكثر، وهدفها أن تسهل على الرامي إجراء التصحيحات بنفسه .

و " تخت حديد " : هو عبارة عن هدف مصنوع من ألواح الحديد ، تتم الرماية عليه فَتظهر أماكن الطلقات على هيئة ثقوب ، مما يسهل على الرامي التعرف على الأخطاء في التَصويب وتصحيحها .

(٣) ـ تمارين الرمي المموه: عبارة عن هدف مموه لإكساب الرامي مَهارة التعرف على الأهداف، وإجراء الرمي طِبقًا لقواعد الرمي على الأهداف المموهة .

(٤) ـ تمارين الرمي على الهدف المستور: وهو وضع ساتر من الرمال خلف الهدف، لإظهار مكان سُقوط الطلقات ، بغرض تدريب الرامي على الملاحظة ومُراقبة الطلقات، وإكسابه مَهارة إعطاء التصحيح اللازم ، ويجب أن تكون هذه الأهداف غير مَعلومة المسافة، حتى يَتدرب الرامي كذلك على تقدير المسافة

(٥) ـ التمارين التكتيكية : وهي عبارة عن ستة أهداف ، توضع على مَسافات مُختلفة، في أماكن مشابهة لأرض المعركة ، وتُنفذ الرماية عليها دون التقيد بتحكيم بورمة الارتفاع " وهو تدريج بالتليسكوب يربط عليه مسافة الهدف " ولكن بتغيير نقطة التصويب طبقًا لمسافة الهدف ، ليتفق ذلك مع طبيعة المعركة.

وقد دربوهم على هذه التمارين في أوضاع الجسم المُختلفة راقدين ومرتكزين وواقفين، في كل يوم نوع مُعين من التمارين، لا يتركونهم حتى يتقنوا هذه التَمارين كُلها، حتى جاء اليوم الأخير وهو مُناورة بينهم على أهداف محركة بارز بعضها ومتوار البعض الآخر، وقد نَجح فيها باسل ببراعة حتى أشاد به جميع المُدربين، واختاروه جميعًا بدون تردد من أحدهم، اختاروه أفضل رام وقناص فيهم دون منازع .

ربما أن نجاحه هذا لأن لديه هَدفًا واحدًا مُحددًا يريد أن يحققه بأي طريقة وبأي وسيلة، وللإيمان والعقيدة الراسخة

بِداخلـه والمبـادئ التـي تَعلمهـا في المعتقـل، ولمـا حـدث للسـعيد ولأمـه وللباشـا ولليلـى .

فكل هـذا كان صـوب عينيـه في كل تَمارينـه حتـى صـار كل شـيء أمامـه هـو عـزام الشـماس الـذي اسـتطاع في الفتـرة التـي غـاب فِيهـا باسـل عـن العزبـة أن يعثـر علـى فَتـاة فيهـا شـبه كبيـر مـن ليلـى بـل مـن يراهـا ربمـا يظـن لأول وهلـة أنهـا هـي .

وكان مـن عَثـر عليهـا مـن رجالـه الذيـن لـم يكلـوا ولـم يملـوا ولـم يَذوقـوا النـوم إلا قليـلاً مـن أجـل العثـور عليهـا، الـذي عثـر عليهـا بعـد عنـاء مُضنـي هـو أنـور في مَنطقـة ريفيـة نائيـة، ظـن أنـور أنهـا ليلـى في البدايـة فظـل يراقبهـا فتـرة ثـم أخبـر عـزام عنهـا، فشـك هـو الآخـر مـن كلام أنـور أنهـا هـي، ولكـن بمقارنـة صـور ليلـى بهـا لمـا خطفوهـا مـن حضـن والديهـا تبـين أنهـا ليسـت هـي، فليلـى فيهـا شـامة أسـفل خدهـا الأيمـن، وليلـى شـفتاها غليظتـان أمـا هـذه فشـفتاها رقيقتـان يتوجـان فـم صغيـر، فتبـين لـه ولرجالـه أنهـا لَيسـت هـي ، ولكنهـا شـبيهة بهـا في باقـي وجههـا وملامحهـا وجَسـدها كلـه إلا أن ليلـى ثدياهـا كبيـران عـن ثديـي هـذه الفتـاة، فأصـدر عـزام أمـرًا لرجالـه أن يُحاولـوا أن يقربـوا بينهمـا بوضـع شـامة بـأي طريقـة وبتكبيـر ثَدييهـا وبتغليـظ شـفتيها، ولكـن هـذا الأمـر هـو مـا اسـتصعبه رجالـه، فالشـامة سَـيضعون شـيئًا أسـود في مكانهـا أو لا يَضيفـون شـيئًا وهـذا كان اقتـراح حسـني، إذا سـئلوا عنهـا يَقولـون إنهـم نزعوهـا مـن وجههـا

أثناء تعذيبها بعد القبض عليها، وهذا استحسنه عزام، وبالنسبة لتكبير ثدييها فقد كان أسهل شيء عليهم ، وشارك فيه رجاله الأربعة المقربون بمداعبة ثدييها ومصهما، أما الشيء الثالث المُختلف وهو الشفتان فهذا شيء استصعبه الأربعة، ولكن عزام قال :

ـ هذا الشيء لا يهم أيضًا، سنتغاضى عنه وهم سيتغاضون عنه أيضًا أو نقول لهم خلعنا شفتيها أثناء التعذيب، فهذا أمر سهل جدًا، أرشدنا إليه حسنى باقتراحه السابق

وتنفس نَفسًا عَميقًا وقال :

ـ الآن أستطيع أن أتنفس من أعماق صدري بطمأنينة نفسية وراحة بال وأمن يغمر كل شيء حولي .

ونظر إليهم الأربعة الواقفين أمامه مهللين لتهلله وفرحه ، وقال لهم :

ـ أنتم أفضل رجالي، ولكم مِني تَقدير كبير ، ومكافآت ثَمينة وهدايا قيمة لما قدمتوه لي ولكن هذا لن يَحدث إلا بعد أن تمر الحفلة بسلام ويقتنع أصحابنا أن هذه الفتاة هي ليلى .

●●●

(٢٢)

كل مـن كان يُحـب باسـلا كان قَلقًـا عليـه ﻓﻲ غيبتـه هـذه التـي استمرت أسـبوعًا كامـلاً، أولهـم الباشـا، وأم هـاشـم التـي تَقطـع قلبهـا قلقًـا عليه بالرغـم مـن أنـه أخبرهـا أنـه سَـيغيب أسـبوعًا عنـد بعض أصدقائـه الذيـن كانـوا معـه ﻓﻲ المُعتقـل ﻓﻲ القاهـرة .

وكان مـن هـؤلاء المُنشـغلين بأمـر اختفـاء باسـل حسـن الـذي طالـت حِيرتـه وظـل يتقلـب علـى جَمـر القلـق والتَفكيـر حتـى احتوتـه الوسـاوس كمـا احتـوت لطفـي ومحشـته مـن كثـرة أسـئلة حسـن لـه عـن مـكان باسـل، وسـبب غيابـه الطويـل هـذا سـأله أكثـر مـن ثـلاث مـرات .

وكأن لطفـي كان يعلـم أن باسـلا سَـيخرج ﻓﻲ هـذا اليـوم، فظـل مـن الصبـاح إلـى الظهـر عنـد بيتـه ينتظـر قدومـه، ﻓﻲ هـذه الفتـرة القليلـة جـاءه حسـن أكثـر مـن ثـلاث مـرات يَسـأله عـن باسـل ، فهـو يعلـم أن باسـلا سَـيغيب أسـبوعًا فقـط، قـد أخبـره قبـل غيابـه ، حسـب المـدة جيـدًا، فظـل يَتـردد علـى لطفـي الـذي طفـق يهيـئ البيـت لاسـتقبال باسـل، وإعـداد طعـام لـه يَتقـوى بـه .

ولكـن أسـئلة حسـن المُتكـررة جعلتـه ينهمـر ﻓﻲ بركـة مـن الوسـاوس والأفـكار التـي سـحفته بعيـدًا، وأنهكـت عقلـه، فثـارت بواخـر الشـك ﻓﻲ قلبـه تجـول ﻓﻲ كل ذراتـه فَخـرج يتنفـس بعـض الهـواء النقـي أسـفل شـجرة الكافـور التـي تطـل علـى ترعـة قديمـة مياههـا راكـدة .

جثم يداعب هذه المياه الصامتة بِحبات من الحصا، وهو منشغل بالتفكير في أمر باسل ، وإن كان لا يشك لحظة في قلبه النَظيف وإخلاصه للباشا، وحبه للناس، ولكنه رأى تغير أحوال باسل بعد خُروجه من المعتقل وسعيه وراء المجرمين .

هو يعلم أن باسلا يعزم على الانتقام من الطاغية المتجبر في الأرض الذي يعيث فسادًا في كل مكان، لم يسلم أحد من شره ، ولكنه سأل نفسه :

- هل أخبر باسل الباشا بما ينوي فِعله أم يخفي عنه ؟

لم يُكثر من التفكير فقد قطع هم ذلك التفكير وشظاياه ظهور شخص في الأفق من بعيد يحمل حقيبة سفر ماركة " أمريكان توريسير " والتي تملكها شركة سامسونايت، سوداء اللون، وتبدو ثقيلة من حمل هذا الشخص لها .

وقف لطفي على أمل أن يكون باسلا، وقد بدأت تظهر ملامحه فتأكد أنه هو فجرى عليه يَحتضنه، ويحمل عنه الحقيبة وهو فرح مسرور، كان ذلك بعد الظهر بقليل، وبمجرد دخولهما البيت وقبل أن يجلس باسل ليستريح قليلا قال لطفي :

ـ حسن متولي سأل عليك كثيرًا ، يبدو عليه أن هناك أمرًا خطيرًا يريدك من أجله .

حملق باسل في وجهه وهو مازال صامتًا ثم نظر إلى الحقيبة التي وضعها لطفي على الأرض وقال :

- أدخل هذه الحقيبة، غرفة نومي يا لطفي من فضلك ، وضعها تحت سريري .

- تحت أمرك

ويدخل لطفي بالحقيبة، ويرفع مرتبة السرير ويضع ألواحه الخشبية على الأرض ثم يضع الحقيبة ثم يدقق النظر إليها ويقول لنفسه:

- أكيد في هذه الحقيبة السلاح .

ثم ينتبه لصوت في وسط البيت، فيسرع بِوضع الألواح والمرتبة مرة أخرى ويخرج فيجد باسلا مُحتضنًا حَسنًا ، يبتسم لطفي ويقول مُداعبًا حسن :

- قد جاءك صديقك أخيرًا ياعم حسن قل له ما تريد .

يبتسم باسل وحسن الذي ظل صامتًا ينظر تارة لباسل وتارة للطفي فيشعر باسل ولطفي أنه لا يريد الحديث أمامه فيقول باسل :

- تكلم يا حسن، لطفي لم يَعد غريبًا عنا ، وهو يعرف كل شيء ، وساعدني كثيرًا .

ـ منـذ أمـس وحتـى الآن ﰲ عزبـة الشـماس تحضيـرات كبيـرة جدًا وتشـديدات أمنيـة مكثفـة ، عرفـت أنـه يجهـز ويعـد لحفلـة مَاجنة كبيـرة مـن حفلاتـه الشـهيرة الليلـة ، وأمـس ليـلاً رأيـت بعينـي رجـال الشـماس جـلال وأنـور ينـزلان مـن سـيارة مصفحـة ومعهمـا فتـاة جميلـة مُقرنـة ﰲ الأصفـاد

ينتبه باسل لكلام حسن بشأن الفتاة فيقول :

ـ فتاة جميلة !! كيف كان شكلها ؟

ـ بِصراحـة كان الجـو مظلمـا للغايـة إلا مـن ضـوء مصباحـين يسـتنمان سـور الحديقـة مـن جانبـي البوابـة ، فلـم أسـتبن شـيئًا مـن ملامحهـا إلا بيـاض وجههـا وشـعرها الأسـود الداكـن .

يشرد باسل ﰲ غضب ثم يقول :

ـ هذه أكيد ليلى ، قبضوا عليها

ثم يعود إليهما بوجهه ويقول ﰲ حماس :

ـ حسـن ، لطفـي ، أنـا محتـاج إليكمـا الليلـة ضـروري ، فهـل أنتمـا معـي ؟

قال حسن :

ـ أنا معك ﰲ أي شيء

وقال لطفي:

ـ وأنا كذلك، لن أتركك أبدًا مهما حصل

ابتسم حسن وقال :

- جميل جدًا ، سأقول لكما خطتي ، ولكن يا حسن أريد أن أعرف: مخازن الشماس كيف حال الحراسة عليها شديدة أم ماذا ؟

- هي في الأيام العادية يكون على كل مخزن خفيران ، لكن أظن العدد سيقل الليلة لأن غالب حراسته ستكون في السرايا وحولها، الظاهر أن شخصيات كَبيرة ومناصب رفيعة ستحضر هذه الحفلة، لأني رأيت انتشارًا مُكثفًا لرجال الشماس، وكلابهم المدربة خارج السرايا وفي الحديقة، وهذا غير المُنتشرين في مداخل العزبة .

- سننفذ ضربتنا الليلة إن شاء الله، سأخبركما بالخطة ثم أذهب لمقابلة الباشا وطمأنته والاطمئنان على الست أم هاشم، وسيكون موعدنا الليل.

قص عليهما خطته الفجائية ثم تركهما في بيته وذهب لمقابلة الباشا الذي كان ينتظر قدومه بشدة، فقد اشتاق له، وربما زايله شك أن باسلا ربما يتركه ولن يعود مرة أخرى فبات قَلقًا عليه مُنشغلاً بتلك الأفكار التي تراوده بين الفينة والأخرى حتى رأى باسلا مَاثلاً أمامه مُبتسمًا .

هش له الباشا وفرح وكأنه طفل صغير وجد أمه بعد غياب، فقام إليه يحتضنه في شدة مُهنئًا إياه على عودته بالسلامة، ثم صافحه وضغط بيده على يده وهو يشفنه في حب ورحمة، ثم قال له الباشا :

- أتعرف أن أكثر ما يعجبني فيك هو الصدق والصراحة

ابتسم باسل من كلامه فقد فَطن لمغزى كلامه فقال :

- أنا لم أكن في المولد .

- أنا أعلم

يَميل باسل برأسه يَسارًا تَعجبًا فيتابع الباشا ويقول :

- أعلم أنك لم تكن في المولد، ولن أسألك أين كنت طيلة هذا الأسبوع ؟ وماذا كنت تفعل ؟ أتعرف لماذا ؟ لأني أثق فيك .

- وإن شاء الله ستجدني عند حسن ظنك .

- أهم شيء يا باسل، ألا تُؤذي نفسك ، ولا تُؤذيني ولا تؤذ الست أم هاشم ولا تؤذ ولا تضر أي أحد مِمن حولك

- اطمئن يا باشا، من حولي أنت والست أم هاشم ، أنتما أهلي، أقدمكما على نفسي، ولن أسمح بأن يُؤذى أي شخص بسببي حتى لو أدفع حياتي ثمنا لذلك

- خذ بالك من نفسك جيدًا، وأرجو ألا تبتعد عنا مرة أخرى، فأنت صرت شخصًا مُهمًا لنا جَميعًا، كانت الأماكن من غيرك خرابا .

(٢٣)

مـع هبـوب نسـيم تلـك الليلـة الصيفيـة، ومـع خسـوف القمـر وغيابـه عـن مـداره وربـوض الظـلام يجثـم فـوق الصـدور وألحـاظ العيون كانت الوفـود تتوافـد تتـرى في سياراتهم على قصر الشـماس، حتـى صـار الطريـق مـن جانبيـه مـن مُقدمتـه حتـى مُؤخرتـه يغـص بالسـيارات الفارهـة .

كان الشـماس يسـتقبلهم اسـتقبالاً حميمـا في مدخـل قصـره وحولـه رجالـه المقربـون الأربعـة جـلال وأنـور وحسـني ومرسـي .

لـم يتغيـر اسـتقباله للجميـع مُصافحـة في اعتـدال وشـموخ إلا مـع رجـل جـاء في سـيارة جيـب مغطـاة الـرأس وحولـه بعـض قـوات الإنجليـز تحيـط بـه مـن كل جانـب أسـلحتهم لا تفـارق أيديهـم، فبـدا أن هـذا الرجـل خَطيـرًا ومكانتـه أعلـى مِمـن دخلـوا وظهـر ذلـك مـن اسـتقبال الشـماس الـذي تَغيـر معـه بانحنـاءة خفيفـة للأمـام وهـو يصافحـه كأنـه سـيقبل يـده، أخـرج هـذا الرجـل مـن فمـه غليونـه الفخـم المصنـوع مـن خشـب العنبـر ذي اللـون البنـي ، يَتطايـر مـن فوهتـه دخـان التبـغ الهنـدي ، ثـم قـال بصـوت أجـش :

- أنا جئت فقط لأخذ قاتلة ديفيد .

- وستكون هي هديتي لك الليلة تفعل بها ما تَشاء

- هـذه القاتلـة وراءهـا تَنظيـم قـوي مسـلح يهـدف إلـى تخريـب البلـد وعـن طريقهـا سـنعرف كل المتآمريـن علينـا

سـار عـزام بجـوار الجنـرال " دونالـد رودلـف سـميث " في استكانة وخضـوع وخلفهمـا رجالهمـا يحرسـونهما حتـى دخـلا القصـر، واحتوتهمـا الحلفـة ، وقـد انتشـر رجالهمـا في أركان القصـر لمراقبـة هـذه الحفلـة التـي تضـج بالموسـيقى الصاخبـة الراقصـة ، تتنـاوب فيهـا كـؤوس الخمـور والشَـمبانيا الفرنسـية المعتقـة علـى صوانـي مـن الزجـاج في أيـدي فتيـات جميـلات وغلمـان مـردان في ثيـاب شـفافة جذابـة ، قـد انشـغل الجميـع بالحفـل مـا بـين مسـتمع ومُسـتفيد ومراقـب وحـارس ومترصـد ومترقـب ومتوغـل في الملاهـي والملـذات ، غيـر عابئـين بمـا يحـدث في الخـارج أو لـم يَخطـر في بالهـم أقصـد الشـماس ورجالـه مـا يحـدث في الجانـب الآخـر مـن عزبتـه .

كان لطفـي وحسـن يقتربـان مـن تَنفيـذ مهمتهمـا عنـد مخـازن الشـماس التـي تقـع جنـوب العزبـة ، أبصـرا مـن خلـف أعـواد الـذرة الشـامية التـي تطـل علـى هـذه المخـازن ، فَوجـدا أربعـة خفـراء علـى كل مَخـزن خَفيـران ، جالسـين في حلقـة يشـربون الشـاي يَتسـامرون والهـدوء يسـود مـن حولهمـا ، فلـم يتسـرب شـك ولـو واحـد في المليـون أن أحـدًا مُمكـن أن يتجـرأ ويسـطو أو يسـلب شـيئًا يمتلكـه الشـماس، فَجلسـوا مُطمئنـين يتسـامرون وهـم يشـربون الشـاي بينمـا أعـين

حسن ولطفي مُسلطة عليهم من خلال هذا اللثام الذي يواري وجوههما، لم يتسرب الخوف إلى قلبيهما بل كانا أكثر ثباتًا .

نظرا إلى بعضهما ثم سلك كل واحد منهما طريقًا عكس اتجاه الآخر، أحس أحد الخفراء بِخرفشة وضَجيجا في أرض الذرة الشامة التي خلفهم ، فأنصت بأذنه ، ثم عاود مسامرته مَعهم يرتشف رشفة حتى سمع دوي رصاص مرتفع فتقع الكوب من يده ، ويهب مع الثلاثة الآخرون مَذعورين مشهرين بنادقهم يتلفتون حولهم ، ثم سَمعوا دويًا آخر وبرقا يلمع في السماء من الرصاص يرونه ينبعث من أرض الذرة ، فَيشير أحدهما إلى اثنين مِنهما أن يتجها نحو الذرة ليستكشفا الأمر ، ويظل هو وآخر عند المخازن .

وفي ثواني احتوى حقل الذرة الاثنين فَظل يتلفتان حولهما في همس ، يتسمعان أي صوت، فلم يشعرا بِشيء، يقف أحدهما ويسير الآخر خطوات ثم يلتفت مُباشرة خلفه إثر سماعه صوت ضربة قوية بشومة على الرأس فيدور بِجسمه بِسرعة فيرى صديقه على الأرض فَيذهل، وتتسع عيناه ويجري عليه فيتلقى ضربة أخرى من الخلف فيخر فوق صاحبه، والسلاح في يده، يظهر حسن ولطفي من اتجاهين مُتقابلين، وفي يد كل منهما شومة يشير حسن بإبهامه إلى لطفى علامة النصر والرضا ، ثم يشير إليه برأسه فيتحرك لطفي

للأمام في الوقت الذي يَتحرك فيه أحد الخفيرين الآخرين نحو أرض الذرة ليستكشفا سَبب تأخر صاحبيهما، وقد بدأ الرعب يدب في صدورهما، فيتحرك الثالث نحو الأرض في قلق مُصوبًا بندقيته أمامه، وقد بدأ يكلله الخوف هو والرابع الذي ظَل واقفًا أمام المخزن يَتلفت يمنة ويسرة في تعاقب سريع مظلل بِسحائب من الخوف، يُنفث عن خوفه بإطلاق عيارين في الهواء، فيلتفت الثالث ليرى مصدر الطلقة فيجدها من صاحبه، فيلتفت مرة أخرى نحو أرض الذرة فَيلاقى ضربة قوية في وجهه من مُؤخرة بندقية في يد أحد الملثمين فيهوى على ظهره صَارخًا :

ـ آه .

يرتعب الرابع ويدور حوله كَالمجنون فيرى رجلاً مُثلما يخرج من الذرة وبندقية مصوبة نحوه وإصبعه على الزناد، فترتعش رجلاه ويرتجف قلبه يخطو نحوه الملثم ويقول:

ـ ارمِ البندقية على الأرض ، وانزل على ركبتيك وإلا نَسفت رأسك هذه

ترتعش يده وهو ينحني ليجثو على ركبتيه ويرمي البندقية، ثم يأتي من خلفه الملثم الآخر وفي يده حبل و" جركن كيروسين " يضع الجركن جَانبًا ويصفد الخفير الرابع في الأغلال يربط يديه ورجليه بينما يقول حسن المصوب بندقيته للخفير :

ـ أين مفاتيح المخازن ؟

ينظر إليه الخفير في خوف ويقول:

ـ أنتما لا تَعرفان لمن هذه المخازن، ستموتان ويموت كل من ينتمي إليكما

يصفعه لطفي على وجهه بقوة ويقول:

ـ لا تكثر من الكلام وقل أين مَفاتيح المخازن وإلا أحرقناك مثلها

ـ المفاتيح في جيب جلبابي الأيمن

يمد لطفي يده بسرعة فيخرج حلقة دائرية تحوي مَفاتيح كثيرة ، ثم هرع نحو باب المخزن ليفتحه يجرب مُفتاحًا وراء مفتاح حتى فتحه، يقول الخفير وهو ينظر لحسن الملثم :

ـ لن تفلتا بعملتكما تلك

ينظر إليه حسن ثم يقول للطفي :

ـ بسرعة ليس أمامنا وقت

ينزع لطفي سدادة الجركن وينثر الكيروسين هنا وهناك على محتويات المخزن من الأجولة المعبأة بالحبوب والثمار التي يغص بها المخزن ومثله المخزن الآخر، ثم يرمي كل منهما عُودًا من أعواد الثقاب المشتعلة داخل المخزن فتستعر النار في كل ما تقابله حتى بدأت ألسنة اللهب ترتفع رُويدًا رويدًا

ثـم سـارا نحـو الخفيـر الرابـع الذيـن لـم يُغيبـاه عـن الوعـي قصـدًا، نظـر إليـه حسـن ثـم نظـر إلـى لطفـي وقـال :

ـ فكه الآن لِيخبر سيده .

ترتفـع ألسـنة اللهـب المُتقـدة تلتهـم سـقف المخزنـين وجدرانهمـا حتـى علتهمـا وطفقـت تنهـش فيهمـا وفي كل مـا في داخلهـا حتـى بـرزت تلـك النيـران إلـى الوجـود مُزغـردة معلنـة عـن نفسـها ، مـلأت الفضـاءِ مضيئـة هـذا الظـلام الدجوجـي .

هـرول الخفيـر مسـرعًا يطفـر في جريـه يسـابق الهـواء كـي يصـل إلـى قصـر سـيده فيخبـره بمـا حصـل ، يجـري ويقـع ثـم يَقـوم يُسـرع في عـدوه ثـم يقـع حتـى بـدأ يظهـر مـن بَعيـد وهـو ينظـر إلـى الأضـواء المُنبعثـة مـن القصـر ، يـراه باسـل وهـو متـوار خلـف أشـجار الزينـة القريبـة مـن قصـر الشـماس ، ثـم يختفـي باسـل مـن خلـف الأشـجار بِمجـرد اختفـاء الخفيـر في الحديقـة ، دخـل وهـو مُنهـك مـن الجـري مصهـر مـن الخـوف ممحـش مـن الرعـب ، يلتـف حولـه بعـض حـراس الحديقـة موجهـين مُسدسـاتهم نحـوه ، فيخـر علـى الأرض وهـو يصيـح:

ـ أنـا شـفيق خفيـر الباشـا ، فيـه حاجـة خطيـرة حَصلـت ، مـج ... مجرمـين أشـعلوا النيـران في مخـازن الباشـا

ينظـرون إلـى بَعضهـم ثـم يحملونـه إلـى غرفـة مُغلقـة خلـف القصـر ، ثـم يذهـب أحـد الحـراس ويميـل علـى أذن جـلال ، وكان

يقف مع عامر يرتشفان من الخمر في ركن منعزلين عن الجميع، تَتفهق عيناه من الذهول ويفور الغضب يقفز من عينيه ثم يضغط على شفتيه ويهز رأسه في ارتباك واضطراب ثم يشير بوجهه له أن ينصرف ويتبع الخطوة تلو الخطوة حتى يَقف خلف عزام الشماس الجالس مع الجنرال " دونالد رودلف سميث " في غرفة مُنفصلين بينما راقصة شبه عارية تتلوى أمامهما ، وأخرى تناولهما كؤوس الشمبانيا ماركة بلانك دى بلانك مَصنوعة من العنب الأبيض في شمال فرنسا

كان غارقين في الضحك والمتابعة لتلك الراقصة من جانب الجنرال الإنجليزي الذي بدا كأنه غائبًا عما حوله فلم يشعر بدخول جلال الذي وقف خلف عزام ، فاندهش عزام وذهل من تبدل ملامح جلال التي لا تبشر بخير فهز يده اليمنى يقول له بها :

- ماذا هناك ؟

يميل على أذنه يهمس فيها، فَتبرق عيناه ، وهو يتابع الباشا الذي لاحظ هذا الأمر فَتوقف عن مُتابعة الراقصة وثبت بصره عليهما، فقال:

- ما الأمر يا عزام؟

- أستأذنك أذهب لأمر مهم سأعود حالاً، خذ راحتك كل ما هنا تحت أمرك .

يخـرج عـزام وخلفـه جـلال بينمـا يَظـل بصـر الجنـرال مُعلقًـا بالبـاب الـذي أغلـق فـور خروجهمـا ، وبـدأ الشـك يُسـاوره وبـوادر القلـق تنسـاب إليـه في خفـة

وقـف عـزام يَتفحـص وجـه الخفيـر الواقـف بـين رجلـين مـن رجالـه، يسـندانه حتـى لا يهـوى علـى الأرض وهـو يبكـي أمامـه تنهـل الدمـوع بغـزارة يسـتصفحه ويستسـمحه :

- أرجوك سامحني .

- أسـامحك علـى مـاذا يـا شـفيق ؟ وأيـن باقـي الفاشـلين الذيـن كانـوا معـك

- اختفـى رجـب وخضـر ربمـا ضُربـوا أو قتلـوا، أمـا حمـدان فرأيتـه يضـرب في وجهـه بالبندقيـة حتـى خـر صَريعًـا علـى الأرض .

يخطـو نحـوه وينظـر في عينيـه فيـزداد بـكاءه ونحيبـه ، ترتعـش رجـلاه قـد انثـال بولـه مـن قضيبـه يغسـل جلبابـه ، يخفـض عـزام بصـره فيجـد ملابسـه قـد ابتلـت فيشـمئز ويبتعـد عنـه قليلاً ثـم يقول:

- كانا ... كانا مُلثمين يا باشا .

يشـتاط عـزام، غضبًـا حتـى ملكـه واسـتولى عليـه فصفعـه علـى خـده الأيمـن صفعـة مدويـة وقـال :

ـ ملثمين يا كلاب !! حسابكم معي لاحقًا سأعلقكم من أرجلكم وأسلخ جلودكم أمام الجميع .

ثم يتلفت إلى جلال فيقول جلال :

- تحت أمرك يا باشا

- أرسل أنورا مع عدد من رجالنا في السر، يَجمعون أهل العزبة كلهم ويطفئون هذه النار بأقصى سرعة، لا أريد أن يَشعر الجنرال بشيء .

- أرى أن نبلغ المطافئ أفضل

- قلت لك لا أريد أن يشعر الجنرال بشيء يا جلال تقول لي نتصل بالمطافئ لتزعجنا وتعمل لي شَوشرة مع الإنجليز، ونحن على وشك أن نعود كما كنا تأتي الآن وتقول مَطافئ، ويعرف الأمر، ويظهر أن عزام الشماس لا يعرف أن يحمي أملاكه من مجموعة لصوص مُجرمين، اسمع الآن أريد أن تنطفئ النار بأقصى سرعة وبِدون شوشرة أو ضجيج كأن الأمر لم يحدث، وبعدها مُباشرة تبدأ في العثور على هذين الكلبين كي أصلبهما وأعلق رؤوسهما على بوابة القصر .

- ما رأيك أن أذهب أنا بدلاً من أنور

- لا ، أنا أريدك في القصر

يهز رأسه خضوعًا :

ـ تحت أمرك ياباشا .

وينصرف جلال ، يلتفت عزام إلى الرجلين المُمسكين بالخفير فيقول لهما :

- جرداه من ملابسه كلها واربطاه هنا حتى ينتهي الحفل وينصرف الجميع

- أرجوك ارحمني ارحمني، أنا لم أفعل شيئًا .

ويتركه عزام ويهرول يخرج من هذه الغرفة القاتمة وهو عابس الوجه مكفهر الجبين مغبر الناصية ، يُعدل من هيئته من الداخل مُحاولاً التماسك والتظاهر بأن شيئا لم يحدث ، ولكن رغم ابتسامته التي تجلجل على شفتيه لاحظ دونالد على وجهه شيئًا من الغضب والغيظ، فقال له :

ـ ما الأمر يا عزام ؟ وجهك ليس مريحًا، وماذا كان يقول لك هذا الرجل من رجالك ؟

يبتسم عزام والكأس في يده ثم يقول:

- لا تشغل بالك يا مَعالي الجنرال بذلك، فهذه أمور تخص رجالي وبعض أعمالي هنا.

- أرجو ألا يكون هناك شيء مريب فهذه الأيام صار يحدث في قصرك أشياء مريبة

يضحك عزام ويقول :

ـ أيها الجنرال أنا عزام الشماس ومازلت عزام وما حدث لم يكن أحد يتوقعه وقد عثرنا على القاتلة، فهيا لتراها وتقول رأيك فيها وقرارك فيما يخص مصيرها.

كانت فتاة مَسكينة قبضوا عليها عنوة من وسط أهلها لخداع الإنجليز بأنها ليلى أرقدوها على الأرض في وضع الجثو، عن يمينها ويسارها مرسي وحسني.

يحدق فيها الجنرال دونالد قد وضع نَظارته الطبية على عينيه، والغليون في فمه وعن يمينه يقف عزام وهو ينظر إلى حسني تارة، وإلى مرسي تارة أخرى ثم ثالثة إلى الفتاة المُجهشة في البكاء، يقترب منها دونالد ويشير إليها بغليونه ويقول :

ـ أنت التي قَتلت الميجور ديفيد كستتر أعز أصدقائي

ترتمي الفتاة على رجليه تُقبلهما وهي تنثر دموعها عليهما وتصرخ بصوت مفئود :

ـ والله العظيم لم أقتل أحدًا، هؤلاء أخذوني من بين عائلتي دون أن نعرف السبب، أنا لم أفعل شيئًا سيئًا في حَياتي، فكيف أقدم على القتل؟ ومن ؟ رجلا إنجليزيا ، أبدًا، والله لم أقتله

يحدج فيها دونالد ثم يَهز رأسه ثم يدفعها بقدمه فتنقلب على ظهرها وهي منهارة في العويل والنحيب ، ثم يهز رأسه مرة أخرى وهو ينظر إلى عزام الذي يقول له بمجرد نظره إليه :

- ماذا تريد أن نفعل بها ؟ هل نَقتلها ، أم نمارس معها أساليبنا أم ستأخذونها معكم ؟

- سيأخذها رجالي معهم أثناء رحلينا ، فلا تقلق من شيء بعد الآن ، أنت الآن براءة قد أخليت مسؤوليتك ، وسوف أعلم اللورد بذلك ، فانعم بِحياتك من جديد يا شماس .

يبتسم عزام ابتسامة خَبيثة وهو ينظر إلى حسني ومرسي .

وفجأة يسمعون هزيم رصاص يدوي خلف القصر، فتفزع له آذان دونالد وعزام وحسني ومرسي ومن في الغرفة، وتفزع آذانهم لقرع شديد على باب الغرفة فَيجري حسني يفتح الباب فيدخل عامر مُسرعًا تسابق أنفاسه خطواته يقول :

- لمح رجالنا المتجولين خلف القصر رجلاً ملثما يعتلي ماسورة المجاري خلف القصر فأطلق عليه النار، ولكنه قذف نفسه على سطح القصر

صعق الوقفون من كلام عامر وبدا الغضب على وجه دونالد الذي نظر إلى عزام، وكأن ملابس عزام قد ابتلت، ابتلع ريقه وأعلن صياحه وصخبه وقال :

ـ ماذا تقول ؟ من يَجرؤ على فعل ذلك في قصري وفي خضم رجالي

يهز دونالد رأسه ويقول :

ـ اهتزت صورتك كثيرًا يا عزام في الفترة الأخيرة

يلتفت عزام إليه ويقول مُتلطفًا :

ـ سيادة الجنرال هذا أمر طارئ وأكيد فيه خطأ ما، وسأكتشف ذلك بنفسي وسترى ماذا سأفعل فيمن تجرأ على فعل ذلك سواء قصدا أو خطأ

ثم يلتفت ويرفع يده ويهوي بها على وجه عامر في صفعة قوية اهتزت لها الغرفة وأحدثت خللاً في وجوه الواقفين لفجاءتها وقوتها

وضع عامر يده على خده مُندهشا وهو مخفض بصره لا يرفعه إلى عزام الذي قال له :

ـ كلب ، كلاب ، كلكم كلاب، أين جلال الآن ؟

ينظر إيه عامر في خوف ثم يقول :

ـ جلال يتعامل مع الأمر الآن، أرسل بعض الرجال إلى سطح القصر

كان سطح القصر شاسعًا يغوص في الظلام، عبارة عن مكان مستو إلا ما يربو عليه من خزانين للمياه، تتدلى عليهما بعض غصون شجرة "بلوط عملاقة " مورقة، لا تظهر من الظلام الحالك المدفون فيه المكان ولا يبدو باسل المتعلق ببعض غُصونها لا يبدو للثلاثة الذين يتفصحون جنبات السطح في ترقب ومسدساتهم في أيديهم، يبحثون عنه في كل شبر.

أحدهما في ناحية السطح الأمامية، والآخر يخطر نحو الناحية الجنوبية ، والثالث يدلف برفق على أطراف أصابعه عند خزاني المياه ، يسمع خرفشة فيجعل مُسدسه في وضع الاستعداد، ويتحرك جانبيًا بجنبه الأيسر حتى يقترب من الغصن المورق المدلى المتعلق به باسل وقد حاك الظلام أعينهم ينظر فتتلاقى عينه في عين باسل، ولم تكن عينا باسل فقط التي التقت بعينيه فقد كان مسدس باسل في رأسه ولم يترك له فرصة التفكير والاختيار فضغط على الزناد فخرجت رُصاصة فاخترقت رأسه فهو على السطح كالجدار المنهد، فالتفت إليه صَاحباه بمسدسيهما يطلقان الرصاص نحو خزاني المياه وفي الشجرة بصورة عشوائية ، ثم يقتربان من الأغصان المدلاة برفق وحذر ويطلقان رصاصات فيها ظنًا منهما أنه مازال مَوجودًا عليها، ولكنه لم يكن غبيًا أو أحمق فقد تدلى ونزل مُباشرة بمجرد إصابته الهدف لأنه يعلم أنهما سيبادلانه بإطلاق النار فانتهز الفرصة ونزل يزحف على بطنه من خلف الخزانين

ثم وقف فجأة عن يسار الخزان الثاني من جهة ماسورتي المياه والمجاري وأطلق رصاصة مباشرة اخترقت الصدر فخر الثاني فالتفت الثالث يطلق رصاصته، فعاجلته رصاصة باسل الثالثة في رأسه في هذا الظلام وكأنه أفضل قناص في العالم .

ثم رأى أن يلهيهم عنه حتى لا يرسلوا رجالاً كثر ولا يقدر عليهم فذخيرته قربت على الانتهاء، ولن ينجح في مُحاربة جيش بمفرده ، فرفع أحد القتلى وألقاه أمام مدخل السرايا فوقع أمام حسني وبعض رجال الشماس الذين أصيبوا بالذهول .

وحمل الثاني وألقاه على السلالم المؤدية إلى السطح حيث كان ينتظره جلال الذي ذعر، استكت أذنه وأذن من حوله من هول الرمية ، وتراجع خطوات للخلف وهو مفزوع يَنظر إلى جثة القتيل ثم يرفع نظره إلى أعلى السطح ثم يصيح بالرجال من حوله :

ـ اطلعوا كلكم اقضوا عليه، أريده جُثة هامدة ، بسرعة .

ولم ينتظر باسل حتى يَشتبك معهم في معركة خاسرة ، فامتطى صهوة أغصان الشجرة، وتوارى وسط الأوراق وطفق يزحف عليها حتى وصل لطرف أطول أغصانها المُدلى قَريبًا من سور القصر الخلفي المطل على ترعة كبيرة بعض الشيء لذلك يسمونها بحرًا صَغيرًا .

واستجمع أشلائه قبل أن يصلوا إليه وبدون تفكير ألقى بنفسه بكل قوته فارتطم بجزء من السور قبل أن يقع في الترعة ليختفي عن الأعين التي ظلت تبحث عنه هنا وهناك تفتش كل ركن في القصر من الداخل والخارج وكل شبر في الحديقة وما يحيط بالقصر من طرق ومياه وحقول، أصدر عزام أوامر لرجاله بتمشيط العزبة كلها حتى العثور على هذا القاتل الذي قتل ثلاثة من رجاله في عقر قصره وسط جيشه ووسط قوات الإنجليز التي جاءت لحماية الجنرال دونالد رودفلد سميث الذي شفن عزام في غضب شديد وصاح به :

ـ ما هذا الذي يحدث يا عزام وأراه بعيني لو كان أحد حدثني بذلك ما كنت صدقته ، ولكني رأيت اليوم ؟ أكيد ما حَدث المقصود منه أنا ، هذه محاولة لاغتيالي مِثلما اغتيل صديقي ديفيد هنا من قبل أمام رجالك، وهذه المرة يقتل ثلاثة من رجالك في قصرك ووسط رجالك وقواتك ؟ أين ذهبت هيبتك وقوتك وشراستك ، لم تعد قَادرًا على حماية نفسك فكيف ستحمينا ، لم تعد صالحًا للعمل معنا

حاول عزام أن يُخفي شيئًا من غضبه وقهره فقال بلطف واستعطاف:

- ما هذا الذي تقوله سيادة الجنرال ؟! أنا مازلت عزام الشماس الذي تعرفونه جيدًا .

- الظاهر أن هذا الزمن فات وولى يا عزام .

صاح عزام :

- لا ، لا تقل ذلك، هذه مُؤامرة كبيرة عليّ، ليست عملاً فَرديًا، إنها مؤامرة يشترك فيها أعداء كثيرون لي، وأنا قادر أن أسحقهم جَميعًا وسترى

- أنا سأخبر بكل ما حدث الليلة يا عزام للقيادة العليا

- أرجوك يا صديقي دونالك، تصبر قَليلاً ، يومًا واحدًا وسترى ماذا سأفعل

- من يعمل معنا يا عزام لا يكون قويًا فقط، بل يجب أن يظل قويًا حتى الموت ولا يتزعزع ذرة واحدة، وأنت من أفضل عُملائنا ليس في مصر وحدها، وإنما في الشرق الأوسط كله ، ولا نريد أن نَخسرك على أي حال نحن نمر بأوقات عصيبة هذه الأيام ، اضطرابات في كل مكان ليس في مصر وحدها، وإنما في كثير من مُستعمراتنا المختلفة، ولا نريد أي خلخلة أو زعزعة لاستقرارنا في هذه المستعمرات، ومصر من أهم مستعمراتنا في الشرق الأوسط كله ويجب أن تظل حليفة لبريطانيا أبد الدهر، فنحن لن نخرج من هنا مَهما حصل، ولكن هذا لن يحصل إلا بالقوة والحزم، وهذا هو ما جعل القيادة تَثق فيك وتقول عنك أنك قدمت لبريطانيا أكثر مما

قدم البريطانيون لوطنهم، ولكن أظن أن عهد هذه المقولة ولى وانتهى

- لا تتسرع بالحكم وقلت لك اصبر حتى ترى بِعينك وتسمع بأذنك ماذا سأفعل؟

- القمع من أفضل الأساليب التي ترهب العدو والصديق في آن واحد يا عزام ولأنك صديقي سَأقف بجوارك للمرة الأخيرة ننتظر منك ردًا سريعًا على كل ما حدث نريدك كما كنت سابقا

تبرق عينا عزام ويقول :

ـ سترى ماذا سأفعل يا صديقي ولن أخذلكم أبدا مَهما حدث .

●●●

(٢٤)

اضطرب عزام واضطرم، تقلى على جمر الغيظ وتقلب، فار غَيظًا ، وتميز حقدًا، وتلظى غَضبًا، وتزيد حنِقًا، تلوى تلوي الحية في الرمضاء فما تنفع معه حيلة، ولا تصلحه رقية، قد أثار كوامن الشر من داخله رغبة في الانتقام مما حدث في قصره اليوم، وما حدث لمخازنه، فحشر رجاله وحشد واستمد واستنجد واستعد، كاشف وبادى وحشر فنادى وضم ونشر وجمع أطرافه وألف ألفافه، وزحف بهم بعد إطفاء الحريق يجمعون أهل العزبة كلهم رجالاً ونساء صغارًا وشُيوخًا، جاءوا بهم عنوة يسوقونهم أمامهم كالبهائم والحيوانات حتى حشروهم في جرن واسع أمام قصر الشماس تحيط به الأشجار من كل جانب من جوانبه الأربعة ، كان على هيئة المربع بمساحة (٨٠٠٠ متر)

أحاط رجاله فراش النار، وخشاش البوار أولئك الكلاب الغاوية والذئاب العاوية عصبة الضلال وعصبة الخبال بِقيادة خمسة من أعتى رجاله وأقربهم إلى عزام الشماس، والنيران مَحشورة في صُدورهم جميعًا.

نهض إليهم الشماس يدور على وجوه الفقراء الغلابة المساكين من أهل العزبة وقد اغبرت وجوههم، وسيطر عليها الخوف والفزع، لا يرق لتلك الوجوه ولا لبكاء النسوان وعويلهن، وصراخ الأطفال، صرخ فيهم :

ـ مـن الـذي أحـرق مَخازنـي وسـطا علـى قصـري الليلـة وقتـل ثلاثـة مـن رجالـي ؟

لا يـرد أحد، ينظـرون إليـه في صمـت وخـوف فَيتعمـق غضبـه في أحشـائه ويتلـوى في قلبـه غيـظ لا يـريم ولا يريـح فصـاح :

ـ لا تريدون الكلام ؟! الآن ستتكلمون يا كلاب .

ويعطـي الأمـر لرجالـه في تجريـد رجالهـم مـن ثيابهـم ، وربطهـم في الأشـجار المحيطـة بالجـرن علـى كل شـجرة اثنـان مـن الأمـام والخلـف، وتهطـل سـياطهم علـى ظهورهـم تقطعهـا وتمزقهـا وسـط صـراخ وصيـاح وعويـل مـن النسـاء والأطفـال، والرجـال الذيـن خـارت قواهـم ولـم يعـدوا يتحملـون تلـك السـياط الملهبـة، فأغمـي علـى عـدد مِنهـم بينمـا الآخـرون تلاشـت أصواتهـم مـن كثـرة الصـراخ، فلمـا لـم يجـد عـزام ورجالـه صوتًـا ولا كلامًـا منهـم، اشـتاط غضبًـا، وقـال موجهـا كلامـه للمعذبـين وأهليهـم :

ـ طيـب هنـاك حـل آخـر تنقـذون بـه أنفسـكم وتذهبـون مـع نسـائكم، طالمـا أنكـم لا تعرفـون شيـئًا، أريـد أن أعـرف مـن مـن أهـل العزبـة يغيـب عنكـم الآن ؟ يعنـي مـن ممـن تعرفـون ممـن يعيـش في العزبـة ليـس موجـودًا معكـم الآن، مـن يعـرف أحـدًا غيـر موجـود الآن يرفـع صوتـه بـه .

ابتسم جلال ورجاله من فكرة عزام الشماس المُذهلة، ونظروا إلى بعضهم كما نظر أهل العزبة كلهم رجالاً ونساء إلى بعضهم في تتابع كأنه يبحثون يعدون أنفسهم ويبحثون عمن لا يوجد بينهم الآن من أهل العزبة .

طالت نظراتهم لبعض فصرخ بهم عزام :

ـ تكلموا وإلا قتل هؤلاء المُصلوبون وعرينا نساءهم ، من يعرف أحدًا غير موجود هنا يرفع صوته به الآن كي تنقذوا أنفسكم من العذاب المهين

ارتفع صوت أحد الرجال :

ـ سيد مصحلي غائب غير موجود بيننا

يبتسم عزام ويقول :

ـ من أيضًا ؟

يرتفع صوت رجل آخر :

ـ مخيمر الفيل

وثالث :

ـ حسن متولي

ورابع :

ـ سالم أبو الفتوح

ويسود صمت بعد ذكر الرابع فيقول عزام :

ـ هاه ، من أيضًا ؟

فلا يتكلم أحد، فيعاود سؤاله :

ـ من أيضا ؟ أم أن هؤلاء هم فقط المتغيبون ؟

يقول رجل هو أسنهم :

ـ هؤلاء فقط المتغيبون عنا الآن، لو كان هناك آخر مُتغيبًا لأخبرنا عنه كي نرجع إلى بِيوتنا وننقذ أولادنا هؤلاء من العذاب.

يحرك رأسه ثم يقول :

ـ وأين هؤلاء الآن ؟

يقول الرجل من تكلم آخرًا :

ـ سيد مصلحي مقيم في الإسكندرية من سنين ولا نعرف عنه شيئًا

ـ والباقون ؟

ـ هؤلاء يعيشون بيننا، ولا ندري أين هم الآن ؟

ـ أنا سأعرف

ويصدر أوامره لرجاله بسرعة القبض على هؤلاء الثلاثة قبل أن تشرق الشمس .

وانتشرت رجاله في كل طرف وركن من أركان العزبة ، على مداخلها ومخارجها، أمسكوا برجل يسير مُترنحا قبل الفجر بقليل ، والثاني أمسكوا به في الضحى، ولم يبق إلا الثالث ، دخل الظهر ولم يقبضوا عليه وهو حسن متولي ، فصاح عزام برجاله :

- يعني اختفى مثلاً ؟ أين هذا الرجل المختفي، ربما يكون هو

قال جلال :

- نحن عرفنا مكانه وعرفنا عنه كل حاجة وجئنا لنأخذ الأمر منك

- لا تأخذ رأيي بذلك اقبضوا عليه فورًا

ثم صمت وقال :

- أين هو؟

- في عزبة سيف باشا ، مُستأجر قطعة أرض هناك ويزرعها

يشرد عزام برأسه قليلاً يفكر ثم يقول :

- هذا الرجل ربما يكون له علاقة وطيدة بما حدث، بسرعة اقبضوا عليه ومن يمنعكم اقتلوه على الفور، واجمعوا الثلاثة في البدروم حتى أشاهد جلسات عذابهم بنفسي .

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرًا عندما رفع حسن رأسه وهو في حقله فيجد حوله جلال وخمسة آخرون من رجال الشماس يحيطون به بمسدساتهم وبنادقهم، ابتلع ريقه، وتجرع نفسه بصعوبة، ورمى الشرشرة التي في يده التي كان يقرضب بها الحشائش .

ويخرجون به من أرضه، وسط عيون الفلاحين الذين وقفوا ثابتين صامتين في حقولهم، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو مُحاولاً الدفاع عنه ولو بكلمة، أخذوه مُكبلاً مُلثمًا رأسه .

كشف الغطاء عن رأسه فوجد نفسه مَربوطًا عَاريًا على عمود حديدي في وضع الاحتضان عن يمينه سالم أبو الفتوح على عمود آخر وهو يبكي، وعن يساره مخيمر الفيل مُقيدًا على العروسة، وهم عرايًا تمامًا وحولهم جلال ورجاله، والشماس الذي يَنظر إليهم يتفحص وجوهم ثم يقول:

ـ أين كنتم الليلة الفائتة، اسمعوا أريد الصدق والصراحة وإلا قطعتم بالسياط الآن، وانتهكت أعراضكم، ترون هذه

(ويرفع أمام أعينهم قطعة من الخشب مَلفوفة على هيئة عصا البسيبول) ثم يقول :

ـ سندخلها في أدباركم إذا لم تَعترفوا بالحقيقة الآن

يصرخ سالم ويقول :

ـ أنا سأقول لكم أين كنت ، أنا ...

ويتردد

-أنا .. أنا كنت في عزبة الفرنواني

يقول عزام :

- ماذا كنت تفعل هناك ؟

- كنت .... كنت ... كنت مع امرأة هناك

- عشيقة

- نعم

- ما اسمها ؟

- أرجوك، هي امرأة مُتزوجة ولديها أولاد، وأنا أيضا رجل مُتزوج ولي أولاد .

- ما اسمها؟

- اسمها هنية إسماعيل القلعاوي

- ما اسم زوجها ؟

- أرجوك

يصيح به :

ـ ما اسمه ؟

ـ فتحي

ـ فتحي ماذا ؟

ـ فتحي ...... فتحي أبو الفتوح

يذهل عزام من هذا الاسم ثم يقول :

ـ أنت اسمك سالم أبو الفتوح وهذا الزوج المَخدوع اسمه فتحي أبو الفتوح ، أهو أخوك ؟

يخفض رأسه ويقول :

ـ نعم

يهز عزام رأسه ويلتفت يدور بِعينيه على وجوه رجاله ثم يقف ببصره على وجه مصطفى المندهش من نَظراته الثابتة ثم يقول :

ـ مصطفى .

ـ تحت أمرك يا عزام باشا

ـ هل تعرف عزبة الفرنواني ؟

- نعم أعرفها ، فأنا أعرف هذه المَنطقة كلها بعزبها وقراها وحواريها وشوارعها

- جيد ، اذهب الآن، خُذ معك رجل من رجالنا، خذ معك محسن يقود السيارة وائتوني بِهذه السيدة هنا الآن

يهز مصطفى رأسه بالموافقة :

- تحت أمرك يا عزام باشا ، سآتيك بها زاحفة

وينصرف مصطفى ، ثم ينظر إلى حسن الذي ينظر إليه في إصرار ثم يتركه ويتجه نحو مخيمر يقول له :

- أين كنت يا مخيمر ؟

وكان مخيمر رجلاً شديدًا ضخم الجثة ذي صوت أجش لذلك أطلقوا عليه الفيل ، ينظر إليه ثم يقول :

- أنا تاجر مواشي وأكيد أنت تعرف ذلك جيدًا

- أنا أعرف كل شيء عنكم جميعًا، تكلم أين كنتم ؟

- كنت في الشرقية؟

- تكلم ، قل كلامك مرة واحدة لا أريد إطالة في الكلام

- كنت في الشرقية أشتري مواشي

- تشتري مواشي ليلاً؟

ـ نعم، ماذا في ذلك ؟

ـ ما اسم الذي كنت تَشتري منه ؟

ـ اسمه المعلم شعلان الدسوقي

ـ أين مكانه بالضبط ؟

ـ في بلبيس بجوار مسجد سادات قريش

يلتفت عزام إلى مرسي ويقول :

ـ مرسي أنت طبعًا أصلك شرقاوي

ـ سأتأكد لك من هذا الكلام فورًا يا عزام باشا

وينصرف مرسي ، ثم يقترب عزام من حسن ويقول :

ـ وأنت أين كنت ؟

ـ كنت في داري

ـ كذاب، وهذا أول الكذب ، ما اسمك ؟

يقول جلال :

ـ هذا حسن متولي

ـ أنت حسن متولي مُستأجر أرض في عزبة سيف باشا عن طريق باسل الذي كان يخفي ليلى التي قتلت الجنرال الإنجليزي، إذن أنت لك علاقة بباسل وبما حدث أمس ؟

يقول جلال :

ـ حسن من أصدقاء باسل .

يجذب عزام شعر حسن ويشده بقوة ويقول :

ـ من الذي أحرق مخازني وقتل رجالي ليلة أمس ؟

ولا يتكلم حسن إلا بِنظراته الغاضبة، يهز عزام رأسه ثم يقول :

ـ هذان تكلما مُباشرة بدون أي تعذيب بمجرد التهديد فقط، أنت لا تريد الكلام، هذا أولا يؤكد الشكوك التي حامت حولك ، ثانيًا يثبت تورطك مع باسل هذا فيما حدث أمس، ثالثًا سنجعلك تتكلم يا كلب وأمامي الآن، سأتركك مع جلال وعامر وزبانيتهما ، ستخرج من هنا امرأة وليس رجلاً، ولكن هذا سيكون آخر إجراء يتخذ معك إذا لم تتكلم

ويطلق لهم عزام إشارة البدء، فيصلبوه بِسياطهم حرقًا على جسده وتمزيقًا لجلده، صمد في البداية وظل يَتحامل على نفسه ولكن بمجرد هطول السوط رقم ثلاثين على جَسده صرخ صرخة مُدوية، فابتسم عزام وقال:

ـ ستتكلم ؟

ولـم يمـر سـوى سـاعة فقـط علـى حلقـة التعذيـب حتـى أغمـي عليـه، صـرخ فيهـم عـزام :

ـ لا أريده خارج الوعي أريده واعيًا بسرعة ، أفيقوه

واستطاعوا إفاقتـه وكان الغضـب قـد بلـغ بعـزام درجـة عظيمـة، وصـاح برجالـه:

ـ اخصوا هذا الكلب الآن .

يحلـون رباطـه وينيمونـه علـى مَرتبـة علـى الأرض ويقيـدون كل جسـده ، يفتـح جـلال حقيبـة طبيـة أمـام أعـين حسـن فتتكشـف عـن مقاصـات ومشـارط وحقـن وآلات جراحيـة خفيفـة ، يرفـع جـلال مشـرطًا أمـام عينـي حسـن ويقـول:

ـ سـنفتح خصيتيـك، ونخـرج منهمـا لوزتـين حمراوتـين أمـام عينيـك بـدون بنـج لتـرى مـاذا يحـدث ، ثـم نشـويهما لـك لتأكلهمـا .

تتفهـق عينـا حسـن مـن منظـر المشـرط ، ويتجـرع ريقـه كأنـه يحشـرج بالموت ترتفـع دقـات قلبـه ، ويتزايـد نفسـه بسـرعة رهيبـة، وهـو يتابـع المشـرط، ويـد جـلال تنـزل نحـو خصيتيـه ، فيصـرخ :

ـ لا ـ لاااا ، سـأتكلم، سـأتكلم

يشير عزام إلى جلال أن يتوقف ثم يقول لحسن :

ـ أنقـذت نفسـك مـن مصيـر مرعـب يـا حسـن، كنـت سـتخصى وينتهـك عرضـك أيضـا، سـيكون المـوت أحـب إليـك مـن الحيـاة، تَكلـم بـكل شـيء وأنقـذ نفسـك

ويقص عليهم حسن كل شيء رغمًا عنه وهو يتقطع من الداخل ، وبعدما ينهي كلامه يجهش في البكاء ، ينظر إليه عزام ويقول :

- وأين باسل الآن ؟

يقول وهو يبكي :

- والله لا أدري، ولا أعلم مكانه، هو اختفى بعد ما حدث ، ولا أدري مكانه، ولو كنت أعلم لأخبرت عنه كي أنقذ نفسي

- أنت صادق يا حسن، أنت فعلاً لا تعرف مكانه، ولكني سأعرف مكانه

ثم يلتفت لجلال ويقول :

- أريد سيف باشا هنا بأسرع وقت .

- سيف باشا ؟!

- نعم ، هذا هو الذي سيوصلنا إلى باسل

- ولكن .....

- ولكن ماذا ؟ افعل ما أقوله لك، ولا تتردد أنا المسؤول عن كل شيء ، وبيدي كل الصلاحيات حتى أعثر على باسل، خُذ عامر معك، ومجموعة كبيرة من الرجال تحسبًا لأي شيء، وائتني بسيف الآن .

ـ تحت أمرك يا عزام باشا ، ولكن بالنسبة لحسن، هل نُطلق سراحه ؟

ـ لا ، ليس الآن، سيظل معنا هنا، حتى نعثر على القتلة ، هيا بسرعة

وينصرف جلال وعامر مسرعين، يدخلان العزبة في قوات مهيبة وعربات كثيرة تربو على خمس عربات تطفح برجال مسلحين، مر الموكب أمام أهل العزبة الذين انتباهم الخوف والذعر منه، وغشاهم الرعب أكثر وهم يأخذون سيف باشا من بينهم دون أن يتحرك أحد منهم إلا بعض الشباب الذين حاولوا أن يدخلوا حديقة القصر ، ولكن الجنود منعوهم ، وأطلقوا عيارات نارية مدوية في الفضاء .

ازداد رعبهم وخوفهم وتراجعوا للخلف خطوات، وظلوا يرمقون الباشا بنظرات الخوف والقلق والشفقة عليه وهو ينظر إليهم مصفد اليدين لا يقدر على فِعل شيء وسط هؤلاء القتلة المُجرمين الذين اقتحموا عليه القصر عنوة مشهرة أسلحتهم في وجهه عندما كان يَتناول طعام الغداء بعد العصر، وجد أسلحتهم تطوقه وجلال يشير إليه بمسدسه ويقول :

ـ قم معنا ياباشا بدون أي مُقاومة ولو بكلمة، لأن الموضوع كبير وغضب الشماس لا يوصف، فَهيا وإلا أحرقت عزبتك بمن فيها

يَخلع سيف الفوطة التي كانت أسفل رقبته ويقف وهو مذهول واجم لا يعرف كيف يتصرف، يصفدون يديه، وهو واقف غير مُصدق ما يحدث لهم، وخرج معهم رغم أنفه عنوة، وبين أهل عزبته البؤساء الضُعفاء الذين وقفوا يرمقون موكب الظلم والطغيان وهو يختفي عن أعينهم والباشا بين أيديهم يسير في إباء وأنفة .

●●●

(٢٥)

جلس عزام الخائن على كرسي واضعًا اليمنى على اليسرى في مواجهة سيف الجالس مُقيدًا على كرسي قبالته وغشاوة على عينيه، وخلفه جلال وحسني يشير بيده ليزيحوا الغطاء من على عينيه، فينكشف وجه الباشا موردًا فيجد أمامه عزام جَالسًا يحدج فيه شامتًا ، فينظر إليه شزرا وازدراء، فيقول له عزام متشفيًا :

ـ مصير الأحياء التلاقي يَوما ما، أخيرًا جاء الوقت لتجلس أمامي ذليلاً حقيرًا، لا قيمة لك، ولا وزن، كذبابة حقيرة لا يؤبه لها ، هكذا أنت لا أحد يأبه بك، ولن يهتم أحد بغيابك، جاءت الفرصة لتجلس أمامي يا سيف في مثل هذا الموقف لأشفي غليلي وأطفئ جَمر غيظي وقيظي .

يبتسم سيف ، ويقول بهدوء قاتل:

- لن تَنالها أبدًا يا شماس .

- قد نلتها قبل ذلك ، وها أنا اليوم أنالها مرة أخرى ، فأنت بين يدي ذليلاً حقيرًا

- مازلت في موقف القوي العزيز، وأنت مازلت في موقف الضعيف الرعديد الجبان كما أنت يا شماس .

يبتسم عزام في خبث ، ثم يُنزل رجله اليمنى ويرفع يده فجأة ويصفع بها وجه سيف الذي لم يهتز ولم يمل رأسه بل ظل يحدق فيه في حدة وغيظ

يقف عزام في صمت وهدوء يُشعل سيجاره ، وينفث دخانه في جو يشوبه الصمت ، ثم يلتفت إليه ويقول :

ـ أتعرف لماذا سميت بالشماس ؟

لا يتكلم سيف ، ويترقب جلال وحسني معرفة السر فيصغيان بآذانهما ، ولكنهما يصابان بخيبة أمل لما يشير لهما الشماس بعينيه بالانصراف ، يشفنه سيف في حنق ويرمقه عزام بحقد دفين ثم يكمل كلامه :

ـ لا تعرف لماذا سميت بالشماس ، ولا أحد يعرف ، لكني سأقول لك قبل أن تلقى حَتفك ، أبي اسمه الحقيقي" حجازي المر " قد تكون سمعت اسمه من أبيك الظالم ، اللّٰه يَلعنه ، وأنت صغير

كان عمري خمس سنوات عندما جَاءتنا جثته في تابوت من القاهرة وعشرون جنيها ديته ، سلمها لنا رجل من حاشية والدك، هذا الرجل أنا نحرته لما كَبرت كما تنحر الجزور .

أبوك مات قبل أن أقطع رأسه ، المُهم استلمت أمي جثة والدي وأخذت العشرين جنيهًا ، ورضيت في ضعف واستكانة كأي

امـرأة ، ليس بِجوارهـا أحـد، كانـت وحيـدة ليـس لهـا أهـل ولا عائلـة مثـل زوجهـا الفقيـد .

ظلت تشقى والكلاب تنهش فيها من كل جانب ، لم يكن لديها قـدرة علـى المقاومـة، استسـلمت وأنـا أتـآكل مِـن الداخـل لـم أعـد قـادرًا علـى تحمـل هـذا الأمـر أن أرى أمـي كل يـوم مَـع كلـب مُـختلف، فذبحتهـا وعمـري ثمانـي سـنوات وبقـرت بطـن مـن كان معهـا، لـم يكـن لـي أحـد ليأخذنـي أدخلونـي مَلجـأ مُلحقًـا بكنيسـة " العـذراء " في قريتنـا التابعـة لمحافظـة أسـيوط .

كان القائـم علـى الملجـأ الـذي هـي في الحقيقـة إصلاحيـة ، كان مديـره شـماس " اسـمه " بطـرس بشـاي " لـم يكـن لديـه أولاد ، فتبنانـي وأحبنـي حُبًـا شـديدًا، وأصبـح ينـادى علـي عـزام بن الشـماس واشـتهرت بـه وهـذا أعجبنـي جـدًا

أصبح لي أب يَرعاني ويهتم بشئوني وأصبح الجميع يَحترمونني مـن أجلـه كنـت أظـن أنـه يُحبنـي كأب يحـب ابنـه ، ولكـن لـم تكـن هـذه هـي الحقيقـة ، المهـم حدثـت أمـور كثيـرة لا داعـي لذكرهـا ، وحدثـت فوضـى عارمـة وهربـت وهـرب كثيـر مـن الأطفـال، وعاركتنـي الدنيـا، وعاركتهـا، وقذفـت مـن مـكان إلـى مـكان ، ومـن بلـد إلـى بلـد، ومـن نـاس إلـى نـاس حتـى وصلـت إلـى مـا أنـا فيـه .

هذا باختصار

الشـاهد مـن الـكلام أنـي لا أرعـى أي حُرمـة، ولا أي قُربـى ، ليـس لـي رحـم أصلهـا، أقـرب النـاس لـي قتلتـه أمـي، وهـذا سـر نجاحـي، وبهـذا وصلـت إلـى مَـا أنـا فيـه، القسـوة والتجـرد مـن المشـاعر والعواطـف بهـذا أصبحـت عـزام الشـماس، وأثبـت قدرتـي وجدارتـي طيلـة السـنوات المَاضيـة مـن نصـر لنصـر، ومـن فـوز لفـوز حتـى صـار اسـمي يسـبب رعبًـا لمـن يسـمعه مهمـا كان.

تجئ أنت الآن والكلب باسل لتهزوا كرسي ، وتهزوا إمبراطوريتي، وتشوهوا صورتي أمام الآخرين .

- تقصد أسيادك

- أسيادي وأسيادك ، حُكام البلد يا كلب

ويقبض على ذقنه بِعنف ويرفعها ويقول :

- لن تفلت بفعلتك أنت والكلب الآخر ، سأصطاده وأسلخ جلده وهو حي وسيكون أمام عينيك كما سأفعل بك إذا لم تعترف وتخبرني عن مكانه

- لن تقدر على فعل شيء يا شماس

- كيف لا أقدر وأنت بين مَخالبي، وفي قبضة براثني، سأفعل ما يحلو بك حتى تدلني على باسل .

- إذا كان باسل فعلاً هو الذي أحدث هذه الحرائق، وقتل ثلاثة من رجالك ،إذن هو بطل يستحق التقدير والاحترام، لقد علا

في نظري، وملك شغافه إنه ابني الذي لم أنجبه، فكيف أدل على طريق ابني ، ولو قَطعتني قِطعًا قطعًا لن أخبرك بشيء، لو كنت أعلمه، لكني فِعلاً لا أعلم شيئًا

- ستخبرني يا كذاب، وسأسحقك أنت وهو، وسيصير كل ما تملكه لي، سأرث كل أملاكك عزبتك وأملاكك وأطيانك وأموالك في البنوك، كل شيء سيصير مِلكا لي.

يخفض سيف بصره إلى الأرض بضع ثوان، ثم يرفعها وهو يضحك ، يغتاظ عزام من ضَحكه بعد اندهاشته منه، فيقول :

- أجننت يا سيف؟ هذا سابق لأوانه سَتُجن أو تقتل عن قريب

- أنا أضحك لأنك لم تتعظ مما حدث لك

ينفث دخان سيجاره الكوبي مَاركة بارتغاس ويقول :

- لم يحدث لي شيء، أنا في أفضل حالاتي باستثناء ما فعلته أنت ، والهارب باسل

- أمتأكد أنه لم يحدث لك شيء ولا لأحد من ......

وينظر إليه سيف في خُبث ومكر محفوف بشماتة، جعلت عزام يدقق النظر وهو يستشف ما يريده، وكأنه فهم ما يرمي إليه، فيقبض على شعره بمجمع يده اليمنى، ويقرب وجهه من وجهه، ويقول في غيظ شنيع :

ـ إلام تلمح يا كلب ؟ ابني يُعالج في أفضل مستشفيات لندن

يحاول سيف متجلدًا أن يتحمل ما يَذوقه فيقول مُستمرًا على استفزازه :

ـ ابنك أم بنتك .

يصفعه عزام على وجهه للمرة الثانية، ويرمي ما تبقى من سيجاره على الأرض ويدهسه بحذائه وهو فائر الغضب ثائر الملامح، ويبتلع ريقه وقد غص في حلقه، يرفع سيف رأسه ويشفنه في حنق ويقول:

ـ لا تريد أن يعرف أحد سرك الخطير، لكنه عرف، وعرف أن لديك ولدًا خنثى ليس ذكرًا، وليس أنثى، له عضو ذكري وآخر أنثوي، سفرته وأمه إلى لندن أو ربما إلى مكان لا نعلمه، ليس من أجل العلاج كما تدعي، وإنما من أجل ألا يَلحقك العار والذل بولدك المُشكل الجنس الثالث لا يعرف أهو من الذكور أم هو من الإناث ؟

ينقض عليه بِمجمع يديه يمسك تلابيبه، ورأسه في رأسه قد ازدادت سرعات تنفسه على غير المعتاد، فقد بلغ الذروة في غَضبه الذي لا يلين، وهو يزفر ويشهق ناظرًا إليه يقول :

ـ ستموت يا سيف ، ستقتل وقبل قتلك سأنتزع رجولتك حتى لا تعيرني بولدي ثم أدفنك هنا في هذا المكان

ـ حتى لو قتلتني فلن يموت السر معي ، لن يموت السر إلا إذا قَتلته هو وقتلت أمه .

يحكم قبضته على رقبته حتى صعب على سيف التنفس ، ويقول :

ـ لن يموت ولن يمثل بِجثته إلا أنت ، سوف تنشر بالمنشار أجزاء أجزاء وأرميك لكلابي وجبة دسمة على الغداء .

ويفك يديه عن رقبته ويدعه يسعل بقوة ثم يقول :

- ومع كل هذا ليس محور حديثنا ، حديثنا الأساسي هو عن باسل، فقل لي وهون على نفسك العذاب أين هو ؟ ومن أين حصل على السلاح ؟

- خذها مِني كلمة واحدة لن أكررها كي توفر جهدك ووقتك للبحث عنه، اقتلني وانه الأمر، فأنا لا أعرف شيئًا عن باسل، ولا أعرف مَكانه ولم أره منذ يومين، هذه هي الحقيقة حتى لو فعلت ما فعلت حتى لو سملتني للبوليس السياسي أو لسلطات الاحتلال حتى لو نَشرتني بالمنشار كما تقول ، فليس عندي كلام غير هذا .

- إذا كنت تظن أني سَأسلمك للبوليس السياسي أو المخابرات الإنجليزية فأنت واهم غبي ، لن أدع لك طريقًا لتجري

اتصالاتك بـ " عبد المجيد " صديقك فيخرجك كما أخرجك سابقًا ، هذا من الأحلام ، لن أسلمك إلى أحد إلا إلى رجالي جلال وأعوانه الذين سيصلونك بأقسى أنواع العذاب حتى يَنتزعوا منك الحقيقة .

- من قال لك أن عبد المجيد باشا لم يتصل بأحد، مليون في المائة وصلته الأخبار، كما وصلت باسلا، أنا أخذت على الملأ أمام الجميع، وأكيد اتصل برئيس الوزراء، وكلها ساعة وأخرج من هنا إن شاء الله .

ترتفع ضَحكات وطخطخات عزام إلى عنان البدروم ثم يقول:

- إذا كنت تظن أن رئيس الوزراء يُمكن أن يخرجك من هنا فأنت أحمق واهم، أنا معي أصحاب الكلمة الفعلية في البلاد، وما حدث وصل إليهم أنه محاولة اغتيال للجنرال دُونالد كما اغتيل قبل ذلك صديقه ديفيد، وهم لا يتركون ثأرهم ، ولا رجالهم ، فلو كان مَعك الملك شخصيًا فلن ينقذك مما أنت فيه ، ولو كان الملك هو الفاعل فَستكون نهايته كنهايتك على يدي ، ولن تخرج مِنها إلا إذا أذنت بذلك ، وسوف أنتزع منك الاعترافات تلو الاعترافات ، فأنت لم تذق عذابي بعد ، ولا تعرف أساليبي

- أنا أعرف أساليبك جيدًا

- لا تعرفها ، وسَتعرفها الآن

وينـادي علـى جـلال وحسـني ويأمرهمـا أن يجبـراه علـى الاعتـراف، وقـول الحقيقـة بِشـتى الطُـرق ، ولكـن مـع الاحتـراز مـن أن يمـوت

تعذيب بلا موت .

●●●

(٢٦)

لـم يكـن مـن خلـق باسـل أن يتخلـى عـن أصدقائـه وأحبابـه فـي الأوقـات العاديـة ، فمـا بالـك لـو أخـذوا بِسـببه ؟

فلم يتخل عـن سيـف باشـا، وعـن صديقـه حسـن الـذي سـاعده في تلـك الليلـة وسـاعده هـو وأخـوه أيضًـا علـى الهـروب هـو ولطفـي بعـد انتهـاء العمليـة حيـث تلاقاهمـا هـو وأخـوه حسـان في دارهمـا في عزبـة الشـماس، وعاونهمـا في الخـروج مـن المَنطقـة كلهـا بارتدائهمـا جلابيـب نِسـائي ، وبراقـع تغطـي الوجـه ولا تظهـر سـوى العينـين .

وبقـي حسـن وأخـوه ليتابعـا الأخبـار ، ومُسـتجدات الأمـور ليخبـرا حسـن بكـل شـيء ، ولـم يبـق بعـد القبـض علـى حسـن سـوى حسـان عينـا لباسـل ، وهـو الـذي أخبـره بمـا حـدث لأخيـه حسـن وللباشـا ، وأخبـره بتحـركات رجـال الشـماس في نفـس يـوم القبـض علـى أخيـه .

ووجدهـا باسـل فرصـة ليتخلـص مـن رجـال الشـماس واحـدا تلـو الآخـر كـي يُضعفـه جاءتـه الفرصـة فهـب لاقتناصهـا فتفـرق الاثنـان باسـل ولطفـي ، لطفـي خلـف مرسـي يراقبـه مـع شـندي في سـيارة مَخلـوف الفيـات الحمـراء ، وباسـل لحـق بمصطفـى ومحسـن حتـى عزبـة الفرنوانـي باشـا التـي تبعـد عـن عزبـة الشـماس بحوالـي ٣٠ كيلـو متـر .

وقف باسل في ردائه النِسائي عباءة سوداء ونقاب يغطي الوجه، وقف أمام سيارة " كاديلاك ديفيل " رصاصية اللون تسير على طريق ترابي بسرعة جنونية وفيها امرأة تَصرخ مربوطة اليدين والقدمين بجوار مصطفى في المقعد الخلفي .

اندهش مصطفى ومحسن من وقوف هذه السيدة هكذا في وسط الطريق ، وهي تشير إلى السيارة في فزع بكلتا يديها ، فخفف من سرعته حتى لا يصطلمها وقف بِسيارته ، وهو مُندهش ينظر من خلال زجاج السيارة الأمامي ، يقول مصطفى له :

ـ ماذا بها ؟ لماذا تقف هذه المرأة هَكذا في هذا الطريق الخاوي ؟

كان الطريق خاويًا من كل شيء متحرك إلا منِهم ، نظر محسن إلى عيني تلك المرأة ، نزع باسل البرقع من على وجهه فبدا وجهه جليًا لمصطفى ومحسن جحظت أعينهما من الدهشة والخوف

عاجله باسل مباشرة بمجرد نزع البرقع بإخراج مُسدسه الماكروف من بين ثيابه وبسرعة وجهه إلى محسن، وأطلق رصاصة فاخترقت زجاج السيارة الأمامي واخترقت رقبة محسن، وانفتحت فوهة من بركان دم من رقبته، ففقد توازنه، وهوى على مُقود السيارة غَارقًا في دمه متلاحما صوت بوق السيارة " الزامور " بصراخ المرأة المُتتابع

اقترب باسل من السيارة ، ثم توقف لما رأى مصطفى يترجل من السيارة مُتدرعا بالمرأة ، ومسدسه بجانب رأسها في ذعر تام منها، يقول له مصطفى :

- لو اقتربت خطوة واحدة سَأنسف رأسها

قال باسل وهو مُصوب مسدسه نحوهما :

- هذه المرأة لا تهمني ، اقتلها إن شئت ، أو أقتلها أنا

وأطلق رصاصة على قدمها فصرخت وهوت من بين يدي مصطفى ، فأصيب بذهول ، نظر إليها ثم رفع نظره إليه ، فوجد سبابته على الزناد ، فصرخ :

- لاااااا

وانطلقت الرصاصة من مُسدس باسل في صدره، فَجثا على ركبتيه، وهوى المسدس من يديه، وهو ينظر إليه يستصفحه يستعطفه ، يقف باسل ثم يقول :

- هذا جزاء الخائن في كل مكان وزمان

ويطلق رصاصه في رأسه فيتبعثر دمه من الأمام والخلف ، ويخر على الأرض صريعًا ، ثم يلتفت إلى السيدة ، يفك رباطها ثم يقول :

- طبعا لن تستطيعي الفرار الآن، أنا مُمكن أتركك الآن، ربما يأتي أحد وينقذك، لكن من ممكن أن لا يأتي أحد فَينزف دمك وفي خلال ساعات تموتين

- أقبل رجلك، لا أريد أن أموت .

- سآخذك في هذه السيارة إلى مَدخل عزبتك، ثم سأنصرف وعندما أختفي عن عيونك، تصرخين لينقذوك، أتفهمين ؟

تهز رأسها في حركالت مُتتابعة بالموافقة وتقول :

- فهمت ، فهمت .

رجع باسل إلى حيث يختبئ ليرى هل نجح لطفي في مهمته أم لا ؟ وعندما وصل لم يجد لطفي ووجد سنقرا في خيمته يَشرب الجوزة المحشوة بالحشيش وحوله رجاله، فخطى نحوه يسبقه صوته :

- هل جاء لطفي ؟

- شد سنقر نفسًا عميقًا ونفث دخانه ثم قال :

- لا ، لم يأت بعد، لا تقلق، لطفي ابن جان ومعه شندي من أقوى رجالي، ستجدهما أمامك بالزبون بعد قليل .

لم يطمئن باسل من كلام سنقر، وظل يتردد أمامه ذهابًا وإيابًا قلقا على لطفي الذي تأخر في مهمته :

ـ فهل قتله مرسي ؟

قالها لنفسه فتفهقت عيناه عن خوف وقلق زائد ، سرعان ما تلاشى لما رأى سيارة جيب سوداء تقترب نحوهم، كانت السيارة التي خرج بها لطفي وشندي، ابتسم نصف ابتسامة في حذر، ثم ابتسمها ابتسامة كاملة غامرة بالفرحة والسرور لما وجده ينزل من السيارة وأمامه مُرسي مُقيدًا يديه، مكمما فمه، ثم رماه عند قدميه ، نظر باسل إلى لطفي وقال :

ـ كنت خائفًا عليك جدا يا لطفي عندما تأخرت

ابتسم لطفي وقال :

ـ أكنت تَظن أني سأفشل في مُهمتي، وأني لن أقدر على هذا، أنسيت أني كنت ابن ليل قديمًا يا أستاذ باسل، ولولا أن الله نجاني من هذا الطريق لكنت الآن زعيم عصابة كبير مثل الشماس، أنا لن أتركك حتى نصفي رجاله كلهم ونصفيه ونخلص الباشا وحسن من بين أيديهم القذرة .

ـ إن شاء الله يا لطفي قربت، وتخلصنا من أحدهم ، والآن سنتخلص من الثاني، هيا هاتوه

يرفعه لطفي وشندي ثم يوقفانه على حافة حفرة رملية طولية كالقبر في باطن الأرض أوقفاه وهو يزمزم ويتمتم من خلف كمامته ، ينظر إليه باسل وقد وقف على بعد مترين منه ثم يقول:

ـ أتريد أن تقول شيئًا يا مرسي؟ انزع يا لطفي الكمامة من على فمه لنسمع صوته

وينزع لطفي الكمامة ، وبمجرد أن ينزعها يبصق مرسي في وجه لطفي ، فيصفعه على وجهه، يعدل مرسي رأسه ويقول لباسل :

ـ لن تنجو من فعلتك هذه

يخرج باسل مسدسه ويصوبه نحوه ويقول :

ـ أفضل لك أن تستغفر ربك وتتوب إليه وتتشهد الشهادتين

ثم يطلق رصاصة في ذراعه الأيمن فَيصيح مرسي ، وتسيل الدماء ثم رصاصة في ذراعه الأيسر يتبعها مرسي بصيحة وهو يقول:

ـ يا ابن الكلب

ثم يطلق رصاصة في فخذه الأيمن فيهوي على ظهره في الحفرة، وهو يصرخ ويصيح وتتزايد سرعات دقات قلبه مع سرعة أنفاسه الملتهبة ، يقترب باسل ولطفي وشندي من الحفرة وينظرون إليه وهو على ظَهره والدماء تسيل من فخذه وذراعيه ، يقول باسل:

ـ لم تمت بعد ، لن أقتلك ، وإنما سَأدفنك حيًا

ويمسك بَاسل مجرفة مُسطحة ومثله لطفي ويهيلان الرمل عليه وهو يصرخ ويصيح بينما سنقر وشندي يضحكان حتى اختفى تحت الرمل وانقطع صراخه، ثم رمى باسل فوقه المجرفة، وبصق عليه ، ثم نظر إلى لطفي وقال:

ـ انتهينا بذلك من اثنين من رجاله ، بقي أربعة والشماس، لكن الآن يجب أن نفكر في طَريقة لننقذ بها الباشا وحسن من بين براثنه .

قال لطفي :

ـ ماذا سنفعل لننقذهما ؟

ـ سنستدرجهم؟

ـ كيف؟

ـ سنجعلهم يأتون إلينا في عزبة الباشا، وفي داري لِيقبضوا علي وحينها

ـ حينها ماذا ؟

ـ سأحكي لك كل شيء بالتفصيل لأن لك دورًا مُهما جدًا يا لطفي

●●●

(٢٧)

بدأت الأمور تَشتد على عزام الشماس، وبدأ الخناق يَضيق عليه من جانب السلطات البريطانية طالبته بالإفراج عن سيف باشا في أقرب وقت لأنها تتعرض لقلاقل شديدة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر خاصة بعد حادثة الإسماعيلية، واستشهاد خمسين من رجال الشرطة .

فبدأت تتفاقم الاضطرابات على المُحتل، وعلى عزام الشماس الذي طالبته المخابرات البريطانية والحكومة المصرية بالإفراج عن سيف باشا بأسرع وقت لما يمثله غيابه واختفاؤه المفاجئ عن أزمة شديدة بعدما بدأت الصحف والجرائد والمجلات بالحديث عن هذا الأمر عن طريق خالد الذي بدأ شرارة الانطلاق والانتقام من عزام الشماس .

فقد أرسل إليه باسل لطفي وشندي بما حدث للباشا من بطش الشماس، انتهز خالد الفرصة، وصب ويلات غَضبه، وحمائم غيظه وحنقه على الشماس بشن حملة شعواء عليه منددة باختطافه أحد البشوات الكبار الذي كان في يوم من الأيام وزيرًا مُهمًا في مصر، ليس رجلاً عاديًا فهو ينتمي لعائلة كبيرة جدا ذات أصول عريقة تضرب في عمق هذه الدولة، وثروات طائلة في كل مكان في مصر وخارجها ، وعلاقات متشابكة ومعقدة، فكيف رجل

بمثل هـذه الصفـات والهـالات حولـه أن يختطـف مـن قصـره عنـوة أمـام رجالـه ، وأهـل عزبتـه .

كان لتلك الحملة التي شنها خالد أثرًا كبيـرًا فقد تحـرك مجموعة كبيـرة مـن البشـوات في مُحـاولات شـتى سـعيًا منهم للإفـراج عـن سـيف وإطـلاق سـراحه لما يمثلـه ما حـدث لـه مـن إهانـة لهـم جميعًـا .

كان لهـا أيضـا أثـرًا كبيـرًا علـى عـزام الشـماس الـذي تعـود يوميًـا أن يقـرأ الجرائـد والصحـف ليكتشـف مُعارضيـه ومؤيديـه ، فهالـه مـا قـرأ فألقـى الجريـدة في وجـه جـلال وأنـور وصـاح بأعلـى صوتـه :

ـ المصائـب بـدأت تأتـى تتـرى فـرادى وجماعـات، مطالبـات كثيـرة بالإفـراج عنـه وهـذا الصحفـي الكلـب خالـد الـذي لا يَكل ولا يَمـل في فضـح الأمـر ونشـر الموضـوع علـى أوسـع نطـاق حتـى بـات الجميـع يَعـرف كل شـيء ، هـذا الصحفـي أريـده أن يَسـكت نِهائيًـا

قال جلال :

- لا تقلق من هذه النَاحية ، سآتيك به هنا تَفعل به ما تشاء

- والأدهى والأفظع ما حدث لمحسـن ومصطفى واختفاء مرسـي، اثنـان مـن أفضـل رجالـي يـا جـلال ضاعـا منـي، ولـن أعـرف أن آتـي بمثلهمـا أو بنصفهمـا، صـار الخطـر يداهمنـا مـن كل جانـب، كل هـذا بسـبب هـذا الكلـب باسـل الـذي اسـتهنا بـه وبقوتـه وصـار

الآن مرعبًا ومقضًا لمضاجعنا، قتل خمسة من رجالي حتى الآن ، ولا أدري ماذا سيحصل بعد ذلك إذا لم نقبض عليه في أسرع وقت ونصلبه أمام الناس .

ابتسم جلال وقال :

- أنا سأجعله يأتي إليك يا باشا راكعًا

- متى ؟ متى يا جلال متى ؟ أريده بأقصى سرعة حتى لا تزيد الأمور سوءًا أكثر من ذلك .

- قريبًا جدًا ممكن اليوم أو غدًا بالكثير إذا أذنت لي .

- قلت لك قبل ذلك أنا آذن لك بكل شيء يَخدم مصالحي ، ولا يضرني ، ولكن ماذا ستفعل ؟

- الواضح أن هناك من ينقل الأخبار إليه، وأن هناك عيونا له حولنا لا نعلمها، وإذا ظللنا نبحث عن هذه العيون سيضيع الوقت من بين أيدينا وتتأزم الأمور أكثر؛ لذلك نحن سنجعل باسل هو الذي يأتي إلينا

كيف ؟

- سنقبض على زوجة صديقه الذي مات معه في المعتقل، أم هاشم التي أخذها من قَريتها لتعيش في عزبة الباشا، سنفرض عليها حصارًا في عزبة سيف باشا أو نَربطها في شجرة هناك، فَستخبره عيونه هناك فسيأتي إليها لينقذها فنقبض عليه .

يمتلأ وجه عزام بفرحة غير مصدقها كاد أن يطير ، يقول :

- فكرة شيطانية يا جلال لا تخرج إلا من شيطان ، ولكن ماذا إذا لم يأت لإنقاذها ؟

- سيأتي لإنقاذها، علاقته كانت قوية بالسعيد والظاهر أنه ائتمنه عليها بدليل أنه ذهب إليها وأتى بها مِن بين أهلها لتعيش في عزبة سيف لتكون تحت عينيه ، وأقاموها في استراحة البشوات، وجعلوا لها خَادمة ، وعلى كل حال سنجرب ونرى، ولن نَخسر شيئًا

- فعلاً ، نجرب ولن نَخسر شيئًا، إذن هيا نَفذ .

- تمام ، ولكن ماذا ستفعل مع سيف باشا ؟ هل ستُفرج عنه أم ستبقيه في مثل هذه الأوضاع ؟

- أنا أخبرتهم أنه ليس عندي ، لكن هذا لا يخيل عليهم فهم متأكدون أنهم عندي

- إذن ما الحل ؟

- لن أفرج عن سيف مهما حصل، لو جاءني رئيس وزراء بريطانيا بنفسه وتَرجاني أن أفرج عنه، فلن أفرج عنه، لو طلب مني الملك جورج السادس بنفسه أيضًا لن أفرج عنه، لأن المسألة الآن أصبحت ثأرا شخصيًا لم تَعد المسألة متعلقة بالإنجليز، هذا ثأر قَديم بيني وبينه وآن أوانه

- ولكن هذا ربما يُغضبهم فتزداد ضغوطهم

- لم يعد يهمني

- لا أدري ما سبب تغيرهم المفاجئ عليك هكذا ؟

- يقولون الوضع لم يعد يحتمل وشيء من هذا القبيل، دعك من هذا الكلام الآن ، هيا نَفذ ما قلته بخصوص تلك المرأة

- وبالنسبة لهذا الصحفي خالد ماذا سنفعل معه ؟

- أخشى أن أرسل حسني أو أنور إليه ليأتياني به فَيقتلا كما قتل محسن ومُصطفى أو يَختفيا كما اختفى مرسي ، فربما عيون باسل هنا مُنتشرة في كل مكان كما تقول فَيخبرونه فيتتبعهما أو يرسل من يتبعهما فيقتلونهما وأخسر رجلين عظيمين من رجالي

- نَقتل أولاً رأس الأفعى باسل وبعد ذلك نفرغ للذيول والأذناب

- سنقص رأسها ونقطع ذنبها في وقت واحد، سأرسل رجلين آخرين غير حسني وأنور

- تمام

وينصرف جلال تَاركًا عزام في حال من الانشراح النفسي المؤقت الذي برز على مَلامحه، ولكن خطواته المُتتابعة ذِهابًا وإيابا في مكتبه الأرضي في قصره لا يوحي بذلك، بل ينبئ عن ارتباك وحيرة، وقلق عقيم يصيبه في مقتل .

ظل يـروح ويَجـيء وهـو ينظـر إلـى الهاتـف الأسـود الرابـض فـوق مَكتبـه بجـواره مسدسـه، بـدا عليـه وكأنـه يَنتظـر مُكالمـة مهمـة مـن تتابع وتوالـي نظراتـه إلـى الهاتـف في ترقـب وترصـد ، حتـى عـلا صوتـه مُؤذنـا بشـيء خطيـر، فهـرع إليـه يرفـع سـماعته علـى أمـل أن يكـون مَـا في بالـه، ولكنـه صـدم وفوجـئ بصـوت زوجتـه ينبعـث إليـه عبـر سـماعة الهاتـف مـن لنـدن مُخبـرة إيـاه بوفـاة ابنـه الخنثـى الـذي أخفـاه عـن العيـون خَوفًـا مـن الفضيحـة والعـار حتـى لا يعيـر بـه، وقـد حقـق الابـن لأبيـه مـا كان يُحـاول بـكل جهـده أن يخفيـه بإلقـاء نفسـه مـن شـرفة غرفتـه في مستشـفى " رويـال برومبتـون " في الطابـق الرابـع فَخـر صَريعًـا ليزيـح عـن أبيـه العـار الـذي هَـرب منـه وهربـه هـو وأمـه منـذ سـنوات إلـى لنـدن، فهـوى علـى مقعـد مكتبـه مسـكتا لا ينطـق بكلمـة ، وهـو يسـمع هـذه الأخبـار مـن زوجتـه المجهشـة في البـكاء والنحيـب وهـي تقـول لـه:

ـ لعلـك ارتحـت أخيـرًا يـا عـزام، لـن يعـد هُنـاك مـن يلحـق بـك العـار والفَضحيـة

يظـل صامتًـا لا يـدري مـا الـذي يشـعر بـه الآن هـل هـو ارتيـاح نَفسـي أم صدمـة شـديدة وحُزنًـا علـى فـراق ابنـه ؟

لأول مـرة يشـعر أن حجـرًا صلـدا قـد أزيـح عـن صَـدره ، فهـز رأسـه في ابتسـامة خَافتـة ثـم قـال لزوجتـه عبـر الهاتـف :

ـ الآن لم يَعد لك أهمية في حياتي يا نجلاء، أنت طالق .

ويَغلق السماعة بعنف، ثم يَقف وكأنه نشط من عقال، يَنظر من شرفة مكتبه المُطلة على حديقة قصره المزدهرة بالثمار والأشجار، يَستنشق في نفس عميق بَعض النسائم التي تَهل من الحديقة عليه ثم يقول لنفسه:

ـ لقد أصبحت نَشيطًا خَفيفًا، كنت أتمنى ذلك منذ زمن ، ستكتمل أفراحي وتزول أحزاني نِهائيًا إذا نجح جلال ومن معه في القبض على هذا الوغد باسل أو قتله .

●●●

(٢٨)

لم يستطع أحد من أهل العزبة أن يَنقذ أم هاشم من بين أنياب الذئاب وهم يَجرونها خارج الاستراحة ، ويربطونها في شجرة كافور تَطل على ترعة مياه ضحلة خلف استراحة البشوات .

اكتفوا بنظرات الشفقة ودُموع الحسرة والألم التي تَنساب في وجوههم وهم محشورون حول الشجرة ليروا ذلك المشهد المُؤثر لسيدة تجاوزت الخمسين تصرخ وتستغيث بهم ، دون مجيب أو مُتحرك منهم، فقد ظللهم الخوف والرعب بصوت جَلال الذي يَسير أمام صفوفهم ومسدسه في يده، وخلفه حجاج بسلاح كلاشنكوف، بينما عامر يَقف بمسدسه عند الشجرة، أما باقي رجال الشماس الذين أتوا مَعهم فكانوا مُنتشرين في كل مكان أمام تلك الصفوف بأسلحتهم المصوبة تجاههم .

يصرخ فيهم جلال بصوته الذي زرع الرعب في أفئدتهم وبين جوانهم :

ـ هذه المرأة ستبقى هكذا لحين ظهور باسل، ومن سيقترب منها ليخلصها أو يدافع عنها سَيقتل على الفور، لن نَخرج من هنا بعد الآن إلا ومعنا باسل

ساد صمت رهيب الأجواء بعد انتهاء كلام جلال، وغشي أجواء المكان وجوم وترقب رهيب، يَدور بعض الرجال خلف صفوف أهل

العزبة الذين كلوا وتعبوا من طول الوقفة وتقرحت جُفونهم من البكاء ،وتَهشمت أفئدتهم من الحزن على أم هاشم التي انقطع صِياحها وصُراخها لما لم تَجد مُجيبًا أو ناصرًا بين هؤلاء القوم ، فغرقت هي الأخرى في لجة صمت بينما دموعها تنهمر في هدوء على خَديها مُعلنة التضرع إلى اللّه عز وجل بالكشف عما ألم بها وإنقاذها من بين أضراس وكلاليب هؤلاء المارقين من عساكر الشر .

أخذ الوقت يَمر ويَنفتل في صمتهم الرهيب، لم يُغادر أحد موضعه، كأن على رؤوسهم الطير، فلا يسمع إلا همس ، حتى علا صوت قادم من بعيد يشق الظلام، والصمت الشَنيع الذي يحيط بالمكان ويجول فيه بحرية إلى أن قطع صوت قادم من بعد :

ـ الحقوا ، باسل في داره، ومعه رجال مُسلحون .

تخترق الكلمات آذان جلال وعامر وحجاج وبقية الرجال وجميع الواقفين من أهل العزبة، حتى أم هاشم رغم انجرافها في خور ووهن شديدين إلا أن الروح كأنها عادت إليها من جديد لما سمعت اسم باسل ، فرفعت رأسها مُبتسمة وتقول بصوت واهن كَجسدها :

ـ أنا كنت مُتأكدة من أن اللّه سينقذني، ويبعث من يُخلصني ، ربنا ينصرك يا باسل .

اخترقت كَلِماتها آذان جلال ومن معه، فاغتاظ واضطرم نارًا، واضطرب حركة وهو يرى الفرحة قد بت تدب في وجوه الواقفين فصاح في رجاله :

ـ قد جاء لحتفه ، عزام باشا يُريده حيًا، سنسعى للإمساك به حَياً إن لم نستطع نقتله على الفور ونأتي إليه بجثته .

يقول عامر :

ـ ما خِطتك الآن

ـ أنا أرى ألا نفترق ، نَكون معًا كي نكون قوة في مواجهته لكن لو فرقنا أنفسنا بين هنا وهناك ربما يدب الضعف والوهن، ولن نكون قوة ضاربة في مثل هذه الحال، لذلك سنفك هذه المرأة، ونأخذها مَعا ونسوق هؤلاء أمامنا إلى هناك، ومنزله ليس بَعيدًا عن هنا

ثم يصيح في رجاله :

ـ هيا فكوا وثاق هذه المرأة وهاتوها معنا هي وهؤلاء الرعاع، ومن يتحرك حركة مريبة منهم أطلقوا عليه الرصاص فورًا حتى لو قتلناهم كلهم

ثم وجه كلامه لأهل العزبة :

ـ أظنكم سَمعتم كلامي جيدًا، لا أريد أي قلق منكم وإلا ستلقون نفس مصير باسل .

يهمس حجاج في أذن جلال :

- أرى أن نُفرقهم كي نتفرغ لباسل دون أن يَشغلنا شيء .

- أنت غبي يا حجاج، لو تركناهم ربما ذهبوا وأتوا بأسلحة أو شوم أو أي شيء فَينقضوا علينا، لكن وهم معنا هكذا عزل لن يجرؤ على التصرف أي تصرف أحمق .

- ما شاء الله، أنت تستحق فعلاً ما أنت فيه من زعامة هؤلاء الرجال، وعزام باشا رجل فطن لأنه وضعك في هذا المكانة يا زعيم .

- لا تكثر من الكلام، هذا ليس وقت إطراءات، هيا لنلحق به قبل أن يهرب

وفي دقائق كان هذا الحشد يحيط بدار باسل من الخارج، تلقى أم هاشم أمام أقدام الجنود من أمام الدار، ويقف أهل العزبة على بعد عشرة أمتار من الدار يحيط بِهم عشرون رجلاً من رجال الشماس، بينما يُحيط بالدار عشرة آخرون، غير جلال وعامر وحجاج .

بدأت وجوه أهل العزبة من الرجال والشباب يَنظرون إلى بعضهم، تتبادل النظرات فيما بينهم، ثم يَنظرون إلى تلك الأسلحة التي في أيدي هؤلاء السفاحين ثم يُعاودون النظر إلى وجوههم

مَرة أخرى من بينهم شوقي صديق باسل كأنهم يُفكرون في شيء، بَينما يعلو صوت جلال مُناديًا على باسل :

ـ نحن نعرف أنك بالداخل ، اخرج الآن أنت ومن مَعك مُستسلمين بدون سلاح، أيديكم فوق رؤوسكم وإلا قَتلنا أم هاشم زوجة صديقك ثم نعرج على قتل هؤلاء كلهم .

ينتظر جلال ومن معه في حالة تأهب رد باسل أو خروج أحد من باب الدار الذي كانت عُيونهم مُعلقة عليه في صمت ووجوم قطع هذا الصمت صوت باسل يَنبعث من الداخل :

ـ لن أخرج حتى تُطلق سراح الست أم هاشم وتطلق سراح أهل العزبة كلهم

قال جلال غاضبًا :

ـ لن نطلق سراح أحد، واخرج الآن وإلا اقتحمنا عليك الدار أو أحرقناها بمن فيها كما أحرقت مخازن الشماس يا كلب

ينتظر جلال جَوابًا، ولكن كمم الفضاء صمت مقيت ، فصاح وقد استنفذ غضبه:

ـ أمامك خمس دقائق للخروج وإلا قَتلنا أم هاشم واقتحمنا عليك الدار وليكن ما يكن، فلا تستهن بقوتنا نحن عدد كبير، ولن تنجو أنت ومن معك، فأنت لا تَعرفنا جَيدًا، فاخرج بمن معك أفضل لك ولهم .

يهز باسل رأسه وهو يَستمع لكلام جلال ثم يلتفت لشندي والرجلين الآخرين اللذين معه ويقول :

ـ لطفي تأخر جداً ، أنا قلق عليه أخشى أن يكون قَبض عليه من رجال الشماس فتفشل مهمته

يقول شندي :

- لا تقلق على لطفي ، هذا ابن شياطين ، اشتغل معنا كثيراً أيام شقاوته وأنا أعرفه جيداً .

- ليس أمامنا وقت سوى خَمس دقائق ، وبعدها ...

قال شندي في حماس :

ـ بعدها ليحدث ما يحدث حتى ولو لم يَجئ لطفي بمن معه، سنخرج نتصدى لهم ، وليكن ما يكن .

يبتسم باسل ويربت على كتف شندي ويقول :

ـ أنت رجل صالح يا شندي، ونعم الرجال أنت

ثم يرفع نَظره للسماء ويقول :

ـ يارب تنجح في مُهمتك يا لطفي أنت وحسان

وكان باسل قد افترق هو ولطفي، باسل اتجه بمن معه إلى داره لينفذ الجزء الذي يخصه من الخطة، بينما اتجه لطف إلى عزبة الشماس في تخف حتى دار حسان .

ومن هناك يبدآن سويًا في تجميع رجال أهل العزبة حولهما ليثوروا على الشماس الذي أذاقهم الويل والعذاب والفَقر والظُلم ليل نهار.

وقد كان حسان بشرهم بذلك قبل أن يتفقوا على تنفيذ هذا الجزء، أخبرهم أنه تكلم مع بَعض الشباب الثائر الرافض للظلم والطغيان ووجد منهم قوة وإصرارًا وعزيمة على درء هذا الظلم، وقمعه بالقوة لو لزم الأمر.

ـ فإلى متى سَنظل صامتين ؟ إلى متى نرتضي بالذل والهوان، نرضع لبان العار والشنار بسكوتنا على هذا الطاغوت .

قالها أحد الشباب المُتحمس ممن يدرسون القانون في كلية الحقوق قال ذلك لحسان ردًا على دعوته للقضاء على الظلم في عزبتهم متمثلاً في عزام الشماس .

فوجد تربة خصبة في عزبته بعد الذي حدث لأخيه، فأشار على باسل بالأمر فوافق على الفور، واعتمد خِطته وأرسل لطفي إليه ليكملا مَا قد بدأه حسان منذ يوم، ولكن أحس باسل بأن لطفي قد تأخر عليه إذ إنه ذهب إلى هناك قبل ذهاب باسل إلى عزبة سيف باشا بِساعة تقريبًا .

ـ فلماذا تأخر لطفي وحسان ؟ وهل نجح لطفي وحسان في هذا الأمر أم أن الناس خَذلوهما كما خذل باسل أهل عزبته،

ومازال يخذلونه بموقفهم المتخاذل هذا وهم واقفون صامتين راضين بالذال والعار .

لا يدري باسل أن أهل عزبته مُنذ زمن وهم يُريدون التخلص من الظلم الذي وقع عليهم مرات كثيرة من قبل هذا الطاغية البعيد عنهم سكنا القريب منهم ظلمًا وعدوانًا، قد شعروا بالذل والعار وهم يرون الباشا يخرج من أمامهم للمرة الثانية مُقيدًا مُصفدًا لا يقدرون على فعل شيء، وهذه المرة يرون السيدة الضَعيفة أم هاشم تهان وتذل وتربط كالبهائم أمامهم ، ولا يتحركون ولا يتحرك أحد منهم للشجب والرفض ولو بكلمة ، يَخافون على حياتهم وأولادهم، فما قِيمة الحياة في مُستنقع الذل والهوان ؟!

أحسوا بالعجز وبقلة نُفوسهم وهم يرون شخصًا واحدًا يتصدى للشماس وزبانيته ، باسل الذي قتل عَددًا منهم، وأحرق مَخازنه وسبب الفوضى والرعب في صدورهم، وأقلق مضاجعهم وهز عرش كبيرهم الشماس الذي ظل مصونا عن نسيم الصباح زَمنًا طويلاً، ولكن جاءت ريح عقيم تزلزل كيانه من كل جانب عازمة ألا تبقي شَيئًا ولا تذر .

فهل سَيظلون هكذا مُنكسي الرؤوس تَاركين باسل لوحده في الميدان ؟

كانت أسئلة تدور في روؤسهم، وهم يتبادلون النظرات تلو النظرات لبعضهم وهم يُشيرون بأعينهم إلى تلك البنادق والرشاشات والمُسدسات وكأنهم ينتظرون لحظة الانقضاض عليهم التي لا يَدرون متى تكون ؟

وقف باسل بالداخل مُودعًا من معه يحتضنهم الواحد تلو الآخر، وآخرهم شندي الذي ابتسم له وقال :

ـ لقد ظللت عُمرًا طويلاً من جنود الشيطان ، أعيث في الأرض فسادًا أقتل وأسرق وأنهب وأغتصب، آن لي بأن أتطهر وأكون جُندًا مرة واحدة في حياتي من جند الخير، لا يَهمني الآن إن مت ، لأني حينها سأكون مت من أجل الحق ودفع الظلم .

ابتسم باسل ويديه على ذراعي شندي، يقول:

ـ أنتم فعلتم لي أكثر ما فعله من كنت أعتبرهم أهلي وأقاربي وأصدقائي ، أنتم نعم الأخوة .

ويربت على كتفيه بينما يَسمعون قول جلال يتسلل إليه بقوة من الخارج :

ـ انتهت المهلة .

يخرج شندي من باب الدار ومسدسه في يديه تنطلق منه الرصاصات تسبقه في صدور رجال جلال الذي ذعر من إطلاق

النار عليه من داخل الدار يعقبه إطلاق نار من أعلى سطح المنزل، فيأمر جلال رجاله في عنف :

ـ اقضوا عليهم كلهم .

ويبدأ رجال جلال بالتراشق بالرصاص ، يَفزع حجاج لما يجد الرصاص من كل جانب ويرى بعضًا من رجال الشماس تسقط أمامه ، يرمي بندقيته ويتهيأ للفرار ولكن تَلحقه رصاصة من مسدس شندي الواقف أمام باب يطلق يمينا وشمالاً فيخر صريعًا على وجهه

تنطلق الرصاصات من رجال جلال الذين تواروا خلف بعض الأشجار وظلوا يرشقون رصاصهم في المواجهة وإلى أعلى ، فتنطلق ثلاث رصاصات مخترقة جَسد شندي، ولكنه كان قَويًا شُجاعًا لم يخر ، وظل يُطلق الرصاص من مسدسه حتى فرغ مسدسه فانطلقت نحوه الرصاصات من كل جانب من خلف الأشجار حتى تغربل جسده وصار كالمصفاة من الرصاص فخر على وجهه .

يرى أهل العزبة ذلك فيصيح شوقي :

ـ هيا يا رجال نقضي عليهم، جاء يوم الصحوة

وينقض شباب ورجال العزبة على العشرين رجلاً المحيطين بهم ، الذين تنطلق منهم رصاصات فتخترق صدور بعض أهل العزبة فيخرون على وجوههم

لـم يهـد ذلـك مـن عزائمهـم وإصراراهـم فتكاتفـوا وانقضـوا عليهم بأيديهم، وبمـا تمتـد إليـه أيديهـم مـن فـروع وأغصان وأخشـاب فيحـدث ضـرب وتراشـق مـن الجانبـين .

يـرى عامـر تلـك المعركـة الشرسـة فيلـوذ بالفـرار، يُنـادي عليـه جـلال غيـر المصـدق مـا يـرى:

ـ انتظر يا عامر أين تذهب ؟

فـلا يلتـف إليـه، ويهـرول مسـرعًا ، يـراه شـوقي وهـو يضـرب رجـلاً بشـومة ، ثـم يهـرول مسـرعًا خلـف عامـر ، يـدب الرعـب في قلب جلال الـذي رأى أهـل العزبـة يقتلـون رجـال الشـماس بـلا رحمـة.

وقـف مذهـولاً ، مُسدسـه في يـده يطلـق يمينـا ويسـار لأعلـى ، يـرى أعضـاء تتطايـر رؤوسـا وأيـد وأرجـل مـع صـراخ وعويـل وصيـاح شـديد ، مـن كلا الجانبـين.

فيهـز رأسـه لمـا يـرى أن الفـرار هـو سـبيل النجـاة، فيلتفت ليهرب فَيجـد مُسدسًـا مصوبـا نحـو جبهتـه، فيتجـرع ريقـه علـى غصـص ، وينظـر فيجـد باسـلا ينظـر إليـه، فيتجـرع ريقـه مـرة أخـرى ويكـاد أن يَتنفـس بصعوبـة ، وفتـح شـفتيه ببـطء يقـول :

ـ أ .....

لـم يتركـه بَاسـل يكمـل كلمتـه فانطلقـت رصاصـة مـن مُسدسـه تختـرق رأسـه وتخـرج مـن الخلـف ناثـرة دمـاءه ، ويهـوي علـى ظهـره .

يبصق عليه باسل ثم يلتفت يبحث عن أم هاشم فيجدها قد تورات خلف جدار الدار الأيمن بعدما بدأت المعركة زحفت على يديها ورجليها حتى اختفت خلف الجدار، هرع إليها يُقبل يديها ورجليها ، وهي تبكي وتربت على شعره وتقول :

ـ ربنا ينصرك يا ابني .

يبتسم لها ويسندها حتى يُدخلها داره ثم يخرج مُسرعًا ، ينظر إلى شندي الغارق في دمائه وهو مبتسم فيهز رأسه ويقول :

ـ ربنا يرحمك يا شندي

ثم يرفع رأسه ينظر إلى أهل البلد الذين ثاروا على الظلم والطغيان فتنفجر أساريره ، ويشعر بالرضا والراحة ثم يدخل مَعهم في معترك القتال بمسدسه حتى قتل ثلاثة آخرين .

قتل رجال العزبة وشبابها الأقوياء عددًا كثيرًا من رجال الشماس وسط زغاريد النساء اللاتي عاون رجالهن في هذه المعركة التي انجلت عن نصرهم وفوزهم بعد قتل من قتل من رجال الشماس وفرار من فر منهم .

أخذوا يتفحصون القتلى من الجانبين، ويبحثون عن جرحاهم لمداواتهم، ينظر باسل يمنة ويسرة بين القتلى كأنه يبحث عن شخص، ورفع بصره فوجد شوقي قَادمًا عليه، وفي يده رأس عامر

يرفعها لهم، فيهلل أهل العزبة ويجري شوقي على باسل يحتضنه، وقد انفرجت ملامح باسل عن فرحة شديدة برؤية شوقي، ثم التفت إلى رجال العزبة وقال :

ـ لم أكن أتوقع أبدًا أنكم ستكونون معي وتتقلبون على الظلم والعدوان ، ولكن خاب توقعي، وطاش ظني، والآن هيا إلى عزبة الشماس لننقذ الباشا وحسن من بين أيديهم ونثأر ممن فعل ذلك، فهل أنتم معي ؟

يصيحون في صوت واحد :

- معك ، حتى الموت

- وإن شاء الله سنجد هناك من يدعمنا لطفي وحسان، وإن شاء الله سيكون معهم رجال من عزبتهم ممن اصطلى بنار هذا الطاغية الشماس، ولكننا سنفرق أنفسنا فرقا ، فرقة على رأسهم شوقي ستأتي من خلف العزبة، وفرقة عليهم عاطف من الجهة الشرقية، وفرقة من الجهة الغربية عليهم الغريب، وأنا ومروان وشاكر سنذهب إلى دار حسان لنرى ماذا يحدث هناك ، ونأتي من الجهة الأمامية إن شاء الله .

●●●

(٢٩)

كانت صاعقة أطاحت بعرش الشماس فصاح بثلاثة من الفارين الذين جاءوا إليه في قَصره يُخبرونه بالمصيبة العظمى:

ـ ماذا تقول؟

ـ قال أحدهم وهو مُنهك يتسنمه غبار المعركة :

ـ جلال قتل وقتل مُعظم الرجال هناك وفر الباقون

صفعه الشماس على وجهه وصاح :

ـ كلاب، جبناء، لا تستحقون الحياة

يأتي إليه أحد حراسه مَذعورًا يلهث من الجري وهو يقول:

ـ الحق يا عزام باشا

يهز رأسه مستفسرًا يقول :

ـ ماذا حدث ؟

ـ أهل العزبة كلهم قادمون ناحية السرايا، وفي أيديهم بنادق وشوم وعصي

أمسك بتلابيبه وصاح :

ـ ماذا قلت ؟

اقترب منه أنور وقال :

ـ لم يعد هناك وقت للحديث، هيا لتفر من هنا بسرعة ونفر معك ، لن نقدر عليهم

قال هذا الرجل مؤكدًا كلام أنور:

ـ أنور معه حق ، الرجال يَنهمرون من كل جانب نحو السرايا، لقد قضي علينا يا عزام باشا .

تتسع عينا عزام، لا يكاد يصدق ما يسمع، ويخر على الكرسي خلفه وهو كالمصعوق ، يفكر ماذا يفعل ، يَنظر يَمينه إلى المنضدة يعلوها هاتف أسود بقرص دوار، يرفع السماعة في لهفة بَاحثًا عمن يُساعده في محنته، ولكنه أصيب بخيبة أمل من أول اتصال بعد رفض السلطات البريطانية مساعدته صاح بعدها :

ـ كلاب ، تَركوني أغرق، وكل هذا بسببهم .

فأجرى اتصالاً ثَانيًا وثالثًا ورابعًا، الجميع تخلوا عنه بعدما كان أكبر مناصر لهم ، فشلت كل مساعيه في البحث عن مُناصر أو منقذ له من محنته المهلكة أحس بزحف الموت، يقترب منه، فساد حالة من الصمت والوجوم، قطع هذه الحالة صياح وضوضاء شَديدة بالخارج صاحبها رشق حجارة صغيرة ومتوسطة الحجم ناحية القصر من كل جانب في جدرانه، ونوافذه وأبوابه هب عزام مَذعورًا يتلفت حوله كالمسعور يصيح فيهم :

ـ اخرجوا إليهم، اخرجوا ، دافعوا عني

ثم يُمسك بذراعي أنور ويصيح به :

ـ احمني يا أنور، دافع عني، لم يعد لي غيرك الآن

يهز رأسه ويقول :

ـ ادخل مَكتبك بسرعة، وأنا سآتي خَلفك مُباشرة

يهرول مُسرعًا إلى مَكتبه يغلقه عليه، ويزيح الفرش الذي في وسط غرفة المكتب ، فينحسر عن باب حديدي يستجمع قوته في رفعه بينما تتعالى أصوات الرصاص بحديقة القصر ، فقد اشتبك رجاله مع أهل العزبة يَتقدمهم باسل الذي قتل اثنان بِمسدسه، فألقى الباقون أسلحتهم ورفعوا أيديهم مستسلمين ، وقد أتت الحشود والوفود مِن كل حدب وصوب حتى امتلأت حديقة القصر بالرجال والشباب بِعصيهم وحديدهم وعتادهم وشومهم وبَنادقهم وسواطيرهم، وغير ذلك مما استطاعوا حمله من أسلحة مُتنوعة.

أهل العزبتين معًا عزبة سيف وعزبة الشماس معًا يدًا واحدة في مُجابهة هذا الطاغية الذي فر من بين أيديهم، فتشوا كل جزء في القصر فلم يجدوا له أثرًا كان خاويًا على عروشه، التفت باسل للمستسلمين خلفه وقال لهم :

ـ إذا كنتم تريدون الحياة فأخبروني أين هو؟ وأين مُعتقل تعذيبه في هذا القصر؟ أنا مُتأكد أنه هنا؟

قال أحدهم :

ـ ستجد ما تبحث عنه في بَدروم القصر، عزام هِرب من مَكتبه في سرداب من مكتبه إلى البدروم ثم إلى سرداب طويل من البدروم ينتهي آخر العزبة ومنه إلى الطريق الرئيسي

يصيح باسل برجاله :

ـ حاصروا القصر من كل جانب، وأنت يا لطفي خُذ بعض الرجال، ومعكما هذا الرجل ليدلك أين يَنتهي السرداب، وأنا وباقي الرجال سندخل من السرداب من هنا كي نحاصرهم

يهرع جميع الرجال من كل جانب متفرقين، وفي لحظات كان باسل وشوقي وحسان وبعض الرجال على السلالم المُؤدية إلى البدروم ، يمشون على أطراف أصابعهم، لا يَعرفون ما سيواجهونه، وفجأة تنطلق أصوات رصاص مُدوية ناحيتهم ، تخترق رصاصة صدر شوقي فيخر على السلالم متدحرجًا أمام باسل المذهول مما يرى، فَيبادل الرصاص برصاص مماثل، حتى يخر أحد رجال الشماس أمام قَدميه وهو يهبط فوق آخر درجة من درجات السلم فيجدون الباشا سيف وخلفه حسني يضع مسدسه في رأسه من الخلف، ويقول:

ـ سأقتله إذا اقترب مِني أحدكم .

يهرول حسان مُسرعًا على أخيه الذي مازال مَربوطًا على العروسة وجسده يشخب دمًا، يهزه حسان يمنة ويسرة ينادي عليه وهو يبكي :

ـ حسن ، حسن

فلم يجد جوابًا فيطلق صرخة مُدوية وينام برأسه على ظهر أخيه المحمر بالدماء، يلتفت باسل إلى حسان المنهمر في البكاء والنحيب على أخيه، تنذرف بعض حبات الدمع من باسل ، وهو ينظر إلى حسن بينما يرفع مسدسه بسرعة، ويلتفت بسرعة بصفحة وجهه ويطلق رصاصة تخترق رأس حسني بين عينيه يَتناثر دمه على رأس الباشا، ويخر منه مسدسه، ويهوي على الأرض.

يفك باسل قيود الباشا الذي بِمجرد فكها يأخذه في حضنه ، وهو يبكي من الفرح يقول باسل :

ـ ما كنت لأتركك أبدًا حتى لو دفعت حياتي ثمنًا لذلك

يبتسم الباشا ويُشير خلفه نحو السرداب ويقول :

ـ هيا الحقوا عزام لقد فر من هنا منذ دقائق

ينحني باسل يمسك مُسدس حسني ويجري مُسرعًا في السرداب المظلم تسبقه رصاصتان من مسدسه ، فيسمع صوت رصاصات أخرى مُدوية تتجه ناحيته فشك هل هي من عزام الشماس أم من لطفي ومن معه، فالتصق بالجدار وصاح :

ـ استسلم يا عزام، العزبة والسرايا كلها مُحاصرة لن تستطيع الإفلات ، استسلم خيرًا لك .

ويصمت ليرى هل سيجيبه أحد أم لا ؟ فلا يسمع شيئًا ، فيقف في وسط السرداب مُصوبًا مسدسه أمامه يستشكف الطريق ، فيرى كأن خيالاً قادمًا عليه، يقترب منه أكثر فأكثر، فيرى الشماس وأنور رافعين أيديهما وخلفهما لطفي، ومن معه مُصدرين بنادقهم ومسدساتهم في ظهريهما ، يبتسم باسل ويقول :

ـ ونعم الرجال يا لطفي .

ـ كنت سأقتلهما ولكني أبقيتهما لترى فِيهما أمرك .

ينظر باسل إلى أنور ويقول:

ـ أتريد النجاة يا أنور؟

يندهش أنور من السؤال وينظر لمسدس باسل المصوب نَاحيته ثم يتجرع ريقه في ترقب وتهيأ للكلام:

ـ نعـ....

لـم يمنحـه فرصـة إتمامهـا، وانطلقـت رصاصـة تختـرق رقبتـه فخـر صَريعًـا علـى الأرض أمـام عينـي الشـماس المرعـوب ، ثـم نظـر لباسـل فبادلـه نظـرة مقـت ، ثـم قـال :

- أمـا هـذا فلـن يَقتلـه أحـد مِننـا بِمفـرده، سيشـترك الجميـع في قتلـه، كل مـن ظلمهـم وقتلهـم وشـرد أسـرهم ويتـم أطفالهـم ورمـل نِسـائهم واسـتولى علـى حقوقهـم وأمـلاكهـم كلهـم سيشـتركون في قتـل هـذا الكلـب .

- لـن تَسـتيطع أن تفعـل شـيئًا ، قـوات الجيـش الإنجليـزي سَـتجدها هنـا بعـد قليـل ، وسـوف يدمرونـك ويُدمرونكـم كلكـم ولـن تبقـى لكـم باقيـة

- انتهـى كل شـيء يـا شـماس، وأنـت انتهيـت وسـينتهي مـن تحتمـي بهـم قَريبًـا جـدًا وسـوف ينعـم هـذا الشـعب مـن جديـد بالحريـة في كل شـبر مـن أراضيـه ، ولـن يكـون هنـاك أمثالـك مـن الطواغيـت وأعوانهـم .

- أنـت تحلـم ....

صرخ بـه باسـل :

ـ اصمـت ، لا أريـد سـماع صوتـك، كلامـك وحياتـك انتهـت، هيـا يـا لطفـي تحركـوا بـه .

●●●

(٣٠)

ربط الشماس عَاريًا إلا ما يواري سوأته على ارتفاع مِترين من شجرة كافور في المنطقة الخالية التي أمام قصره، تلك المنطقة التي ربط فيها أهل العزبة وسامهم سوء العذاب، فَجاء اليوم الذي يربط في نفس المكان الذي ربطهم فيه عراة، فعروه كما عروهم، وربطوه كما ربطهم، ولكنهم لم يجلدوه كما جلدهم، وإنما ظلوا يَرشقونه بالحصا وبالحجارة وبالطوب وبالزلط وهو يصرخ ويصيح :

ـ لاااااا ، اتركوني ، أرجوكم ، لاااا

تذلل لهم وترجاهم ولكن بعد فوات الأوان، فسالت الدماء من جسده ومن رأسه، والأحجار تهوى عليه من كل جانب، تفت كل موضع من جسده، أهل العزبتين رجالاً ونساء صغارًا وكبارًا يرشقونه بالحجارة وبالطوب والعصي وكل ما تَصل إليه أيديهم وهو يَصيح ويَصرخ .

وفجأة توقف صراخه، وخمد صياحه، وانهد أنينه، وانفجرت الدماء من كل جزء في جسده، ومالت عنقه على صدره، ومع ذلك لم يتركوه وظلوا يقذفونه بالطوب والحجارة، ولما رأى ذلك باسل وقف أمامهم ورفع يديه لهم وقال :

ـ توقفوا، توقفوا، لقد مات، وانتهى الأمر، لقد فعلتم ما تريدون، وانتقمتم لشرفكم ولكرامتكم، وثأرتم منه أشد ثأر، وقد نال جزاءه، هو الآن بين يديكم لقى حتفه إذا كنتم تُريدون إنزاله ودفنه فافعلوا وإذا كنتم تريدون إبقاءه هكذا، فالأمر يرجع إليكم، الآن وقد عرفتم طريقكم لا تجعلوا أحدًا يَستحوذ عليكم من جديد ولا تستكينوا ولا ترضخوا ولا تركنوا إلى الظالمين أبدًا، وثوروا دائمًا لكرامتكم وعزتكم

يهزون رؤوسهم موافقين لكلامه، ثم يتفرقون من حوله كل لحال سبيله ، ينظر إليهم وهم يتفرقون تاركين عزام الشماس مصلوبًا على شجرة الكافور لم يتقدم مِنهم واحد لإنزاله ودفنه .

الجميع تفرقوا من حوله يتهامسون ويدندنون فيما بَينهم ، حتى لم يبق سوى باسل وسيف باشا ولطفي .

ينظر حوله فلا يجد غيرهما سيف باشا عن يمينه ولطفي عن يساره، يبتسم سيف لباسل ويضع يده على كتفه يهز باسل رأسه ويسير معهما وهو مشغول البال شارد الفكر يُفكر في ليلى التي تسببت في تغيير حياته، وجعله إنسانًا آخر، مشى معهما، وهو يحلم بلقياها مرة أخرى ليشكرها على ما فعلته وغيرته في حياته.

●●●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر